

مسلمون
من المفارقات التاريخية للسنة والشيعة

أحد عشر يوما في القلعة الأسطورية لبارسيفال

راشد شاز

نقله إلى العربية

د. عبدالمجيد حبيب الله

جلناز شمس الدين

مسلمون من المفارقات التاريخية للسنة والشيعة

أحد عشر يوما في القلعة الأسطورية لبارسيفال

راشد شاز

milli

فبمأساة مقتل عثمان رضي الله عنه بدأت الليلة الحالكة وزادها سوادا شهادة الحسين رضي الله عنه ومن ثم أكملت الروايات التاريخية المسمومة البقية الباقية. فلقد دُست هذه الروايات في كتب التاريخ والتفسير وكأنها أسلحة ناسفة عوضا عن كونها روايات دينية. فما لم تقم هاتان الطائفتان بالتخلص من هذه الروايات المسمومة من كتبهما الفكرية ويصبح لأتباع محمد صلي الله عليه وسلم كتاب الله المنزل مرجعا واحدا لا يمكن أن يشرق علي هذه الأمة فجر جديد

ISBN 978-93-81461-23-5

9 789381 461235

milli publications

إن السيد راشد شاز من أولئك المثقفين والمفكرين الذين وفقوا لدراسة العلوم الشرقية والغربية ، وحظوا بفرصة وافرة للتعامل مع أصحاب مختلف الحضارات والثقافات.

حصل السيد راشد شازعلي درجة الدكتوراه في الأدب الإنجليزي من الجامعة الإسلامية بعليكره بالهند ثم ذهب إلي السودان لدراسة العلوم العربية والإسلامية حيث التحق بالمعهد العالي للغة العربية بالخرطوم (الجامعة الإفريقية الدولية حالياً).

في عام 1987م وأثناء دراسته أصدر كتيبا لإحياء الإسلام في الهند والذي أحدث حراكا في الوسط الفكري المتجمد لمسلمي الهند. وفي عام 1991م عقد مؤتمرا عاما لمسلمي الهند كخطوة عملية اجرائية لتنفيذ ماورد في هذا الكتيب من توصيات . وفي عام 1993م قام بوضع حجر الأساس لبرلمان ملي وعقد تحت لوائه عددا من المؤتمرات والاجتماعات العامة التي منحت المسلمين نوعا من الثقة ودلتهم إلي سبل التعامل مع الفكر السياسي الجديد. وفي عام 1994م أصدر مجلة إنجليزية باسم "ملي تايمز انتارناشونال"، ومنذ ذلك اليوم يشرف عليها حتي الآن. وفي عام 2004م أصدر مجلة الكترونية أخري تصدر كل شهرين باسم "فيوتشر اسلام"، وذلك لإحياء الفكر الإسلامي. تصدر هذه المجلة باللغتين العربية والإنجليزية في آن واحد. وفي عام 2005م عقد مؤتمرا في مدينة لندن لدراسة ومناقشة الظروف الراهنة علي مستوي العالم، ودعا من خلال هذا المؤتمر الأحزاب الثورية لمحاسبة نفسها وفتح صفحة جديدة.

ولإقامة عالم جديد مبني علي العدل والمساواة ظل راشد شاز فعالا ومتعاونا مع الآخرين في مختلف المحافل الدولية والمنتديات العالمية، وفي هذا الصدد قام بالسفر لمعظم دول العالم.

فى عام ٢٠١٣م عين سيادته أستاذا بجامعة عليكره الإسلامية بطلب من الجامعة ذاتها كما تولى منصب السفير لمنظمة ايسيسكو فى العام نفسه.

قدم راشد مئات المقالات ما بين قصيرة وطويلة عن الفكر الإسلامي والقضايا الخاصة بالأمة الإسلامية باللغات الأردية والإنجليزية والعربية. كذلك صدر له حوالي أربعين كتابا بأحجام مختلفة من مطابع دلهي وبيروت ولندن والرياض.

www.rashidshaz.com

رحلة الأيام الإحدي عشرة هذه عبارة عن تاريخنا الممتد لأحد عشر قرن من الزمان. ففي القرنين الثالث والرابع من الهجرة حدثت مأساة تقسيم الأمة الواحدة بشكل ممنهج وانقسم المسلمون إلي فرق ما بين شيعة وسنة وإسماعيلية وإباضية. وبعد مرور قرون منذ ذلك الحين لا أدري لماذا سلم الناس أنه قد قُدر علي المسلمين أن يعيشوا في هذه الحروب الأهلية النظرية إلي قيام الساعة.

وإنه لتدبير إلهي محض أن يقابل الراوي شخصا يدعي "كودرا" في القلعة الأسطورية لبارسي فال. كودرا هذا شخصية غير عادية فهو ذو عقل راجح وحس مرهف وهو شيعي وسني في نفس الوقت. ففي شخصيته الانفصامية تعيش شخصيتان مختلفتان في آن واحد فحينا يصبح مدافعا عن وجهة نظر أهل السنة وحينا آخر يسيء إلي أهل السنة محبة لأهل البيت. وفي كثير من الأحيان هو نفسه لا يعي تماما ما يدور حوله، وهكذا أصبحت شخصيته ثنائية القطب بل متعددة الأقطاب ومأوي لكافة الملل والنحل. كودرا هذا شخص عميق يفكر دون توقف وأصدقك القول فإن هذا التفكير المستمر قد حوله إلي شخص مريض بداء الصرع.

وهنا نقابل أيضا أيها القاريء الكريم أشخاصا لم يكونوا موجودين بالقلعة فالعالم الشيعي الشيخ حسن فولادي والعالم السني الشيخ الحذيفي وما جري بينهما من تلاسن وما دار من مناظرات تصيب قلبك بسهام الحيرة والدهشة.

في مجالس "بورل" يصاب القلب بنوبة أو يخفق بشدة ويتراءي أن أية مساع لإصلاح الأحوال لا تجدي نفعا و لكن أحيانا أخري يلوح في الأفق طريق المستقبل المشرق لامعا براقا. ضاع أحد عشر قرنا من الزمان في اتباع التاريخ والتأويل والآن اتضح بجلاء بعد المرور بالتجارب القاسية أننا لن ننجح بدون اللجوء إلي الوحي الإلهي.

تسقط أسوار الفرق المتنافرة والمتعصبة بقراءة هذا الكتاب، ولعله أول تصنيف يرفض كلتا الفرقتين الشيعة والسنة رفضا قاطعا دون أن يرجع لإثبات أحقية موقف أحدهما علي الأخري. فهذا الكتاب يقرر بشكل جلي أن بقاء هذه الفرق والطوائف في حقيقة الأمر وأد للإسلام.

www.rashidshaz.com

مســلمون

من المفارقات التاريخية للسنة والشيعة

أحد عشر يوما في القلعة الأسطورية لبارسيفال

راشد شاز

بسم الله الرحمن الرحيم

تنويـه

هذا الكتاب يستند إلي مشاهدات حقيقة مثل كتابي السابق "لستم بوخ" ولكن من أجل تجنب الإطالة أو الإسهاب؛ تم دمج بعض الشخصيات بالإضافة إلي شخصيات أخري حتي يظل تركيز القاريء علي مضمون هذه الرواية من ناحية ومن ناحية أخري لإخفاء هوية بعض الشخصيات الحقيقية، وعلي الرغم من هذا فلو أحس أحد أنه مستهدف أو معني في هذه الرواية؛ بسبب التشابه الشخصي أو الزماني أو المكاني فينبغي أن يحمل هذا من قبيل الصدفة البحتة؛ لأنني اجتهدت قدر الإمكان حتي أعرض عليكم خلاصة مشاهداتي دون نقص أو زيادة، بحيث لا تتصادم الحقائق، وفي نفس الوقت لا تتسبب في إحراج أحد.

راوي هذه الحالة ليس بمتحدث رسمي لموقف السنة ولا هو بمحام لوجهة نظر الشيعة. لهذا السبب قد تجنب عمدا استعمال العبارات الرمزية (رضي الله عنه) أو (عليه السلام) مع أسماء أصحاب النبي (ص) لأن كل رمز لإظهار الاحترام منهما ينم عن وجهة نظر طائفية لا أكثر. وهكذا ففي الصدر الأول تكمن عظمة أصحاب رسول الله في أسماء أصحابها.

الفصل الأول

حول حطب التدفئة

علي ارتفاع نحو مائتي قدم من نهر "دراوا" كان المساء قد حل تحت أسوار "كاسل برل" وخلف البوابة الرئيسة كانت التدفئة متقدة وعلي الجوانب الأربعة من هذا الحطب المشتعل كانت توجد مناضد حجرية كبيرة بشكل دائري تضم حوالي مائة وخمس وعشرون فردا. كان منهم السيدات والرجال الأسود والأبيض والعلماء الموحدون والملحدون كأنهم مجموعة أضداد. وفي ظلمة الليل وفي الجو اللطيف البارد عندما كان ضوء النار يقع علي وجوه الحاضرين في هذه القلعة الغامضة المجهولة وبسبب هبوب الهواء اللطيف حينما كان لهيب النار الذهبي يزداد اشتعالا فكان يخيل إلي كأن نورا سماويا وقع علي وجوههم وأن هذا الإنسان العادي المكون من لحم ودم قد أحيط بهالة مقدسة. والجدير بالذكر أن المشاركين في هذا التجمع كان كل واحد منهم علي حدة فواحد منهم كان قد جاء مع الآلات الموسيقية والثاني كان في يده الميكروفون وجاء الثالث متأبطا الكتب وهناك أناس كانوا قد جاءوا ومعهم البطانية تحسبا لشدة البرد بعد حلول المساء. كان الخبر قد ذاع بينهم خبر أن اليوم سيسمع الناس حول حطب التدفئة حكايات تم إبعادها من حياتنا من قبل النظام الظالم المعاصر ولهذا السبب نجد أنفسنا اليوم معذبين في حياة لا بهجة فيها ولا رونق لها.

وأسفاه أين ذهبت الأيام التي كانت مليئة بالفرح والسرور وكان يبدو لكل متأمل كأن الحياة تسلسل فرح لا نهاية له والطفولة والشباب والشيخوخة مراحل مختلفة للحياة حيث تقف الحياة للحظات تلتقط الأنفاس أو تستريح قليلا ثم تبدأ سلسلة تجلياتها من جديد ووقتها لم تكن قد أقيمت مدارس لقتل الطفولة بلا رحمة ولا شفقة. والطبيعة نفسها كانت بمثابة مدرسة حيث كان تسلسل التعليم والتعلم مستمرا بكل فرح وسرور ومرحلة الشباب لم تكن لتدهسها أقدام قلق تكوين الشخصية ولم تكن الشيخوخة عبارة عن دار للمسنين حيث يقضي كل واحد أيام حياته المعدودة المتبقية، ولم تكن هناك في نفس الوقت آلية إجبارية لدفع الضرائب ولم يكن قد تقرر سداد رسوم الخدمات اللامنتهية للفرد كنمط حياة وكذلك لم يكن قد أصبح الحصول علي الرزق يتطلب العمل الدؤوب ولم تكن قد ظهرت طبقة الرأسماليين علي مستوي العالم والتي تقوم بشراء حياة الفرد البريئة بالكيد والمكر والترغيب والترهيب مقابل بضعة ملايين من الدولارات وتتم هذه الصفقات بدهاء وحيلة في غاية المهارة بحيث لا يشعر الفرد أن بضعة الملايين من الدولارات هذه مقابل التأمينات المختلفة التي ساوم عليها كان ثمنها حياته التي لا تقدر بثمن والتي لا ينالها الإنسان سوي لمرة واحدة فقط فكم هي قاسية هذه التجارة التي سلبت من سكان العالم معني وبهجة حياتهم وجعلتهم يعيشون دوما في عذاب.

اليوم وعند حلول المساء وحينما أشعل حطب النار بدأ المتمردون علي هذا النظام العالمي الظالم التجمع حوله في أحضان الطبيعة وبدا للحظات كأن الحياة بجميع معانيها الفطرية قد اهتزت ودبت فيها الروح من جديد وفي هذه الأثناء أثارت المطربة لحنا ثوريا مع استخدام العود وفي خلفية هذا الطرب نادي مناد أن يا أيها الناس

ا صطفوا في صفوف طويلة من أجل الحصول علي وظيفة أو نيل نصيب من الترقية وهو نوع من الحيل الماكرة للأنظمة العالمية المتجبرة وإن لم تخرجوا من هذه الطوابير فلن تستر دوا حياتكم من جديد.

Poor people gonna rise up
And get their share
Poor people gonna rise up
And take what's theirs

بعد سماع هذه النغمة الثورية اليوم تذكرت فجأة تلك النغمة الثورية الشهيرة التي ترجع للستينات من القرن الماضي حيث الشاعر الثائر يقول مرة تلو الأ خري

Stop the world I want to get off

وقتئذ أيضا كانت هذه القضية معروضة أمام أهل الفكر والرأي الذين كانوا غير راضين عن أ ساليب وطرق الدنيا فإن نزلوا من القطار أو خرجوا من الطوابير فإلي أين المفر؟

ما ذا أفعل في قلعة "بار سيفال" هذه التي يرجع تاريخ بناؤها إلي ألف عام. إن حياة الغرب هذه الخالية من الروح وهذا العجز الحا صل للفر د بأيدي نظام القهر و سد جميع السبل المتاحة للحياة كل هذه الأمور لا توجد بنفس الكيفية في الشرق وبصفة خا صة في مدن العالم الإ سلامي وإن كانت قد ظهرت بعض الجزر الخالية من الروح والسعا دة بسبب ثروة البترول. علي سبيل المثال خذ مدينة صغيرة مثل "دبي" حيث تم إ سدال الستار لإخفاء انحطاط وزوال الأمة عن طريق بناء مبان شامخة فوق السحاب وظهرت كذلك هذه المظاهر في مناطق أخري من العالم الإ سلامي وإن لم تكن مكابس الآلات الإجبارية لدفع الضرائب لم تشتد بعد، ويمكننا أن نقول أن الحياة الميكانيكية الخالية من الروح لم تطغ علي حياتنا نحن الشرقيين. ومع وجو د تلك الهوة بيننا وبينهم فما هو السبب

وراء هجرة علمائنا ومفكرينا إلي الغرب في الثلاثين والأربعين سنة الأخيرة كذلك ما هو السبب وراء اختفاء السعادة القلبية والذهنية وغياب العزيمة والهمة منذ قرون علي الرغم من توافر الوسائل والتقنيات الحديثة بكثرة في مختلف مدن العالم الإسلامي. أهل الشرق ينظرون إلي الغرب باستمرار منذ فترة للحصول علي أفكار جديدة واختراعات حديثة والتكنولوجيا والإيديولوجيا الخلاقة لأن منابع الفكر الخلاق والإبداعات والاختراعات والتسخير والاكتشافات التي كانت تتدفق من باطننا قد جفت.

سألت علي كودرا ما هو سبب تكدر صفائنا الذهني؟ الغرب وإن كان قد تحول إلي خراب بسبب الرأسمالية فعلي الأقل ليس الأمر كذلك عندنا. فلماذا تبدو الحياة في مدن العالم الإسلامي كأنها انحرفت عن الطريق المنشود وخبت إلي حد ما؟ لماذا فقدت بيئة حرية الرأي والفكر؟ العالم الإسلامي المكون من سبعة وخمسين دولة لماذا تبدو كمجموعة أضداد ولماذا تتعارك الهويات القومية والحدود لهذه البلاد وأخطر من هذا أن العالم الإسلامي غني بالموارد الطبيعية ولديه وفرة في القوة البشرية لكن علي الرغم من كل هذا لماذا هو معرض للانهيار والانحطاط؟

نظر علي كودرا إلي حطب التدفئة ثم أغمض عينيه للحظات كأنه يتذكر شيئا قد نسيه ثم قال بثقة عالم الدين: نحن لا نستطيع النهوض أقسم بالله نحن لا نستطيع أن ننهض أبدا. كل شيء سيستمر كما هو وستر الغرب مضيئا مع تناقضاته والعالم الإسلامي يظل معرضا للتفكك والناس ينظرون إلي الغرب باحثين عن سكينة وهمية. وهناك أمر آخر وهو أن الغرب لن يبقي ملجأ لمدة طويلة من الآن بسبب انهيار الرأسمالية لكن رؤيتك هذه أن العالم الإسلامي في وسعه أن يؤدي دورا مهما في الأزمة العالمية فرأيك هذا قاصر.

وما سبب هذا اليأس؟ أردت الإيضاح من علي كودرا؛ بدأ يقول أن وجودنا كأمة أصبح متآكلا وهناك وهن أصابنا من الداخل منذ قرون والآن لم يبق منا إلا هيكل محض وأي محاولة لتحسين هذا الهيكل لن تُجدي لأن الوهن الذي كان قد أصابنا ازداد لحد كبير ولا يمكن أن نتخلص منه إلا بمعالجة غير عادية ولا تقليدية ومن سوء الحظ نحن لا نجد أنفسنا مؤهلين لهذا العلاج غير التقليدي لا عقليا ولا علميا ولا نفسيا.

فهمت ما أشار إليه علي كودرا لكن لم أكن متفقا معه علي أن الانهيار هو قدر مكتوب علي الأمة الإسلامية للأبد وجميع الطرق قد أصبحت مسدودة أمام طوق النجاة والتخلص منه ونظرا لأهمية هذا الأمر أنهيت الحوار لمناسبة أخري.

بدأ وهج النار المشتعلة في حطب التدفئة يخبو بالتدريج وكانت قد أضيئت المصابيح من مكان لمكان وكذلك كان قد بدأ تناول العشاء. وما أن هممت بالجلوس علي المنضدة بعد أخذ طبق الشوربة حتي أمسكني "ميها بوجنك". ميها وإن كان من الموسيقيين لكنه عندما يبدأ العزف فيبدو وكأن عالما يتحرك معه ويستحوذ علي قلوب المستمعين وبالإضافة إلي مهارته الموسيقية فله نظرة عميقة في القضايا الاجتماعية وهو يسعي لفهم كل حدث تاريخي من منظور الرموز والعلامات وهو يقول أن موسيقاه آخر عمل في حياة الغرب الخالية من المتعة والسعادة ولو لم يكن هذا أيضا فالإنسان يلفظ أنفاسه في داخله.

وعندما حان موعد الوداع بدأ يقول: إنني عاجز عن فهم كيف داست أقدام الغرب علي الحياة المبهجة لأهل الشرق في القرن التاسع عشر ثم أردف قائلا: إنني كلما أفكر في سقوط امبراطورية المغول أتحير كيف استطاع شرذمة من الإنجليز في إطفاء مشعل هذه الامبراطورية العظيمة؟ وكيف تمزقت السلطنة الصفوية وكيف تعرض الأتراك

العثمانيون فجأة لفوضي خلاقة وهم الذين كانوا يحاصرون فيينا لأواخر القرن السابع عشر؟

"ومنطقة البلقان هذه أيضا كانت في وقت من الأوقات جزءا من الخلافة العثمانية أي بمعني آخر أنك أيضا جزء من هذه المعركة التاريخية فكيف تري هذه القصة المأسوية التي شهدت علوا ثم سقوطا؟"

بدأ يقول إنني بقدر ما درست تاريخ الاقتصاد اتضح لي أن السقوط المدوي للعالم الإسلامي من دلهي إلي اسطنبول لم يكن سببه الأزمة الاقتصادية المحضة وإن كانت في أوروبا تتدفق الوسائل الصناعية بسبب الثورة الصناعية لكن في نفس الوقت لم تنطفيء الأنشطة الاقتصادية في الشرق ثم أن المواد الخام كانت متوفرة في الشرق نفسه لكن ما حدث أن كل هذه الولايات الإسلامية أصبحت مضطرة للتعامل مع التجار الأجانب طمعا في الحصول علي منفعة وقتية بسيطة بسبب النفاق الداخلي المستشري بينها فلو نظرنا بالمنظور الاقتصادي المحض فإن العالم الإسلامي كان قادرا علي مجابهة هذه الحملة الاقتصادية الشرسة فالتكنولوجيا كانت موجودة هنا وكان بالإمكان تصنيع الآلات الصناعية أيضا لكن في هذه الحالة كثير من الأيدي العاملة قد تعرضت لفقدان وظائفها وأعمالها ففي هذه الحالة لم يكن النموذج الأوروبي فعالا في ظل الثورة الأوروبية الصناعية سواء أكانت فارس أو الهند أو المساحة الشاسعة للخلافة العثمانية كانت الحياة هنا لها نضارتها وبهاؤها. وهنا نستشعر أن عملية الاختراع والتسخير والاكتشاف كانت قد تجمدت إلي حد ما وعلي جانب آخر كانت أوروبا تمر كل لحظة بتجليات الإبداع والاختراع والاكتشاف لكن قلة من الناس تدوس بأقدامها فجأة علي حضارة عظيمة حتي تتمزق أوتارها فجذور هذه الهزيمة بكل تأكيد عميقة جدا. أنا لا أستطيع أن أحدد أماكن الخلل لكن هناك أمر ما بكل تأكيد.

بدأت حرارة النار تخمد الآن وبدأ الناس في الانتشار و شوربة قدحي كانت قد انتهت أيضا وا ستأ ذنت ميها بوجنك متوجها إلي مقري وفي الطريق ظللت أفكر أن شيئا ما كان سببا في تشتت أمة آخر النبيين صلي الله عليه و سلم منذ قرون وأي تدبير لإ صلاح الأحوال والظروف لن يأتي بنتيجة إيجابية وحينما تقوم أي حركة جديدة للإصلاح فيبدو وكأنها بدأت تتجمد قبل أن تنمو وتثمر. لقد جئت هنا تاركا علي مكتبي للمطالعة المجلد الثالث لكتاب إدراك زوال الأمة وهناك كانت تواجهني نفس القضية وهي بماذا نسمي هذه الكارثة الفظيعة. تلك المفسدة والشعور بفقدان شيء ما كان يخالجني أثناء تصنيف هذا الكتاب مرارا أنني أريد إمساك هذا الشيء لكنني غير قادر علي ضبطه وإمساكه وحديث ميها كان يشير أيضا إلي نفس الكارثة وإن كان الو صول إلي سبب حدوثها في غاية الصعوبة لكن واعظونا يبينونها بكل سهولة بل وبثقة زائدة وأحاديثهم لا تكون عارية من الصدق بالمرة أيضا. "حدث كل ذلك بسبب ابتعادنا عن الدين". إنني سمعت مرارا في مجالس الدرس والوعظ ومن فوق منابر المساجد مثل هذه الدروس والبيانات لكن عندما بدأت الخوض في التفاصيل فكانت النتائج مختلفة تماما عن العلماء والمفكرين التقليديين والمطبوعين فلدي هؤلاء معالجة انحطاطنا تبدأ بالالتزام بالطقوس والتقاليد الدينية وكذلك لا بد أن تسري في حياتنا مظاهر السنة وتقام المجالس والحلقات الدينية وتكون هناك أنشطة بكثافة للدعوة والتبليغ. والواقع أن الحركات والجماعات المختلفة التي نشأت في القرن العشرين منحت الحياة الدينية حياة جديدة لكن علي الرغم من هذا لم ينقص الشعور بفقدان شيء ما.

مع حشد من هذه الأفكار والرؤي دخلت قلعة بوريل من البوابة الرئيسة ففي داخل فناء القلعة كانت هناك شمعات مضيئة في المحاريب

من مكان لمكان وفي ظلام الليل كانت الأضواء التي تنبعث منها تحمل نوعا من السرية. كان محل إقامتي في الدور العلوي وعند المرور بالطرقات والصعود علي السلالم كانت تستيقظ بعض الطيور فحركة أجنحتها تخلق جوا موحشا ثم يبدو فجأة أن كل شيء قد هدأ. في غرف القلعة المختلفة كان يقيم عدد آخر من الضيوف مثلي وبدخولهم وخروجهم كانت تحدث في الجو الهادئ نوع من الحركة اللحظية ثم في اللحظة التالية يعم الهدوء التام. أضأت الشمع في غرفتي ورفعت الستار عن النافذة التي تطل علي نهر دراوا لكن وبسبب الظلام الدامس في الخارج لم أستطع رؤية شيء. أردت أن أفتح مصراعي النافذة لكن خوفا من أن تنهض الطيور وتبدأ الهجوم علي الغرفة وأقع في ورطة أخري تنازلت عن شم النسيم البارد الآتي من خلال النافذة. وأنا نائم علي السرير بدأت أفكر عن الحياة في قلعة بارسي فال التي ترجع إلي ألف عام فكم هي حافلة بالأسرار مرتبطة بالطبيعة ومليئة بالبهجة والسرور لكن من يوم أن ذهبت هذه الأسرار أصبحت الحياة ثقيلة بل أصبحت لكثير من الناس مملة لكن سر الأسرار الذي أشار إليه ميها والذي يأتي من خلال التحليل والتجزئة أكاد أمسكه لكن أفشل في الإمساك به ولا أدري كيف أبينه وأحلله وأعبر عنه بلغة علمية. أخاف أن أصبح فريسة لمنهج فيه مبالغة في التبسيط أو أسيرا لآخر اختزالي وتهيأ لي أن ميها بوجنك ليس علي معرفة برأس مالي الفكري والنظري فتحليله منحصر علي القضايا التاريخية والاقتصادية لكن لماذا أصيب علي كودرا باليأس الكامل علي مستقبل الأمة المسلمة ولماذا يُري فاقدا للوعي؟

الفصل الثاني

حبل الله

في اليوم التالي لم يكن لي برنامج لأن اليوم كان مخصصا لانعقاد ورشة عمل متبادلة ومتنوعة. أخذت المفكرة الخاصة بي وبعض الأوراق وجلست خارج أسوار القلعة علي منضدة حجرية مستندا إلي جذع شجيرة وظللت أتأمل وأحدق في الفضاء البعيد لبعض الوقت. إن سر الأسرار كان آخذا في مطاردتي وهو كيف أصابنا الانحطاط والانهيار وما لم يتم تشخيص أي مرض لا يمكن معالجته. كنت ما أزال أحدق في الفضاء البعيد إذ أتي فجأة صوت كصوت ضغطة الزر وهنا انهار تركيزي.

كانت هذه "مارلين وارنر" والتي كانت تحمل في يدها كاميرا وقالت مبتسمة معذرة علي تسببي في تشتيت تأملاتك فعندما رأيتك غارقا في التأمل تراءي لي لم لا أسجل هذه اللقطة المتأملة الطبيعية في الكاميرا لأنك مهما تحاول أن تقدم نفسك أمام الكاميرا بصورة طبيعية لا يمكن أن تكون مثل التي سجلتها الآن. إنني سأرسل إليك نسخة من هذه الصورة والأمر الآخر وهو أنك لم تذهب اليوم إلي ورشة العمل فأنا قادمة من هناك. أنا لا أفهم في موضوع دوران النجوم وموعد الدخول في أبراجها المفترضة وبمعاونة طالعها وأوراق التاروت فهم الكون فهما حقيقيا. كنت قد سمعت اسم ألان كثيرا فلها سمعة كبيرة في الدول الإسكندنافية. كان هناك أمل أنه سترفع اليوم طبقة ما عن سرية الكون هنا

وسيتم كشف عالم جديد للمعاني لكن لم يحدث شيء من هذا القبيل. وقف الناس في دائرة ورفع كل واحد منهم إحدي يديه إلي السماء وأغمضوا أعينهم ثم قيل لهم أن يتخيلوا أن حبلا من السماء ينزل علي الأرض ببطء بداية هذا الحبل في السماء وطرفه الآخر يصل إلي أيديهم وعليهم أن يعتصموا بهذا الحبل وفي لحظات استشعر الناس أنهم علي اتصال مع الله. حذار أن تخرج كلمة واحدة من اللسان أما العيون ففي الظاهر مغمضة وفي الباطن مفتوحة. تخيلوا أن نورا سماويا قد حاصركم في محيطه والآن عليكم أيها الناس أن تظلوا متمسكين بهذا الحبل وللحظات ظل الصمت هو سيد الموقف في القاعة ثم جاء صوت مألوف يقول"تم الاتصال". لا أدري هل كان هذا سؤالا استفهاميا أم خبرا لتوثيق الاتصال السماوي. فتح الناس عيونهم أما أنا فبدا لي كل هذا من أوله لآخره عبثا لكن سمعت من بعض الأشخاص يقولون أن شيئا ما كان قد نزل في باطنهم وكانوا قد أصبحوا علي اتصال. مع هذا الكلام قهقهت مارلين وبدأت تنظر إلي نظرة سؤال.

مارلين هذه من أصل إيرلندي وهي مواطنة كندية وتعمل لإذاعة أوروبا الحرة وتهتم بالمساعي الحميدة التي تبذل لاستتباب الأمن والأمان هنا وهناك وعندما كان يُقتل المسلمون في البوسنة كانت تحركاتها مسموعة وقد قابلتها لأول مرة في لاهاي في مثل هذا المؤتمر. في صوتها نوع من الشجن فعندما تتحدث بأسلوب ساحر بل بلهجة مهيبة يبدو وكأنها تقدم برنامجا إذاعيا والآن بعدما سمعت منها تقريرا عن ورشة العمل بأسلوبها الخاص فقدرت أي نوع من الروشتات سيكون قد جربها (تيرت ماستر) لتهدئة الأرواح المضطربة. قلت سواء كان التصوف (القبلائي) أو السعي من "تيرت ماستر" لمعرفة المستقبل أو الحديث عن إمساك الحبل الافتراضي النازل من السماء. كل هذا وذاك في حقيقة

الأمر تعبير عن اضطراباتنا نحن البشر ففي صحراء الحياة لو ذهب الإحساس بالمقصد أو الهدف فلا يبقي للإنسان إلا اللجوء إلي التصوف سواء كان شرقيا أو غربيا ففي كل مكان تجارة سائدة للأوهام والخرافات.

بدأت تقول في الأيام التي كنت أقوم فيها بتغطية الحرب الدائرة في البوسنة والهرسك فهناك كنت أري بعض الجماعات التي كانت تأتي مع المعونات العربية. كنت أري بعض الشيوخ العرب الذين كانوا يذهبون إلي مخيمات المهاجرين وكانوا يلقون هناك الدروس لرفع معنوياتهم و يرغبونهم في اتباع أصول وأركان الإسلام وبصفة خاصة يطالبونهم بالاعتصام بحبل الله فهل لحبل (تيرت ما ستر) الافتراضي هذا علاقة بحبل الله المتين ذاك؟ استغربت من سؤال مارلين هذا وقلت لنفسي: ما هذا الخلط كيف قامت بخلط أمر مع أمر آخر شتان بينهما فأين حبل الله المتين وأين الحبل الافتراضي للروحانيين الذي لا يمر بتجربته إلا من هو ضعيف العقيدة.

يا مارلين إن حبل الله الذي كان يذكره علماؤنا في دروسهم قد أُوصينا نحن المسلمين بالاعتصام به. هو رسالة الله الخالدة هو الدعوة إلي التوحيد الخالص وهو الذي يربط الناس في الشرق والغرب والشمال والجنوب في رباط أخوة عالمية. وهنا يزول الفرق بين الجنس واللون والعرق وهنا يتكون من هؤلاء الإخوة مجتمع أو علي الأقل يمكن أن يتكون حيث يشعر الخلق كله أنهم عيال الله ولا فرق بينهم بسبب اللون أو الجنس أو العرق ويمكنك أن تعرفي أن كتاب الله هو الحبل الممدود من السماء إلي الأرض.

بعدما سمعت مارلين ردي هذا علي استفسارها ظهرت في عينيها ومضة مشاغبة وبدأت تقول نعم نعم أنا فهمت. الآن فهمت أن حبل الله هو مصطلح قرآني وهي قوة موحدة لكن هناك أمر آخر لا أفهمه وإن كنت قد

عشت فترة طويلة بين المسلمين فطفولتي انقضت في لبنان ودرست تاريخ الأتراك بشيء من التفصيل لفهم حرب البلقان وكذلك في جلسة أمس تحدثت حضرتك باستفاضة كيف قام الإسلام بعد مجيئه بربط الناس من ماليزيا إلي مراكش بل حتي الأندلس والمناطق الأوروبية الأخري التي كانت تحت نفوذه قام بربطها كحضارة عالمية وهكذا أصبح رأسمال الحضارات المختلفة تجربة مشتركة لبني الإنسان ووصلت علوم وفنون الهند وفارس وتكنولوجيا جني الثمار والحدائق أيضا إلي سيسلي وجزر الأندلس واستمر هذا التطور الحضاري بدون تخريب للطبيعة وتلوث للبيئة وإنني حتي اليوم عندما أتخيل الطواحين البرمائية الموجودة علي نهر دجلة وأفكر كيف كان التيار المائي الطبيعي لنهر دجلة يروي الأراضي ذات المستويات الأعلي لمسافات أميال وأميال باستخدام التقنية النورية فإنني أزداد حبا لهذه الحضارة العظيمة لكنني غير قادرة علي فهم كيف لهذا النموذج الحضاري العالمي القوي الذي كان قد تم تشكيله متسقا مع النظام الطبيعي للكون أن يتعرض فجأة للتفكك والتشتت، ما رأيك؟ هل المسلمون أيضا لم يستطيعوا إمساك حبل الله المتين بعد أن أوشكوا أن يمسكوه؟ مع توجيه هذا السؤال إلي وقفت مارلين وبدا لي أنها قبل قليل كانت قد ضحكت بصوت عال علي الحبل الافتراضي لتيرت ماستر فهل تعرض حبل الله المتين الخاص بنا نحن المسلمون أيضا لنفس الضربة فلم نستطع إمساكه حسبما قالت مارلين.

يتم تناول العشاء بصفة عامة في حديقة القلعة. لم تكن هنا حديقة بمعني حديقة لكن كان هنا عشب أخضر بكل تأكيد وكان محاطا بالأحجار المستطيلة الضخمة وأمام هذه الأحجار كانت توجد مصطبة صغيرة ذات عمق بسيط ثم انحدار مثل السور تماما ذات عمق يصل إلي مائتي قدم

تقريبا ويُري في الأمام نهر " دراوا" وعلي الكورنيش يوجد شارع تمر فيه بين الحين والآخر سيارة. من حديقة القلعة كان منظر النهر والطبيعة الخلابة جديرا بالمشاهدة والتأمل وخصوصا وقت حلول المساء عندما يزداد سمك رداء الظلام وترجع الطيور إلي أعشاشها فيزداد الشعور بالحسرة لماذا تم تدمير أعشاشنا ولماذا أصبحت الحياة كئيبة حيث ذهب ربيعها وأصبحت محرومة من البهجة والسعادة والآن حالنا هو أن أي منطقة في العالم الإسلامي سواء كانت ذات أغلبية أو أقلية مسلمة لا تمنحنا أمان السكن. لم يمر زمن طويل إذ كانت الامبراطورية المغولية الهندية والدولة الصفوية الإيرانية والخلافة العثمانية التركية مالكة الدنيا بأسرها ثم ما أن سقطت هذه الدول حتي أصبح دم المسلمين رخيصا فبعدما خرج الاستعمار في ظاهر الأمر من هذه الدول مازال العالم الإسلامي يتعرض للتشتت باستمرار وحال الاختناق وصل إلي درجة أن عددا كبيرا من أهل الإيمان مجبرون علي اللجوء إلي بلاد غير المسلمين. لا أدري لماذا أحسست اليوم بمدي دمار مساكننا بعدما شاهدنا الطيور عائدة إلي أعشاشها.

كنت مستغرقا في هذه الأفكار إذ أُعلن عن موعد تناول العشاء والآن بعدما التفتت إلي الخلف رأيت "علي كودرا" جالس علي المنضدة القريبة مزدانة بأنواع مختلفة من الأطعمة وإن لم يكن قد تم ترتيبها بالكامل بمجرد أن رآني قال لي مبتسما لو لم يكن من غير المناسب فللتفضل علي نفس هذه الطاولة وكان هناك طابور طويل للبوفيه ولذلك أخذت من سفرته كسرة من الخبز. علي كودرا هذا كلما رأيته من قبل وجدته صامتا وكان يأتي دائما في الآخر ويجلس في ركن بعيد عن الناس وعلي العموم كان يتجنب الحديث وإن تحدث في وقت من الأوقات فيظهر من أسلوبه كأنه يصدر الفتوي أو يطلق الوعيد. ذات مرة

كان قد جلس معي أيضا علي طاولة الطعام لكن فجأة وبدون مقدمات صمت وللحظات ظل يتأمل في الفضاء البعيد ثم تركنا من غير أن يتفوه بكلمة. علي كودرا هذا كان للكثيرين لغزا والناس كانت لهم تكهنات مختلفة بشأنه فالبعض كان يقول أن الحقيبة التي تظل معلقة بمنكبه هي كل متاعه من الدنيا فيها عدد من الكتب وبعض الأوراق المبعثرة وقطعة أو قطعتين من الملابس وبطانية خفيفة. منذ فترة طويلة ودع الحياة المدنية ويعيش في الصحراء فهو لا يريد أن يعيش تحت ظل الحكومات لكي يستمتع بالحياة حرا طليقا بعيدا عن تسديد مختلف أنواع الفواتير والضرائب الإجبارية.

وفي أول يوم عندما رأيته كانت شخصيته عبارة عن ملابس رثة ومن كثرة استخدامها كانت قد تمزقت هنا وهناك وفي نفس الوقت كانت تحتاج إلي غسيل أما شعر الرأس فكان يخفيه تحت قبعته القديمة أما شعر الشارب واللحية فكان يبدو أنه لم يهتم بتهذيبهما منذ فترة أو لم تتسن له الفرصة للنظر إليهما ثم إذ فجأة شوهد عند حطب التدفئة في ثوب جديد بشكل أنيق ونظيف وإن ظل الحديث علي حاله نصا واحدا وقطعيا علي طريقة العلماء التقليديين وإلي الآن كنت أحسبه راهبا أو مجذوبا من الغرب كما هو الحال عندنا للرهبان والزهاد. في الأول أيضا لم أكن أعرف أنه مسلم لأن المشاركين في مؤتمر كاسل بوريل كانوا ينادونه باسمه المجرد وهو كودرا لكن بالأمس فقط قالت لي الدكتورة "بيا" المنظمة الفعلية للمؤتمر أن هذا الشخص السري الذي يبدو في ظاهره شخصا غير منظم هو في الواقع من سكان كوسوفا وهو مسلم وأهم من هذا أنه من أصحاب الفكر والرأي وإن كان في سلوكه شيء من الاضطراب الذهني فلعله تعرض لضغوط نفسية ثم قالت أن الكارثة التي وقعت بالمسلمين بعد إعلان استقلال البوسنة شلت أعصاب الأقوياء

والكبار وهو منهم. إنني أشعر بالتعاطف معه وقد قمت بتوفير ملابس جديدة له.

والآن بعدما قام بتهذيب الشعر واللحية وارتدي ملابس جديدة ظهر في شكل جديد ولعله سعي لإقامة علاقة الروابط معي بإشارة من الدكتورة بيا أثناء وجودنا حول حطب التدفئة واليوم دعاني بشكل رسمي لتناول طعام العشاء علي طاولته وعلي سبيل إكرام الضيف كان قد أحضر أصنافا مختلفة من الأطعمة. علي الطاولة بدأ علي كودرا يسألني في الأول عددا من الأسئلة لجس النبض وكأنه يريد أن يعرف مدي علمي وقال أن هذا النواح علي الأمجاد الماضية التي كثيرا ما تتشدق بها في خطبك وتظن أنه بالإمكان إقامة حضارة إلهية من جديد فهل أنت جاد في قولك هذا وأنت مؤمن بصلابة وجهة نظرك أم أنها نوع من الغوغائية التي أصابتك أيضا مثل كثير من الدعاة والمبلغين.

لم أكن أتخيل أن علي كودرا سيكون عالما علي هذا المستوي ويكون علي معرفة بتوجيه الأسئلة الشائكة لمخاطبه. لقد أبديت الحيرة وقلت له: كنت أحسبك غير مسلم بسبب اسمك العائلي لكن بالأمس فقط أخبرتني الدكتورة بيا فعرفت أن اسمك الكامل علي كودرا والآن أستطيع أن أقدر من خلال أسئلتك هذه أن أسباب يأسك وقنوطك عميقة.

كودرا عائلة مسلمة معروفة. ألا تعرف ابراهيم كودرا الذي كان رساما عظيما؟ استغرب كثيرا علي عدم معرفتي به فأردف قائلا هل سمعت اسم بيكاسو فقلت له أن أي طالب للأدب والفن لابد وأن تكون لديه معرفة طبيعية بفن ورسم بيكاسو.

قال عجبا أنت تعرف بيكاسو ولا تعرف ابراهيم كودرا. الحق أن بيكاسو حينما كان في قمة شهرته وكان قد بلغ من العمر عتيا ففي ذاك

الوقت فرشة ابراهيم كودرا كانت قد أحدثت ضجة كبيرة في معارض روما وميلانو. لقد أقام مع الفنانين والرسامين أمثال بيكاسو ورؤالد ودوفي ودالي ومتا عشرات من المعارض الجماعية لكن وبعد ذلك مع كل هذه التقديرات والتكريمات بقي ابراهيم رساما ألبانيا وبيكاسو أصبح إماما لعالم الرسم الجديد. مع هذه الكلمات دمعت عيني علي كودرا وبدأ يجفف دموعه بالمنديل لكي يتحكم في ثورته وغضبه بأي طريقة ثم قال هذه ليست إهانة لشخص ينتمي لعائلة كودرا وكذلك ليست هذه قضية الاحترام الذاتي والعائلي بل إنها إهانة لأمة لا قيمة اليوم للآلئها وياقوتها ولمؤهلاتها الفنية في عيون شعوب العالم.

دعك من ابراهيم كودرا وخذ علي سبيل المثال ابن بطوطة وابن جبير بكل تأكيد ستكون علي معرفة بأمثال هؤلاء الرحالين وابن ماجد الذي كان مرجعا موثوقا في علوم البحار في القرون الوسطي وابن ماجد وكتبه الموسوعية بالتأكيد ستكون قد قرأتها وتعرفت عليها ومؤكد ستكون علي معرفة أيضا بالرحالة ماركو بولو وفاسكو دي جاما. أين ابن بطوطة وابن ماركو بولو وأين الخبير بالرحلات ابن ماجد وأين المساكين أمثال فاسكو دي جاما وكولومبوس لكن قم بإشادة الفعل المنكر لأهل الغرب الذين يحسبون ابن بطوطة ماركو بولو العرب ويحسبون ابن ماجد كولومبوس الشرق. لو كانت فيهم ذرة حياء أو قليل من العدل والإنصاف لاعتبروا ابن بطوطة ماركو بولو الغرب وابن ماجد كولومبوس أوروبا لكن ماذا تقول عندما ينهار وجود أمة من الداخل فيكتب علي جبينها عدم التقدير والاحترام بصفة عامة.

تذكرت مؤتمرا كان منعقدا في قصر السلام بلاهاي إبان حرب البوسنة فذات مساء كنت أسير مع عدد من الأحباب إذ انضم إلي مجموعتي شخص كان يبدو كبير السن إلي حد ما ولم أكن أعرفه وفي

نفس الوقت كان هذا الشخص ها دئا ومتواضعا والآن وبعدما تعرفت عليه أكثر علمت أنه "آدم داماجي" من كوسوفا وكان في الصفوف الأولي في حركة المقاومة لمسلمي ألبانيا. تحمل مشقة ثمان وعشرين سنة في السجن. اندهشت من سماع رقم ثمانية وعشرين فتدخلت واحدة من تلامذته وقالت: حضرتك لا تعرفه هو في الواقع نيلسون مانديلا بالنسبة لنا ووقتئذ عندما سمعت هذه الجملة فخيل إلي كأن شخصا ما قد أخذ آنية زجاجية جميلة وفجأة حطمها علي الأرض. وشيء ما انهار في داخلي. اليوم وبعدما جلست مع علي كودرا أصبح بالنسبة لي فهم هذا الشيء سهلا وهو لو لم تكن لدي الشخص عزة نفس وحمية بل يمكنك أن تسميها معرفة الذات ويتعود الإنسان أن يري نفسه في مرآة الآخرين ففي هذه الحالة لا يحس أبدا بذاته ومكانته.

الفصل الثالث

لا تحزن

طابور البوفيه كان قد قل بعض الشيء ففكرت أن أذهب بنفسي وأملأ قدحا آخر من الشوربة. لا أدري ما هو السر في شوربة الخضار هذه لأنني لا أشبع من دون أن أشرب كأسا آخر. أتيح لي تناول الأكلات المختلفة والاستمتاع بها علي موائد مختلف البلاد لكن المتعة التي أجدها في شوربة "بورل" وعسل سلوفينيا لم أجدها من قبل ولم أذق مثلهما في أي مكان. يقولون أن أثر فن الطهي فيه قليل نسبيا وفي رأيي أن السبب الرئيسي لهذا المذاق هو نوع الخضروات الطازجة الطبيعية والتي تتوافر بكثرة في كل مناطق البلقان. الأشجار محملة بالثمار وعابر الطريق يظن أن من حقه قطف عدد من الثمار والجنايني لا يعترض علي هذا الفعل ولا يستاء منه. نفس الكلام ينطبق علي عسل النحل في البلقان فلو تناولت بضعة ملاعق من عسل النحل هذا فستظل قوة الشم لديك منتعشة طوال النهار. لقد فكرت أن علي كودرا يعاني انفصاما في الشخصية فيصير محبطا في لحظة وهو جالس إذن فلنتجنب الأمور التي يمكن أن تتسبب في اكتئابه وغضبه.

"إن هذا الأمر الذي تؤكده بكل ثقة وإيمان أن التخلص من الرأسمالية ليس بالإمكان وهذه الدنيا أصبحت غير صالحة للإصلاح فما سبب هذا اليأس الشديد في نظرك؟" علي سؤالي هذا توقف للحظة ثم

تحدث متأملا في فضاء داروا البعيد: "ما ذا أقول ومن أين أبدأ؟ فأنا نفسي واقع في مأزق. إنني أرغب في ترك الدنيا ولكنها لا تتركني. المسائل معقدة جدا فالرأسمالية و صلت إلي مرحلة جعلها جوعها المتزايد أن تصبح هي نفسها لقمة سائغة. ومن الواضح جدا أنه لا يمكن ابقاؤها بالحيل الصناعية لأيام كثيرة لكن المصيبة أنه لا يوجد هناك بديل مؤثر يحل مكانها والأمر الخطير أن الدول الشيوعية سارت أيضا علي نفس الدرب والشيوخ العرب أسري لنفس الرؤي حتي الاقتصاد الإسلامي والتصورات والأفكار البنكية يتم تشكيلها في ضوء نفس هذه الأنظمة فكيف تستطيع أن تري أي تغيير جذري؟ نعم وأخبرك عن شيء آخر ربما لا تتفق معي فيه وهو أن ادعاءاتك هذه أن المسلمين يستطيعون تغيير وجهة الأحوال والظروف ويستطيعون أن يؤدوا مرة أخري دورا حاسما علي منصة العالم فهذا ما لا يمكن حدوثه لأن المسلمين علي المستوي النظري والفكري قد تحولوا إلي أمة أضداد. هؤلاء المساكين لا يفهمون ولا يقدرون علي أن يفهموا أن هذه الأوهام والتقاليد التي يحملونها باسم الإسلام لا علاقة لها بالإسلام الصحيح لا من قريب ولا من بعيد فمنذ قرون يضيع هؤلاء قوتهم الفكرية والأممية في الحروب الأهلية وحرب الاستنزاف الناشبة بينهم لا تتوقف. إنني أريد أن أتحدث معك بشيء من الوضوح لكن قبل التحدث أريد أن أعرف بالضبط هل أنت شيعي أم سني؟

وبدأ يرمقني بنظراته لأنني لم أكن مستعدا للرد علي هذا السؤال فخرج علي لساني فورا "مسلم فقط". ضرب علي الطاولة ضربة خفيفة وقال ناظرا إلي: هذا مستحيل! لم ألتق إلي يومنا هذا بأحد مثلك. لقد أقمت في الحرمين الشريفين وتعلمت في المدينة المنورة ومدينة قم وظللت أتجول بين الرياض وطهران لكن لم أجد في الدنيا بأسرها

شخصا يكون مسلما صرفا. فرك يده اليمني بأ صابعه وتحدث ناظرا إلي إن هويتنا الإسلامية ليست حتي بعمق جلودنا. ارفع من فضلك هذه الطبقة فستظهر الحقيقة المؤلمة وهي أن مدعي الإسلام في حقيقة الأمر إما شيعي أو سني، إما من فئة الإسماعيلية أو الإباضية ثم ارفع الطبقة الأخري من الجلد فستعرف أن مدعي الإسلام هؤلاء إما الأحناف أو الشوافع أو المالكية أو الحنابلة أو ينتسبون إلي بعض أئمة أهل البيت لتجميل هويتهم.

عندما سمعت علي لسان علي كودرا في وقت واحد عبارة المدينة وقم والرياض وطهران فعلمت أن هذا الشخص ليس بالسهل . إن شخصيته عميقة. قلت له معذرة لقد قلت بلسانك في نفس واحد الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة والحوزة العلمية بقم لا أفهم هل تيسر لك كسب الفيوض العلمية من هاتين المدرستين؟ ابتسم من سؤالي المباشر هذا وبدأ يقول: يبدو أنك وصلت إلي لب الحقيقة. إنني قد قضيت وقتا طويلا في المدرستين الوهابية والشيعية ووجود كل منهما يعتمد علي نفي الآخر ولذلك فأنا أجد في داخلي فجوة كبيرة في الهوية النظرية. ماذا أقول لك عن السنين الماضية الخمسة عشر فقد مررت خلال هذه الفترة بعذاب نفسي كبير عندما أصبحت وهابيا في عقر دارهم بدأت أحسب الشيعة من الكفرة وعندما أجبرتني الظروف علي التوجه إلي طهران ووصلت إلي الحوزة العلمية بقم تحت تأثير قالب شيعي للإسلام كي أصبح داعية ومبلغا في المستقبل فانكشف لي هناك أن المسلمين بحق هم محبي آل البيت أما الآخرون فهم فئة غاصبة للخلافة فهؤلاء تركوا الإسلام بمجرد أن انتقل الرسول صلي الله عليه وسلم إلي الرفيق الأعلي. جاهدت كثيرا من ناحيتي للوصول إلي الحقيقة والآن ملت نفسي عن الدخول في مثل هذه المناقشات. عندما أقرأ القرآن الكريم فأنعم كثيرا

بحالة من السكينة والطمأنينة وكأن صوتا يخرج من قلبي قائلا أن هذا هو الكلام الحق والقرآن هو الملجأ الأخير. أنا لا أريد أن أتركه لكن لا أدري إلي أي جهة أنتسب في هذه البيئة التكفيرية.

بدت لي شخصية علي كودرا الآن جذابة أكثر من كونها سرية فقد زادت في نظري قامته العلمية. إنني إلي الآن كنت قد قابلت علماء كانت لهم نظرة عميقة في أمهات الكتب للملل والنحل. فلديهم معرفة جيدة عن المراجع السنية والشيعية والإباضية والإسماعيلية وكنت في نفس الوقت أعرف أصحاب علوم وفنون من الذين يطلق عليهم المستشرقين. لكن السيد علي كودرا كان بالنسبة لي بمثابة تجربة جديدة فبعد معرفته بأسرار ورموز الإسلام الوهابي من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وصل إلي مدرسة شيعية بقم. فكيف تحمل هذين العالمين المتضادين؟ اشتاقت نفسي لمعرفة كل هذا من خلاله ولعله توسم في اشتياقي ولهفتي هذه. قال: كنت أكتب لمجلة اسمها الصف أحيانا بعض الكتابات الصغيرة لكن الآن بل منذ فترة تعزف نفسي عن كتابة أي شيء فذهني مشتت وعرضة للتفكك والشرود ومادام الشخص نفسه لا يعرف وجهته فكتابة المقالات وتأليف الكتب ستكون نوعا من تضليل الناس.

سألته إن هذا النوع من الاستغناء والذي أراه في حديثك والتوصية المستمرة من خلال كلامك لترك الدنيا وعلاتها، فما هو السبب الحقيقي والواقعي لهذا الزهد؟

قال: هذه أمور ذاتية فاتركها وشعاري الآن "لكم دينكم ولي دين". تعال نتحدث في أمر آخر. ومع قوله هذا قام من الكرسي ونظف يده بالمنديل وقال: انتظر قليلا سآتي بقهوة.

المشاركون في تناول الغداء كانوا موزعين في مجموعات صغيرة ومشغولين في أحاديث مسلية. فمن مكان ما كانت تأتي أصوات القهقهة

ومن ومكان آخر كانت تسمع النكات لكن بالنسبة لي فإن هذا التجمع الكبير للعلماء والمفكرين كان قد فقد مغزاه والآن كان جل اهتمامي بشخصية السيد علي كودرا.

مع قدح الشاي وحينما مررنا من بين الحاضرين وفي هذه الأثناء حان وقت تبادل التحية والسلام والابتسامات لكن بدا لي كل هذا وذاك غريبا لأن وجودي من الناحية الجسمانية كان إلي الآن مع شركاء المؤتمر لكن من الناحية الذهنية والعقلية أنا والسيد علي كودرا كنا نتجول في عالم آخر. تحت حديقة القلعة قليلا حيث يبدأ الوادي العميق بعد المصطبة الصغيرة كان هناك لوح حجري كبير وكان قد وضع عليه شخص ما باقة من الورد الجميل. بدا لي كأن المشيئة الإلهية قد هيأت لنا من البداية هذا المكان للتحاور والتباحث. السيد علي كودرا وضع حقيبته علي الأرض وبشيء من الجرأة والبساطة بدأ يستمتع بالقهوة مستندا علي الحجر.

قال:كم هو جميل وخلاب منظر نهر دراوا من هنا والجزء الجبلي هذا كم هو عمودي. لو انزلقت ساقك مرة فليس هناك فرصة للتماسك. ألقي السيد علي كودرا نظرة علي الهوة العميقة ثم قال مع ابتسامة خافتة: نعم هذا هو المكان المناسب للانتحار. هل تعلم أنني مررت أيضا بهذا التخبط الذهني حيث لم أكن أري طريقا للخروج من التعذيب الذهني إلا بالانتحار. كان أحبائي يقولون لي أنني مريض بفصام الشخصية وثنائي القطب ومصاب بالاكتئاب فلم يكن لديهم علم بأي نوع من الظروف والقضايا أمر.

هل كنت موجودا في كوسوفا وقت إعلان استقلال البوسنة؟ لاستثارة الموضوع وجهت إليه هذا السؤال الذي لا محل له من الإعراب في الظاهر. قال: لا نحن مسلمون من أصل ألباني وكوسوفا وطن آبائنا

وأجدادنا بكل تأكيد ولكن منذ فترة وعائلتنا تعيش في سرايفو والهوية المحلية في يوغسلافيا السابقة لم تكن تعني الكثير. هذه القضية النزاعية قد نشأت بعد تفكك يوغسلافيا وبصفة خاصة بعد اعلان استقلال البوسنة عام 1992م.

فهل المسلمون في يوغسلافيا السابقة كانوا أكثر أمنا وأمانا؟ سألته سؤالا آخر لا علاقة له بالموضوع المباشر لعله يساعده في حل عقدة لسانه.

قال: أنا لا أدعي ذلك ففي البوسنة قُتل ما بين مائتي وخمسين وثلاثمائة ألف مسلم لكن وعلي الرغم من هذا الدمار الكبير نحن لا نذكر هدوء وأمن القبور في يوغسلافيا السابقة باعتبار أنها كانت أياما طيبة. كان هناك ضغط كبير في تلك البيئة المغلقة يمكنك أن تقدر الموقف بقصة سيدة مسلمة وهي السيدة مليحة عزت بيغوفيتش. بعثت برسالة إلي آية الله الخميني متأثرة بالثورة الإيرانية وقالت في رسالتها: إنني أعيش منذ سبعة وثلاثين سنة في بيئة أوروبية مسيحية ملحدة ويعيش مثلي عدد كبير من المسلمين الخائفين حياة الكذب والنفاق. من المستحيل أن أكون شخصيتي الإسلامية المستقلة في دولة شيوعية ولقد ضقت ذرعا من هذه المهانة اليومية وقررت أن أهاجر من بلدي إلي بلدكم إيران.

هل تعرف ما العقاب الذي وقع عليها بسبب هذه المراسلة؟ قامت الجهات الاستخباراتية بالكشف عن هذه الرسالة وأُرسلت كاتبتها إلي السجن بتهمة التآمر مع الدول الأجنبية. كانت الأيام عصيبة حيث كان الإنسان يُقتل هناك كل يوم، ويتكرر هذا القتل باستمرار والعجيب والغريب أن شعوب العالم لم تكن تواسيهم ولو بكلمة.

والآن ما هو شعورك؟ هل تحس أن الدفة الآن تسير في الجهة الصحيحة؟ قال: مع الأسف الأمر ليس كذلك علي الأقل من وجهة

نظري. ففي الظاهر الاعتراف بالبوسنة والهرسك كدولة مستقلة والاعتداءات الصربية تم لجامها والدول المجاورة والفصائل الصربية الكرواتية قد قبلت بالدولة البوسنية الإسلامية المستقلة لكن الآن يتم زرع بذور الفتنة من الداخل. المبلغون والدعاة المسلمون بمختلف أصنافهم وفصائلهم يسعون لصبغ البوسنة بصبغتهم والآن قد بدأ ينشب نزاع داخلي بين السنة والشيعة والسلفيين الجهاديين وحراس الثورة. إنها نزعة خطيرة جدا لأنها تقوم بتجريفنا من الداخل.

كم يبلغ عدد أهل التشيع في البوسنة؟ أردت أن أعرف.

قال: ليس الأمر متعلقا بالنسبة بل يكمن في استخدام الاعتداء والتجريح في الدعوة والتبليغ ففي البوسنة لا يوجد سلفي ووهابي ولا شيعي جهادي بل البلقان كله معقل للمذهب الحنفي بصفة تقليدية حيث كان يعتبر الميثاق الماتوريدي الحرف الأخير.

في يوغسلافيا السابقة كانت هناك هيئة دينية واحدة تصدر الأحكام والفتاوي في الأمور الشرعية وهذا النمط كان هو المتفق والمجمع عليه مهما كان جامدا ومتقاعسا ولم نكن نعرف المذاهب والتيارات الفكرية الأخري لكن الذي كان مؤكدا هو أن المسلمين كانوا يحسبون أنفسهم جسدا واحدا والآن يتعارك الإسلام السعودي مع الإسلام الإيراني فيما بينها بشدة. هذان يريدان أن يجعلا البوسنة معمل تجاربهما.

وما سبب هذا التنافس في بلد مثل البوسنة؟ إنه في الواقع استغلال ديني لضعفنا وعجزنا ولا شيء غير ذلك. في يوغسلافيا السابقة كان المسلمون في حالة مزرية سياسيا واقتصاديا أما المساجد وهيئات الأوقاف التي كانت قد دمرت أثناء الحرب العالمية الثانية لم يكن لدي المسلمين من المال كي يقوموا ببنائها من جديد أو بتجديدها وترميمها بإعادة بنائها، لكن بعد الثورة الإيرانية لاح للناس نوع من الأمل علي يد

مجموعة من الفتيان الشجعان الذين شكلوا فيما بعد الحزب الديموقراطي الحركي وكان علي رأسهم السادة علي عزت بيغوفيتش وعمر بهمن وحسن ججك وإيدهوم بيجاجوك وحسين زلواي، كل هؤلاء قاموا برحلة إلي إيران ما عدا السيد علي عزت بيغوفيتش.

هؤلاء قابلوا أناسا في مناصب مختلفة باحثين عن تحقيق حلم الدولة الإسلامية المستقلة ذات الحكم الذاتي وللإنصاف أقول أن القيادة الإيرانية ساندتنا وشجعتنا من البداية، ففي عام ١٩٩٢م عندما تم إعلان استقلال البوسنة وتم حظر توريد السلاح لتلك الدولة الفتية في هذه الأثناء أرسلت إلينا إيران شحنات من الأسلحة عن طريق كرواتيا وذهب بعض البوسنيين إلي إيران للالتحاق بدورة تدريبية عسكرية وذلك للدفاع عن البلاد. ليس هذا فحسب بل جاء عدد من الخبراء العسكريين الإيرانيين إلي سراييفو لتدريب الشباب البوسني عسكريا. وفي هذه الفترة نفسها بدأ الاهتمام بالقضية البوسنية في الدول العربية أيضا فانضم ما بين مائة وخمسين ومائتين من الشباب العرب المجاهدين إلي صفوفنا. وفي المملكة العربية السعودية تم تشكيل لجنة لإغاثة ومساندة البوسنة تحت إشراف سمو الأمير سلطان. ومع جمعيات ومنظمات الإغاثة العربية جاء الدعاة والمبلغون أيضا الذين حملوا علي عاتقهم مسئولية تصحيح عقيدة مسلمي البوسنة وهكذا وفي غفلة من أهل الإسلام الحنفي الماتوريدي قامت المجموعتان الإيرانية والسعودية باختطاف الرغبة الجامحة لإحياء الإسلام ومع مرور الأيام ألقوا حبائلهم الشيطانية بدعوي ضيق الأفق والتعصب والتفرقة العنصرية وأوقعوا المسلمين البسطاء والأبرياء ضحايا لمكائدهم.

ألم يحدث أي احتجاج علي هذه الحالة المزرية من جانب علماء السلطة هناك؟

قال: أنّا للمضطر، فمسلمو البوسنة في ذاك الوقت كانوا يحاربون لإثبات وجودهم ولم يكن ممكنا لهم أن يبدوا أي نوع من الاعتراض وذلك لكي لا تتأثر إغاثات الدول الإسلامية. وعلي جانب آخر لعل لدي القيادة العليا لمسلمي البوسنة مشروع عالمي للنهضة الإسلامية وربما لم يكن لديها تقدير لهذا الأمر الطارئ وهو أن استيراد الإسلام المتحارب والمختلف إلي أرض البوسنة سيكون سببا لانتشار الفوضي والتفكك.

لكن كان لديكم مفكر كبير كصاحب المقام الرفيع السيد علي عزت بيغوفيتش ويقال أن قبضته علي حركة استقلال البوسنة كانت قوية جدا. ألم يتنبه لتدارك هذا الأمر الخطير مسبقا؟

توقف السيد علي كودرا عن الكلام للحظات بعدما سمع اسم علي عزت بيغوفيتش وهامت نظراته بعيدا عن نهر دراوا كأنها تبحث عن شيء ما.

"يا صاحب المقام الرفيع لقد كنت رجلا عظيما بكل تأكيد" مع هذا القول تأوه مبديا حزنه الشديد ثم قال: لقد حركت ذكرياتي الخامدة بذكر اسم علي جاه.إنها لكانت ساعات مباركة تلك التي قضيتها في كنفه. لم يكن شخصا عاديا لكن ويا أسفاه إن الدنيا وضعته في منزلة عامة الناس. لقد كان صاحب شخصية ملكوتية مضطربة وكان صاحب عزيمة فولاذية ومسلما لا يتزحزح إيمانه.

لقد شعرت أن شخصية علي كودرا الهادئة هي التي أصبحت مضطربة ومشتعلة بعدما جاء ذكر اسم علي عزت بيغوفيتش علي لسانه وحينئذ تغير أسلوب حديثه العلمي والفكري تماما وبدا لي كأنه دخل في أيام حرب البوسنة ذهنيا وعاطفيا وروحانيا حيث كان زعيمه علي عزت بيغوفيتش محصورا بين الأعداء ومحروما من الإمداد والسلاح الأجنبي وظل في مكتبه وراء أكياس الرمال كدرع دفاعي يقود الحرب. وهناك

يزداد الخوف كل لحظة من أن دولة البوسنة ورئيسها سيقضي عليهما في أية لحظة وينطفيء المصباح. أخرج السيد علي كودرا من حقيبته علبة سجائر ممزقة وقال بعد أن أشعل سيجارته: لو أردتم أن تعرفوا سبب انحطاط المسلمين فلتدرسوا بتأن كيف تاه حلمنا في البوسنة. لماذا لم نستطع الوصول إلي أهدافنا ومرامينا غير أننا كنا نملك زعامة فكرية علي مستوي عال جدا متمثلى في علي عزت بيغوفيتش حيث كان مفكرا ومجاهدا وسياسيا كما كان كاتبا ومصنفا أيضا. كان علي دراية كافية بحيل ومكر الغرب ولم يكن في نفس الوقت غافلا عن أن الشرق يعمل لمصالحه الذاتية. وفوق كل هذا كان رجلا جريئا ومخلصا ولم يكن يعيش لنفسه بل كانت حياته فداء للإسلام والمسلمين وعلي الرغم من هذا لم يستطع تحقيق حلم النهضة الإسلامية فما السبب؟ لثوار المستقبل لا بد أن يحصلوا علي الرد علي هذا السؤال وإلا فالخوف كل الخوف أنهم قد يكررون نفس التجربة الفاشلة.

معذرة من ناحية إنك تعد علي عزت بيغوفيتش مفكرا كبيرا وتمدحه وتشيد بإخلاصه وذكائه وإدراكه للأمور ومن ناحية أخري تصف تجربته بالفاشلة. هذا الأمر غير مفهوم بالنسبة لي.

علي سؤالي هذا اعتدل علي كودرا في جلسته وجلس بشكل جيد وكأنه يرتب نفسه من جديد. قال: إنك تعلم جيدا أن السيد علي عزت بيغوفيتش كان مرشدنا وكنا نحبه بلا حدود لكن حبنا هذا لا يمنعنا من نقدنا لأنفسنا وتحليلنا لقائدنا وعندما قابلته مؤخرا فهو وإن كان رئيسا للبوسنة لكن كان يبدو لي في قلب هذا الرجل الدرويش كأن بركانا من الحرمان والعجز يغلي. لقد كان من أولئك الذين يقولون إن لم تستطيعوا أن تنجزوا عملا مفيدا في الدنيا فلا حياة لكم آنذاك.

عندما رأيت في قلب علي كودرا هذا القدر من الحب الصادق والاحترام والتقدير البالغين لمرشده فرغبت أن أسمع نقدا لإنجازات هذا الدرويش المجاهد وكذلك علي كتاباته الرصينة من أحد محبيه لأن الشيوخ والمرشدين بصفة عامة يجمعون حولهم مخلوقات مسكينة من المعتقدين والمقلدين والمريدين ولكن أي نوع من المرشدين هذا المرشد الذي يتعرض للنقد من أحب تلاميذه والذي تربي علي يديه وفي نفس الوقت يقر هذا التلميذ بصلابة فكر قائده وذكائه المتوقد ولا يكف عن قوله بأنه خاب وخسر.

سألته أن علي عزت بيغوفيتش كان رئيسا مؤسسا للبوسنة وأهل البلد كانوا يحبونه حبا جما وكانوا يخاطبونه بكل الحب والإعزاز والإجلال بلقب " ديدو" أي الجد وكان قد نال من العالم الإسلامي تقديرا ومنزلة غير عادية فهو الذي أوصل حرب استقلال البوسنة إلي محطتها الأخيرة فلماذا تسميه مجاهدا مهزوما؟

قال: الوصول إلي كرسي الرئاسة لا يعد لعزت بيغوفيتش نجاحا فقد كان كطائر قوته النار فكيف كان يكتفي بالماء والحبوب. عندما كانت سنه ستة عشر عاما كان قد أنشأ منظمة للشباب الذين ولدوا مسلمين لكنهم كانوا مسلمين اسما فقط وقد أصدر وثيقة إسلامية واضحة في وقت الشباب نفسه أبدي فيها العزيمة والإرادة بأن المسلمين لن يقبلوا بأي نظرية غير نظرية الإسلام. إن إبداء مثل هذه الآراء والأفكار في أيام الحكومة الشيوعية لم يكن سهلا فالشخص العادي لا يستطيع أن يفكر في مثل هذا الأمر مجرد تفكير. لقد تحمل ولمدة تسع سنوات صعوبات ومشقات السجن. ومن أجل استمرار كفاح الحرية ونيل استقلال البوسنة تجول حول العالم وكذلك قام بتشكيل فريق للشباب من أمثالي الذين توجهوا لتحقيق حلم الدولة الإسلامية في البوسنة إلي مختلف الدول

الإسلامية وغير الإسلامية لتقرع علي أبواب السلطة والحكومة حتي استعدت إيران والمملكة العربية السعودية ودول الخليج العربي طوعا أو كرها لإمدادنا بالمال والسلاح. كان المرشد يري أن الدولة الإسلامية البوسنية الفتية لن تكون علي خريطة أوروبا دولة إسلامية مستقلة فقط بل بملامحها الرمزية ستصبح سببا للتضامن والوفاق والنهضة للعالم الإسلامي. لقد أبدي في كتاباته هذا الأمر بكل وضوح وأعلن علي الملأ أن الإسلام الموحد هو صوت قلوبنا والقومية تصور أجنبي لا يتوافق مع إرادتنا. إنك بكل تأكيد اطلعت علي كتابه المعروف عالميا "الإسلام بين الشرق والغرب". تستطيع أن تقدر من خلال هذا الكتاب بأن مرشدنا كان نقيبا للنهضة الإسلامية وكان يريد أن يحول فرق وجماعات المسلمين المختلفة من العرب والعجم والشيعة والسنة إلي بنيان مرصوص. علي الجانب الفكري كان قد قام بعمل كبير في سبيل ذلك وقد كان يريد أن يرسي حجر الأساس للنهضة الإسلامية بعد حصول البوسنة علي الاستقلال وهذا هو السبب لفتح أبواب البوسنة لمتصوفي الإسلام بتركيا وشيعة إيران وسلفية السعودية في آن واحد. لعله لم يكن لديه تقدير صحيح بأن التعصب والتكتل بين جماعاتنا شديدا وعميقا لدرجة لن تسمح لنا بالنهوض مرة أخري بقدر ما عرفنا عن النفاق الموجود فيما بيننا لم يبق لنا إلا أن نقبل البوسنة المتجزئة كغنيمة. إنك تستغرب بأن الرجل الثوري مثل ياسر عرفات كان قد أشار علينا بأن نحسبها غنيمة ولا نميل إلي السلوك المتشدد وإلا فإن وجود دولة البوسنة سوف يتفكك.

حديث السيد علي كودرا كان مستمرا إذ جاء فجأة صوت نسائي من أعلي حديقة القلعة وهو الذي أنهي تسلسل حديثنا والصوت كان للسيدة مارلين وارنر التي كانت قد جاءت لتخبرنا أن موعد الاجتماع الخاص بالمجموعات قد حان وعندما رأتني مشغولا في الحديث مع علي

كودرا تحت المصطبة رفعت صوتها أكثر بشكل طريف قائلة: حضرتك مختف هنا. انظروا تحت سور بوريل كيف يخطط المسلمان بقدر من الجمال لمؤامرة إسلامية. قلت: لا مؤامرة بل هي دعاية لإذاعتك الحرة الأوروبية فقهقهت مارلين علي ردي ثم استأذنت من علي كودرا وانطلقت مع مارلين للاشتراك في الاجتماع.

في قاعة واسعة إلي حد ما داخل القلعة كان ما بين خمسة عشر وعشرين فردا جالسين حول طاولة كبيرة حيث كانت مسودة المؤتمر تحت البحث وبالقرب وعلي طاولة صغيرة كان هناك بروجيكتور وحاسب نقال وبالاستعانة بهذا الحاسوب كانت مقررة المؤتمر (بيا جوير) تقدم بندا بندا من المسودة وذلك لملاحظة الحضور. لقد كانت مهتمة جدا بإعداد برنامج يعيد بهجة الحياة إلي الناس ويقدم لهم برنامجا عمليا يحول الحياة إلي بهجة دائمة. عند دخولي إلي القاعة رحبت بي بكل حرارة قائلة أن التناسق الذي في كلامك بين الحضارة والطبيعة والنواح الذي ورد في كلامك بكثرة أمس علي عدم وجود الرخاء والنجاح في أسلوب الحياة العصرية قد تأثرنا به جميعا وبصفة خاصة كان تأثيره علي كبيرا وأنت تقول أيضا بأن أسلوبا بديلا لهذه الحياة ممكن فنحن نريد أن نضم هذه الفكرة في هذا الإعلان وأثناء هذا الحديث قدمت لي نسخة مطبوعة للمسودة المقترحة.

كان شركاء المجلس يساهمون في النقاش بكل حرارة وحماس لكن حالتي كانت مختلفة عنهم لأن علي كودرا كان جاثما حتي الآن علي صدري وإن كان حديثه قد انتهي لكن الأسئلة التي تولدت من حديثه كانت تزلزل قلبي وعقلي بشدة. لقد أخرجت القلم من جيبي وجاهدت لقراءة المسودة من أجل تحسين وتزيين بنودها لكنني لم أستطع أن أفهم

شيئا لأن الكلمات بدت لي خالية من المعاني وبدا لي كأن قلبي وعقلي مشغولان في البحث عن قضية أخري.

بدأت أفكر من أين لهؤلاء وأولئك أن ينقذوا شعوب الدنيا من عفريت الرأسمالية ويعيدوا إليها بهجة الحياة مرة أخري وهم أنفسهم مشوشون ذهنيا وقلبيا ومن الناحية الفكرية معرضون لنزاع داخلي باستمرار. بدا لي كأن يأس وقنوط علي كودرا قد تسرب إلي ويخيل إلي مرة بعد أخري ما لم يكن السراج الرباني في يدك والتمسك بحبل الله المتين فإنك لا تستطيع قيادة وهداية الآخرين بل الحق أنك لا تستطيع أن تضع لنفسك طريقا واضحا ومستقيما.

بشكل من الأشكال انتهيت من الاجتماع. القلب كان مثقلا بالأفكار وخاليا من الحماس والحرارة والعاطفة أيضا وكنت في حاجة إلي سند ومؤازرة. الشمس كانت تلقي أشعتها الأخيرة علي الأشجار الموجودة تحت سور بوريل ولم أشعر بمتعة في هذا المساء من التأمل في الطبيعة الخلابة. بدا لي كأن مساء يتفيء في حياتنا القومية منذ قرون حيث في الظلام الفكري المخيف تتعارك الفرق المختلفة للمسلمين وبدون أن أشعر بدأت تخطو أقدامي نحو الطريق الخارجي للقلعة متخطية الممرات حتي وصلت إلي الشارع المسفلت الموجود تحت القلعة. ثم وصلت إلي جسر نهر دراوا وأنا شارد الفكر في جو هادئ لا وجود لأحد من الناس هناك. ووسط تلاطم الأمواج بدا لي كأن شخصا ما يخاطبني ويواسيني. كم هي عجيبة وغريبة الطبيعة لو أذنك تألف ألحانها فيبدو كأن شخصا ما يهمس داخلك ويقول لك لا تحزن إن الله معنا. إن هذه السماوات والأرض سخرت لك فقط عليك أن تبدأ خطوة جديدة.

عندما كنت عائدا إلي بوريل ألحت علي هذه الفكرة مرارا وهي أنه في الوقت الذي يكون وجودنا الأممي معرض لانتشار داخلي ومعارك

بينية فخيارنا الأول يجب أن يكون بناء البيت من جديد وعندما أترك هذا العمل الهام وأخطب ضد الرأسمالية فما هو مغزاها؟ بدا لي وكأن أزمتنا أخطر من شعوب الغرب. نحن مبتلون بضعفين من العذاب البلاء الأول هو أننا أيضا مقيدون بالرأسمالية التي لا تعرف الرحمة ولا الشفقة وإن كان في الجزء الكبير من الشرق متعة الحياة مازالت باقية إلي حد ما. البتة لدينا بلاء آخر وهو أننا بسبب الفوضي الداخلية والنزاع الفكري المتواصل فقدنا الشعور بجهة السفر ونسينا إلي أين نحن ذاهبون ووصل الحال بنا إلي أننا لا نستطيع استحضار الرسالة الإلهية مع إشراقاتها في قلوبنا وأبصارنا. بعد أداء صلاة العشاء ظللت أفكر في نفس البلاء لمدة طويلة. هل سيشرق حقا صباح جديد لأمة آخر الرسل وقد تذكرت وأنا جالس في المصلي منظر مؤتمر كوسوفا السابق الذي كان قد انعقد في العام الماضي بلندن إذ دخل شخص القاعة أثناء إلقائي كلمتي وأراد إفساد المؤتمر. لقد كان أفغانيا كهلا وكان حاملا في يده علم الدولة الإسلامية الأفغانية. رفع أولا هتافات مؤيدة لحركة طالبان ثم بدأ يقول في لهجة غاضبة: إنكم كاذبون وماكرون ومنافقون. إنكم قلقون من أجل استقلال كوسوفا لكنكم لا ترفعون صوتا واحدا في حق الدولة الإسلامية الأفغانية ولا تبدأون أي حملة للاعتراف بها من خلال منظمة الأمم المتحدة. إن أنتم تريدون حقا إعادة مجد الإسلام فلتبايعوا أمير المؤمنين الملا عمر. وقتئذ قلت لذلك الشخص أن حركة طالبان إن كانت حقا تنادي بإعادة النظام الإسلامي من جديد وهي في طليعته فلا تتوقع من أنظمة الكفر أنها ستعترف بها وتقبلها ثم إنكم لستم بحاجة لهذا الاعتراف أما مطالبتك بأن يجتمع مسلمو جميع البلاد الإسلامية تحت قيادة ملا عمر فإلي الآن علي الأقل لم يقدم أي مشروع كهذا ثم إن السيادة والقيادة تحتاج إلي سعة القلب وبعد النظر. أما الذين يحسبون

القالب الديوبندي هو المرآة الحقيقية للإسلام وإسلامهم يعتبر تعذيرا للجماعات والفرق الأخري المسلحة فمثل هؤلاء أني لهم أن يسودوا ويقودوا العالم بل الحق أنهم لا يستطيعون أن ينجزوا شيئا يذكر في سبيل بناء الأمة من جديد.

يرجع هذا الأمر إلي فصل ربيع ١٩٩٩م حيث كنت قد وصلت إلي لندن للاشتراك في مؤتمر كوسوفا بعد المشاركة في الاحتفال المئوي للسلام الدولي المنعقد في لاهاي. كانت قاعة المؤتمر يحيط بها جو من الخوف والذعر فمن جانب الدول الأوروبية كان يوجد بصفة عامة جو من العناد والتعصب ومن دولة باكستان كان قد دُعي للاشتراك في هذه الجلسة الدكتور أسرار أحمد وإن كان معروف بثوريته ومبادراته العملية لكن نظرا لخطورة الموقف والحساسية التي كانت موجودة هناك غير اتجاه كلمته حيث لم تبق أي استراتيجية غير كفوا أيديكم فمن ناحية توصية كفوا أيديكم ومن ناحية أخري إصرار وصمود علي عزت بيغوفيتش لمدة ثلاث سنوات ونصف مع فقدان الأسباب.

ففي ذاك الوقت تكرر هذا السؤال أكثر من مرة في هذه الجلسة بأساليب ولهجات مختلفة وهي جلسة الشباب وكان السؤال هو "إذن ما هو الموقف الإسلامي الصائب والصحيح؟"

الفصل الرابع

وحل التاريخ

في الصباح التالي لم يكن مزاجي علي ما يرام ونهار اليوم كان مخصصا للنزهة للمشتركين في المؤتمر فبعض الناس كانوا ذاهبين إلي (بتوي) للسباحة ومجموعة كبيرة من المشاركين كانت متوجهة لمشاهدة مصنع للخمور يرجع تاريخ بنائه إلي قديم الزمن وهو في نفس الوقت مشهور بصنع خمور من الدرجة الأولي لمنطقة البلقان ولم يكن لي أي اهتمام بهذين البرنامجين بل الحق أنني كنت أعيش في عالم آخر بعد أن تغيرت طريقة تفكيري وبدأت أري الدنيا بمنظور آخر وإن كان لم يقل تمردي ضد النظام القهري للرأسمالية لكن كان يبدو لي أن هناك مرحلة أخري لا بد من اجتيازها وفتحها أولا. بعد تناول الإفطار ذهبت إلي سريري لأخذ قسط من الراحة وصور علي عزت بيغوفيتش وياسر عرفات وولي العهد السعودي الأمير سلطان بدأت تتبادر إلي ذهني بين الحين والآخر وتذكرت مرة ذهابي إلي مخيمات لاجئي البوسنة وتذكرت في وقت آخر مشاركتي في مظاهرة أمام محكمة العدل الدولية تأييدا لحقوق البوسنة ثم بدأت كل هذه الصور تختلط فيما بينها وفجأة وصلت شبكة الذكريات إلي مدينة بيشاور وتذكرت أثناء جهاد أفغانستان مقابلة زعماء أفغانستان مع زعماء العالم وأشفقت علي طيبتهم وبراءتهم. يُقال أن المولوي يونس خالص حينما ذهب إلي واشنطن لمقابلة الرئيس

الأمريكي نيكسون تأثر المولوي يونس بحسن معاملة نيكسون معه وحبه الكبير للأفغان وتقديم معونات سخية للشعب الأفغاني والتي تدل علي جوده وكرمه فأمسك المولوي يد نيكسون حبا وتقدير له وقال: أيها الرئيس كم أنت إنسان طيب. إنك تحب الأفغان حبا صادقا ومثل هذا الإنسان الخير ينبغي له أن يعتنق الإسلام. ابتسم نيكسون بعدما سمع هذا الكلام وفهم المولوي يونس خالص أنه قد أتم الحجة. إن القادة الأفغان البسطاء الذين تربوا في المدارس الإسلامية لم يستطيعوا إدراك النوايا الحقيقية وراء الإعانة السخية الأمريكية. ولا شك في هذا أن الأفغان قاوموا العدوان الروسي ببسالة وشجاعة نادرة وإنني كلما تحدثت مع زعمائهم وجدت قلوبهم مليئة بالإيمان والثقة بالله ولكن الذي لم أستطع فهمه أو إدراكه هو أن هؤلاء كيف سمحوا لقلوبهم الطيبة أن تكن للقادة الأفغان الآخرين البغض والكره والعناد؟ ولماذا هذا البركان من الكره والبغضاء نحو إخوانهم في الإسلام؟ لماذا أصبح إسلام أحدهم غير معتد به للآخر ولا يمكن قبوله في أي حال من الأحوال؟ وكثيرا ما كان يؤلمني هذا الخاطر وهو أن مختلف المذاهب الإسلامية عندما تتصادم فيما بينها في أفغانستان المستقلة وعندما لا يكون مقبولا سيادة إسلام الديوبندية للشيعة الهزارة ولا يكون مقبولا ليونس خالص نظرة رباني ومجددي لمصالحهما فكيف لا يتولد من رحم هذا المعمل العالمي اليأس القاتل. إن المجاهدين الأفغان بصفة عامة كانوا بسطاء والظروف هي التي أجبرتهم علي حمل البنادق وجعلتهم ينظموا صفوفهم فلم يكونوا قد جاءوا في ضوء تخطيط منظم ولم يكن فيهم مفكر ولا مؤلف ولم يكن لدي أحد منهم البصيرة النقدية الدنيوية وكذلك لم يكن أحد منهم داعية ونقيبا يقوم بتفسير الأحداث المعاصرة وفقا للرؤية الإسلامية، ففي هذه الظروف لو تسبب الإسلام الديوبندي في تفكك الأمة بدلا من جعلها

كبنيان مر صوص فلا عجب ولا غرابة. ولكن أمر علي عزت بيغوفيتش كان مختلفا بالمرة فقد كان مفكرا وحكيما مدبرا وكانت له نظرة ثاقبة في تاريخ الحاضر والماضي والإسلام كان مدرسته وروح الإيمان واليقين كانت تسري في عروقه كمجري الدم ومع كل هذا إن لم تفلح ولم تثمر مساعيه الحميدة فليس الأمر مقلقا ولا ينبغي لنا أن نقلق علي هذا الفشل كثيرا لأن قليلا ما نري أن يمنح الله المفكر والحكيم القوة السيا سية أيضا. بكل تأكيد فإن تجربة عزت بيغوفيتش تحمل لنا كثيرا من أ سباب العظة والعبرة المستترة. بدا لي كأن الله سبحانه وتعالي قد أرسل لي تلميذ بيغوفيتش الر شيد كي يطلعنا علي تجربة عظيمة الشأن لإحياء الإ سلام بما لها وما عليها.

كنت غارقا في هذه الأفكار إذ قرع أحدهم الباب. تقدمت إليه وفتحت الباب فرأيت السيد علي كودرا بنفسه يقف علي عتبة الباب وفي يده اليمني ترموس وفي يده اليسري بعض الأوراق. قال: لقد عرفت أنك مريض بعض الشيء ففكرت لعله يكون بسبب التفكير الكثير فأنا أيضا أعاني من هذه الأمور. في الترموس هذا شراب بعض الأعشاب والأوراق والأزهار قمت بغليها وأحضرتها لك. ا شربها فإنها نوع من شاي الأعشاب. إن شاء الله العزيز سيدب النشاط فيك وإن أردت فلتجلس في الهواء الطلق ففي بعض الأحيان يصبح الإنسان مريضا بسبب قلة النوم.

ا ستجبت لدعوته وكنت سعيدا بأنني سأ ستمتع مرة أخري بحديث السيد علي كودرا ويخفف ما في القلب من حمل ولا عجب أن تنفك عقدة من عقد القضايا والمشاكل وأثبتت كل جرعة من شاي الأعشاب فائدتها وفي هذه الأثناء ظل علي كودرا يتحدث عن فوائد هذا الشاي في ضوء تجاربه. لقد أخبرني بأنه كلما تعرض لظروف قاهرة مدمرة للأعصاب

وكلما حا صره اليأس فإن شراب هذه الزهور كان يجد د نشاطه ويحسن من حالته.

لون شاي الأعشاب هذا كان ذهبيا وإن كان هناك شيء من المرارة مذاقه. في البداية كنت أ شربه كدواء لكن فيما بعد أ صبحت كل جرعة منعشة ومبهجة. قلت له: هل هذا التشخيص المجرب من اكتشافك أنت؟ لأنه سبق لي وأن شربت شاي الأعشاب هذا لكن لم أحس بعو دة النشاط والرا حة بهذه السرعة.

قال: هناك في منطقة البلقان وبصفة خا صة في سلوفينيا تنمو مثل هذه الزهور والأعشاب المنعشة وهناك يباع شاي الأعشاب أيضا في الأ سواق في عبوات جميلة لكنه يكون جافا والشاي الذي أحضرته لك مكون من الزهور والأعشاب الطازجة ولذلك تلحظ أثره علي الفور. بدا علي كو درا اليوم مختلفا بالمرة. أحببته أكثر من أجل مؤانستي وموا ساتي وتمريضي. أين علي كودرا المهمل ذو الشعر الأ شعث الذي يرتدي الملابس الرثة والبعيد عن شركاء المؤتمر كأنه لا يريد الاختلاط بهم وأين علي كودرا اليوم. جاء ليعتني بصحتي كأننا نعرف بعضنا منذ سنين وأ صبح أكثر قربا مني حينما عرف أن الذي قام بحركة شعبية علي مستوي الهند تأييدا للبوسنة هو شخصي المتواضع فدمعت عيناه وقال هذه بشارات الأمل علي أننا كأمة لم نتدمر بالكامل ففي داخلنا مازالت الأ سا سيات باقية والمهارات والخبرات التي تستطيع أن تجعلنا كجسد وا حد من المغرب العربي إلي ماليزيا موجو دة ولكن هناك بعض القضايا الخطيرة التي ما لم ندركها يظل الأمل قائما ولكن عندما نعرف خطورتها فإنها تصيب القلب بالجلطة. مع هذه الكلمة خمد نشاط علي كو درا فجأة وبدا لي كأنه لم يعد لديه المزيد ليقوله وعا د إلي وجهه اليأس القديم

ففكرت أن لا تأخذه موجة جديدة من الاكتئاب ويقوم من الجلسة فجأة كعا دته.

هل أسألك سؤالا؟ أردت بسؤالي هذا كسر حاجز الصمت. ما هذه الطلاسم التي نسجتها حولك؟ عندما كنت قد جئت هنا سمعت من الناس عنك كلاما وكلاما فالواحد منهم كان يقول إنك متمرد علي النظام القهري وقال الآخر إنك عازف عن الدنيا ومعتزل للناس ومؤثر للعيش في الصحراء ومنهم من قال كذلك إنه يعاني خللا عقليا وكان رأي شخص ما أن هذا الرجل متعلم ومثقف ويتحدث بكلام علمي وهو مفكر فذ لكن وبسبب كثرة التفكير خارت قواه العقلية. بعدما سمع علي كودرا هذا التقرير عن شخصه عادت الابتسامة علي وجهه وضحك بصوت عال وقال: ألم تسمع حكاية جالينوس وهي أن الملك عندما عرض عليه منصب قاضي القضاة ولم يكن هناك مجال للرفض وإلا يتعرض لغضب الملك وإن استجاب وقبل منصب قاضي القضاة ففي هذه الحالة لن يعيش حرا طليقا ويفقد متعة الحرية فللخروج من هذا المأزق أوجد سبيلا وهو أنه ركب علي الحصان الخشبي مثل الأطفال وبدأ يصدر أصواتا مختلفة كالأطفال وانتشر الخبر بسرعة البرق أن جالينوس قد جن جنونه وفي هذه الحالة اضطر الملك أن يُعيد النظر في قراره. إن القهر عندما يصبح غير قابل للتحمل وتكاد تنتهي بهجة الحياة الحرة والمستقلة ففي هذه الحالة تكون الرهبانية أو ادعاء الجنون آخر ملجأ. علي سبيل المثال عندما تم استدعاء ابن الهيثم إلي القاهرة بأمر من الخليفة الفاطمي وأسند إليه تغيير مصب نهر النيل فبعد تفكير طويل لهذا الأمر وصل إلي نتيجة حتمية وهي أن يثبت بحركاته وثكناته أنه فقد توازنه الذهني وكذلك أبوحامد الغزالي عندما هرب إلي بغداد منقذا روحه بعد مقتل مربيه السياسي نظام الملك قام بادعاء زهده في الدنيا وبحيلة أخري وهي أداء

فريضة الحج وهكذا خرج من بغداد فهذا الذي تسمعه بشأن كثير من الناس عن تركهم للدنيا وزهدهم فيها وتراهم في هالة من الرهبانية فكل هذا نوع من الخدعة والحقيقة عكس ما تراه وتسمعه.

لكن عندما رأيتك أول مرة كنت تبدو في الواقع راهبا. قال لو اختبأ أحد في غلاف ما فذاك الغلاف يصبح جزءا من شخصيته ثم إنني مررت بظروف جعلت قلبي يائسا من الحياة. بعد فترة طويلة تهيأ لي من خلال كلامك أمس أن باب التأمل لم يغلق بعد. هناك أمور كثيرة للتأمل والتدبر بل يمكنني أن أقول أن أملك قد بدأ يتقاتل مع قنوطي وإلا فإنني كنت قد وصلت إلي نتيجة وهي أنه لا يمكن أن يحدث شيء. نحن انتصرنا في حرب البوسنة وحققنا حلم إيجاد دولة إسلامية في قلب أوروبا نفسها لكن وبعد هذا الانتصار عندما رأينا أن عزم مرشدنا بدأت تنهار وشاهدنا بأعيننا أن المشروع العالمي للنهضة الإسلامية قد بدأ يسقط علي أيدي أهل الإسلام أنفسهم فبدا لنا أن جميع تضحياتنا قد ذهبت هباء.

إن ظروف البوسنة حقيقة كانت خطرة جدا فما بين مائتين وخمسين وثلاثمائة ألف من السكان تعرضوا للقتل العام والذين مروا بهذه الظروف ورأوا بأم أعينهم المشاهد المؤلمة فوقعها علي القلب والعقل أمر طبيعي. لكن ما أشاهده أحيانا في داخلك من الهزيمة النكراء والتي كانت سببا في اضطرارك للإقدام الخطير علي الانتحار. هل حاولت في أي وقت تحليل هذا الموقف؟ أردت أن أطلع علي ذهن كودرا مباشرة.

قال إنني أحارب علي المستوي الفكري والعقلي في كل الاتجاهات فوقت قصف العدو أُثناء الحرب الصمود في مواقع المقاومة ليس أمرا صعبا. لكن عندما تكون علي المستوي النظري في حالة تردد وارتياب وأنت في داخلك خائر القوي وضعيف فإن نزاع القلب والنظر هذا يجعلك من الداخل مجوفا.

لو قمت بتوضيح هذا النزاع أكثر فلربما أستطيع أن أفهم بسهولة هذه الكيفية. علي استفساري هذا سكت علي كودرا برهة ثم قال لا أدري من أين أبدأ. يرجع هذا الأمر لعام ١٩٧٩م في عهد حكومة الجنرال تيتو وكان إلقاء القبض علي المسلمين الذين كانوا يريدون القيام بنهضة إسلامية مستمرا. كنت قد وصلت في مثل هذه الظروف إلي السعودية بطريقة سرية وبعض الأحبة الآخرين اختاروا الذهاب إلي طهران والباقون اختاروا اللجوء إلي مختلف الدول الأوروبية. إن المسئولية التي كانت ملقاة علي هي الحصول علي التأييد السعودي لدعم قضية البوسنة ففكرت بعد الوصول إلي السعودية أنني ما لم أكن متمكنا من اللغة العربية فلن أستطيع أن أخدم القضية كما ينبغي وتطبيقا لهذه الفكرة التحقت بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة وقضيت هناك سبع سنوات لدراسة اللغة العربية والإسلام. وهناك واظبت علي الدروس كلها كطالب علم ومقارنة بطلاب العلم العاديين قويت علاقاتي وروابطي بالعلماء المؤثرين المعروفين الموجودين خارج الجامعة في مكة المكرمة والرياض لأنني لم أكن طالب علم محض بل قبل ذلك كنت ممثلا لحركة البوسنة ولهذا أصبحت مستحقا لشفقة ومحبة علماء السعودية أكثر من الآخرين. في أول الأمر كنت أفهم أن علماء السلفيين هم الأمناء الصادقون لمنهج السلف الصالح وهم الدعاة والوكلاء الحقيقيون للدعوة للكتاب والسنة بطريقة مباشرة. وفي المقابل بدا لي المذهب الحنفي لعلماء البوسنة شيئا جامدا وتافها وبعد تفكك يوغسلافيا حينما رجعت إلي الوطن كانت لدي رغبة كبيرة لتصحيح وتقويم عقيدة العلماء البوسنيين ذات الصبغة الحنفية والصوفية. بعض أحبابي استغربوا كثيرا من تحول موقفي وكانوا يرون ألا نثير في هذا الوقت القضايا الفكرية والمذهبية وألا نُشغل العلماء المحليين بمثل هذه القضايا وعلينا جميعا أن

نهتم بمستقبل البوسنة. إنني وبسبب التربية التي تلقيتها كنت معتادا علي أن أثير قضية التمسك بالكتاب والسنة من وقت لآخر وبما أنه كانت لي علاقات شخصية مع علماء المملكة العربية السعودية وكنت قد قمت بعمل كبير بين العلماء السعوديين لحماية ومساندة القضية البوسنية ولذلك كانوا يتحملون أحاديثي وكذلك كان هدف خطابي العدواني أيضا إسلام الشيعة مع أوساط المتصوفين والأحناف وإن كانت نسبة الشيعة في البوسنة لا تذكر لكن وبسبب علاقاتنا الأولية مع إيران بدأ بعض الأحباب يمدحون أهل التشيع أما في نظري فلم يكن إسلام الشيعة مقبولا بالمرة وكنت أرفضهم بشدة لأنه كلما جاء ذكر الشيعة في مجالس علماء السعودية مثل الشيخ بن باز والشيخ جبرين فكان موقفهم من الشيعة واضحا جليا حيث يرونهم خارجين عن دائرة الإسلام، ولدي علماء أهل الحديث فالشيعة كانوا من الروافض وكانت هناك روايات تذكر هنا وهناك أنهم يستحقون القتل. ذات مرة قدم طالب بحثا عن موضوع المهدي فنوقش البحث مناقشة حامية ونتج عن تلك المناقشة العلمية أن هناك اتفاقا بين الشيعة والسنة علي ظهور المهدي وهم متفقون علي هذا أيضا أن المهدي المنتظر سيكون من أهل البيت. وإن كان رأي الشيعة هذا من الأوهام أنهم سيكونون في معيته لأنهم وبسبب عقيدتهم الباطلة والفاسدة خارجون عن دائرة الإسلام. وكذلك فرضوا علينا أن نحفظ ما يتعلق بشأن الروافض وهو أن هؤلاء ينكرون بختم النبوة وعقيدتهم عقيدة الملهَم والمحدث وهم يحسبون أئمتهم الإثني عشر أنهم يوحي إليهم وحي سماوي. وأخطر من كل هذا أن هؤلاء الشيعة ينكرون ويرفضون هذا القرآن لأن هؤلاء يدعون أن النسخة الأصلية للقرآن الكريم كانت ثلاثة أضعاف النسخة الحالية وكانت فيه آيات كثيرة تمدح أهل البيت وتنص علي أهليتهم للخلافة فهذا الجزء الكبير من القرآن قد أخذه معه الإمام

الغائب. كان هذا هو تصور الدين الإسلامي الذي تخرجت به من الجامعة الإسلامية الشهيرة بالمدينة المنورة. فلم تكن توجد في نظري خدمة أكبر من تصحيح عقائد الفرق الضالة وولاة المتصوفين والروافض لكي يتوبوا ويرجعوا إلي الصراط المستقيم.

في إحدي ليالي عام ١٩٨٧م تقريبا أذيع خبر مفاده أن البطل الجليل للأمة الإسلامية السيد إحسان إلهي زهير الذي كان قد تخرج في الجامعة الإسلامية في المدينة قد تعرض لمحاولة قتل وهو يخطب في مؤتمر شعبي في باكستان وقد جيء به علي عجل إلي مدينة الرياض للعلاج لكن وافته المنية ولم يتمكن الأطباء من إنقاذ حياته والشيخ ابن باز هو من صلي عليه صلاة الجنازة لأن المتوفي كان تلميذا رشيدا له وشارك في جنازته مئات الآلاف من الناس. ما رأيت مثل هذا العدد من قبل ولا من بعد في صلاة الجنازة. كنت قد رأيت بعض كتب إحسان إلهي زهير عن الشيعة والقاديانية والبريلوية وبعدما ثار الغبار الكثيف باستشهاده تجدد اهتمامي بكتبه. في السابق عندما اطلعت عليها كان قد خطر في قلبي لو أن خطبنا وكتاباتنا الجارحة والعدوانية تتسبب في إثارة عواطف الفرق المختلفة فنحن كأمة قد نتعرض لحرب أهلية. لقد أظهرت خوفي هذا في مجالس الأساتذة والشيوخ فكان جوابهم أننا لا نستطيع المهادنة في مسألة العقيدة أما النظر إلي المصالح السياسية والاجتماعية فهو بسبب عجز واضطرار الحكام لكن لا يليق بطبقة العلماء ولا ينبغي لهم أن يهادنوا بأي شكل من الأشكال فاتباع وتقليد السلف الصالح وهتاف التمسك بالكتاب والسنة كان يسحرني إلي درجة أنه جعلني أغض النظر عن هذا التخوف حتي هيأ الله لي الذهاب إلي إيران.

كنت ناقدا كبيرا للشيعة وكنت تنظر إلي الروابط

والعلاقات مع إيران بنظرة شك وارتياب فماذا حدث لكي تسافر إلي إيران؟

رد علي سؤالي هذا قائلا: كنت قد عدت إلي البوسنة عام ١٩٩٠م بشكل دائم. وفي عام ١٩٩٢م وبعد إعلان استقلال البوسنة وجدنا أنفسنا فجأة تحت حصار العدو لمدة ستة أشهر. لستة أشهر ظللنا نقاوم العدوان ثم بدأنا نحس بشدة بقلة السلاح والعتاد واستيراد السلاح من العالم الخارجي كان محظورا علينا وخلف الصرب كانت هناك حكومة أما نحن فكانت من نصيبنا كلمات المواساة فقط من شعوب الدنيا. وكانت طرود المساعدات والإغاثة تصل إلينا من الدول الإسلامية لكن ما كنا نحتاجه في ذلك الوقت هو السلاح ولم يكن أحد علي استعداد لتزويدنا به في هذه الظروف الصعبة فقرروا إرسالنا لمساندة حسن جيجك والذي كان قد سافر إلي إيران أكثر من مرة وكانت له علاقات قوية مع القيادة الإيرانية العليا.

شعرت أنه ما لم تكن علاقاتنا متينة مع طبقة العلماء فلا يمكن أن تكون المساندة السياسية محكمة. وهناك في إيران اكتشفت عالما جديدا فإن مجالس العزاء الشعبية وإبداء الحب الكبير لأهل البيت حينما رأيت هذه المناظر بعيني بدا لي أن رأينا المتشدد إزاءهم ربما لم يكن عادلا. بعثتنا نجحت ونجحنا في الحصول علي صفقة السلاح في وقت دقيق جدا إذ كاد أن ينطفيء مصباح دولتنا (البوسنة) وطالت الحرب ولم يبق لي سبيل للعودة إلي البوسنة ففي هذه الحالة قمت بالالتحاق كطالب في الحوزة العلمية بقم كي يزداد نفوذنا بين طبقة العلماء من ناحية ومن ناحية أخري كان هناك اهتمام شخصي لتلقي العلم والمعرفة. في بداية الأمر كانت اللغة الفارسية تمثل مشكلة كبيرة بالنسبة لي إذ أنه بغير اللغة لا يمكن تبادل الآراء مع العلماء مباشرة وكذلك من الصعوبة فهم

المظاهر الاجتماعية وما يحدث في المدارس ولذلك بدأت دراسة اللغة الفارسية وتمكنت بفضل الله من فهم أساسيات اللغة الفارسية.

لكن للتواصل وإقامة الروابط مع العلماء ألم تكن معرفتك باللغة العربية كافية؟ هل اهتمام علماء إيران باللغة العربية أقل نسبيا؟

كبار العلماء وبصفة خاصة الذين سنحت لهم الفرصة للدراسة في نجف هم بكل تأكيد متمكنون من اللغة العربية ولكن الذين درسوا في إيران فقط فهم في اللغة العربية مثل علماء بلاد العجم هؤلاء مؤهلون للاستفادة من الكتب العربية لكن ليست لديهم القدرة الكاملة للكتابة والخطابة باللغة العربية. ثم كان اهتمامي بفهم المظاهر الاجتماعية للشيعة إذ أن للغة الفارسية وأدبها النثري والشعري دور كبير في هذه المظاهر. ولكن بسبب دراستي بالمدينة المنورة فقد سمحوا لي بوضع العمامة من أول سنة وكذلك كان تعامل الأساتذة معي مبنيا علي الشفقة والمحبة بسبب دراستي للغة العربية وأيضا كان هناك سبب آخر لتلك المعاملة الحسنة وهو أنني مواطن بوسني سني. إنني رأيتهم عن قرب وشعرت بعمق أن علماء السعودية في موقفهم نحو الشيعة يروجون للدعاية السلبية والمبالغة. وبعد عامين أو ثلاث عندما تمكنت من اللغة الفارسية إلي حد ما بدأت أستمتع بمجالس العزاء الخاصة لبيان مناقب آل البيت والنواح علي وفاتهم وكذلك فللشعر الفارسي من أساليب وأوزان مختلفة سحر بدأت أستمتع به. ولم تكن لي أي تجربة من قبل في مجالس دينية كهذه. ماذا أقول لك؟ عندما كنت أشارك في مثل هذه المجالس كنت أشعر أن روحي كلها في فرح وطرب بحب آل البيت الأطهار. هذه المجالس تجعلك تقطع مسافات القرون وتصل إلي عصر شهادة الحسين المظلوم. تشعر وكأن حادثة الاستشهاد قد وقعت في الحال. يمكنك أن تسميها سحر ألحان اللغة ويبدو لك في هذه المجالس أن قهر وظلم أئمة أهل

البيت مازال حيا لكن بقدر الإمكان حافظت علي انتسابي بأهل السنة والجماعة خلال قيامي بمدينة قم وإن ذهبت عني حالة العناد والنفور من أهل التشيع. وبدأت تمر الأيام والليالي هكذا دون أن يطلب مني أحد في تلك الفترة أن أتحول إلي التشيع كذلك لم يشر أحد من أساتذتي من قريب أو بعيد أنني أنتسب إلي أهل السنة. ذات يوم كنت جالسا في روضة السيدة فاطمة المعصومة وفي هذه الأثناء جاءت جماعة عربية للزيارة هناك. كانوا يتحدثون باللغة العربية عن تاريخ الروضة وعندما عرفوا أنني من مواطني البوسنة وأقيم في قم من أجل الدراسة بدأوا يهتمون بشخصي وحينما علموا أنه سبق لي أن كنت طالبا في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة فاهتمامهم بي تحول إلي دهشة. كان واحد منهم يدعي أحمد تيجاني سماوي وعرفت عنه فيما بعد أنه عالم دين كبير كان من قبل سنيا والآن أصبح شيعيا بشكل رسمي. قال لي: يا علي إن مشيئة الله قد سمتك من الأول عليا فكن ناصرا ومعينا لأهل البيت فهذا هو الدين الحق وأنت تعرف جيدا أن مهدي آخر الزمان سيكون من أهل البيت فما الذي يمنعك من أن تصبح من شيعة أهل البيت. انظر إلي إنني أيضا قد ولدت مثلك في أسرة سنية وفي عمر السادسة عشر وصلت إلي السعودية لأداء العمرة وهناك بدأت آخذ جرعات التوحيد في صحبة العلماء الوهابيين لكن لم يرتوي عطشي تماما. لم أكن أفهم أن هؤلاء السادة يعترفون بأفضلية أهل البيت لكن لماذا يبغضون بغضا شديدا من يحبون أهل البيت استطرد الشيخ كلامه قائلا: ظللت مروجا للدعاية السلبية عن الشيعة لفترة طويلة وكنت أنظر إليهم بنظرة المؤامرة اليهودية لابن سبأ حتي هيأ الله لي زيارة النجف وهناك استفدت من كبار علماء الشيعة أمثال سيد الخوئي وباقر الصدر. عندما رأيتهما عن قرب رُفع الستار من علي عيني. مع ختام كلمته دمعت عين الشيخ التيجاني وعند

الوداع عانقني بحب كبير داعيا لي بأن يملأ الله قلبي بمحبة آل البيت الأطهار.

بعد سرد هذه الحكاية سكت علي كودرا برهة وبدأ يتأمل في الفضاء كأنه مشغول بالبحث عن بداية الحكاية القادمة.

سألته: ثم ماذا حدث؟ هل تحولت إلي التشيع؟

قال: من الصعب أن أقول هذا وإن كانت قد خفت صبغة سنيتي أثناء قيامي بمدينة قم وكنت أجد نفسي في مجالس الشيعة في حالة من الطرب والسرور وبصفة خاصة في المجالس الشعرية إذ كانوا يتغنون بمناقب أهل البيت وحينها كل عضو من أعضاء جسمي وجوارحي كان يغرق في حب أهل البيت لكنني أقول لك وبكل صراحة ووضوع أنه لم يخطر ببالي في يوم من الأيام أن أختار مذهب الشيعة بشكل رسمي. إن مقابلة السيد تيجاني كانت قد ولدت في صراعا داخليا. من خلال مجالس العلماء وأثناء المناقشات البينية بين الطلاب وكل الأدلة والبراهين التي ظللت أسمعها إلي الآن في مساندة وحماية موقف الشيعة والتي كنت قد أهملتها لأتحقق منها علميا في المستقبل بسبب عدم وضوحها بالنسبة لي بدأت تلك الأسئلة تظهر لي مرة أخري في ثوب جديد. كان فهم هذا الأمر بالنسبة لي صعبا وهو إن كان هذا صحيح أن رسول الله صلي الله عليه وسلم كان قد أعلن في غدير خم وصاية وولاية علي رضي الله عنه والذي جاء ذكره في مصادر ومراجع أهل السنة أيضا فكيف يمكن إقرار الاعتراف بالخلافة لآخر غير علي؟ ذات يوم وبينما كان النقاش جاريا في قاعة الدرس عن موضوع خطبة الشقشقية سألت الأساتذة هل هذا كلام سيدنا علي حقيقة حيث يشكو ويقول فيها أن خلعة الخلافة كانت من حقه وسلبها منه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. رد علي سؤالي الأستاذ قائلا: إن تنسيق الأسلوب الرفيع والبلاغة يدل

علي أنه لا يمكن أن تكون هذه الكلمات لغير سيدنا علي ولا يمكن أن تخرج هذه الكلمات البلاغية من لسان آخر فهذا الأسلوب الرفيع هو صاحبه. قلت له: لكن شارحين مهمين لنهج البلاغة وهما ابن الميثم البحراني وابن أبي الحداد لا يعترفان بأنها من كلام علي رضي الله عنه. علي اعتراضي هذا سكت الأستاذ الجليل ثم قال: هذا بحث آخر سنناقشه فيما بعد.

فهل سنحت لك الفرصة للنقاش أو التحري العلمي بالتفصيل؟

قال: لم يتسن لي النقاش حول هذا الموضوع في قاعة الدرس ولكن كلما تحدثت مع كبار الأساتذة في مثل هذه الأمور وجدت فيهم نوعا من الاعتدال فهم لا يحسبون جميع الروايات صحيحة تماما ويتركون باب النقد والتعديل مفتوحا لكن الأساتذة العاديين الذين يحملون أسلوب الفكر المدرسي وكذلك الطلبة المتحمسون كانوا يؤكدون بشدة أن أهل البيت قامت قيامتهم بمجرد أن أغمض الرسول (ص) عيناه ولحق بالرفيق الأعلي وباستثناء عدد محدود من الصحابة انشغل الجميع بالحصول علي الدنيا واستولوا علي الخلافة بمؤامراتهم البينية. أصبح سيدنا علي محروما من الخلافة وبدأت السيدة فاطمة رضي الله عنها تستغيث بأهل السلطة رافعة قضية فدك لنيل العدل والإنصاف أما عمر وأصحابه فقد جاءوا لإشعال النار في بيت السيدة فاطمة رضي الله عنها حتي نادت باكية يا أبتاه ويا رسول الله بمجرد رحيلك عن الدنيا عاملني أصحابك معاملة قاسية. وفي مناقشات الطلاب البينية كان يأتي أحيانا ذكر "القائم" الذي ينتقم بعد ظهوره من أعداء أهل البيت وتبعث السيدة عائشة رضي الله عنها مرة أخري وتعذب بأمر من القائم مرات ومرات وفي بعض الكتب لغلاة الشيعة تقرأ أن السيدة عائشة لم يكن ذنبها حادثة الإفك فقط بل هي متهمة أيضا نعوذ بالله من ذلك في تخطيط مؤامرة لقتل

النبي صلي الله عليه و سلم. وحسب هذه الرواية فقد قامت السيدة عائشة بإنهاء حياة النبي بالسم. أما بالنسبة لي فكل هذه الروايات كانت محل تحقيق وتمحيص وإن كان الأساتذة الجدد المتحمسون والشباب المولع بالمناظرات والمناقشات لم يتراجعوا عن كلامهم الفاحش بل كانوا يحسبونه أساسا للتشيع ويقدمونه للناس كي يؤمنوا بهذه الخرافات والمشكلة التي أواجهها هي أن شواهد و صاية وولاية سيدنا علي رضي الله عنه وحرمانه من الخلافة كانت موجودة في كتب أهل السنة كروايات وآثار بكثرة. علي سبيل المثال خذ الجامع الصحيح للإمام البخاري تجد فيه علي الأقل ست روايات بأساليب مختلفة تذكر أن الرسول صلي الله عليه و سلم كان يطلب وقت الرحيل القلم والورقة لكتابة الوصية لكن سيدنا عمر رضي الله عنه كان عائقا لهذا العمل إذ قال: حسبنا كتاب الله.

ففي هذه الحالة كان عليك أن تتحول إلي شيعي لأنه قرين للحق لكن كيف تغلبت علي أهل قم؟

بسؤالي هذا لم يطرأ أي تغيير علي اتزان وهدوء السيد علي كودرا حيث قال: لم تكن هناك مشكلة كبيرة في تحولي إلي التشيع. كانت القضية مبنية علي الافتراضات التي كانت بمثابة أسس لعلماء شيعة المستقبل الذين يخططون ويضعون برنامجا لترويج ونشر مذهبهم غير أن هذه الافتراضات في حاجة إلي تحقيق وتمحيص لدي العلماء الكبار المعتدلين كما ذكرت آنفا بشأن الخطبة الشقشقية. ثم أنه لم يكن أمري سهلا مثل السيد تيجاني السماوي فهو في البداية كان متصوفا سنيا ثم تأثر بالوهابية وبعد ذلك اختار لنفسه المذهب الشيعي. الانتقال من خانة إلي أخري ليس صعبا لكن المشكلة تظهر عندما تودع بابا لا يناسبك ولا ينطبق عليك الباب الآخر تماما. علي الرغم من أن المذهب الحنفي قد تلاشي إلي حد كبير من داخلي لكوني كنت سنيا

حال إقامتي بمدينة قم لكن المصيبة التي واجهتها هي أنه علي الرغم من عشقي للشعر الفارسي والمناقب الشعرية بالذات لم أكن نفسي موافقا علي الباب النظري الشيعي. ربما كان سببه أن مرشدنا الأعلي علي عزت بيغوفيتش كان قد أرانا المشروع العالمي للنهضة الإسلامية من جديد ففي هذا المشروع كانت تتحلل وتنتهي جميع ثغور العرب والعجم والشيعة والسنة. السيد المرشد ربما لم يكن علي علم تام بأزمتنا الفكرية الداخلية كما أدركت أنا بعدما دخلت في عقر دار الوهابية والشيعية ودرست ما فيهما. كيف أشرح لك أن العلماء المعتدلين والمتعصبين سواء كانوا من السنة الوهابية أو الشيعة الإثني عشرية سواء من يعيشون في مدينة الرياض أو المدينة المنورة أو من يعيشون في قم أو طهران علي الرغم من إخلاصهم وحبهم لله فإن الجهود المبذولة لجمعهم لا يمكن أن يكتب لها النجاح لأن كتب هذين المذهبين مليئة بالروايات المتضادة والبيانات المثيرة للحماس التي تغزي المناقشة الحادة والحرب الأهلية فيما بينهما ما دامت الدنيا قائمة.

لكن الذين يرفعون أصواتهم بهتافات اللاشيعية واللاسنية هل هم مخدوعون؟ أردت معرفة رأيه في هذه القضية الشائكة علي أساس أنه متعمق في هذين العالمين.

قال: ليست الخدعة ولكن وراء هذه الهتافات المفرحة تكون هناك دواع لإرجاء بعض القضايا علي الفور ففي الأيام الأولي لثورة إيران عندما تعالت الهتافات الخداعة "لا شيعية ولا سنية" فكان يبدو في الأفق أن إيران الحديثة تحت قيادة الخميني قد صممت عزما أكيدا علي الخروج من غلاف الشيعة. وفي الأيام الأولي لهذه الثورة أيضا جرت الأحاديث عن تصدير الثورة وبدا للناس أنه تحت قيادة هذا الرجل الجليل سيكتمل لم الشمل للعالم الإسلامي تحت لواء واحد. لا شك

في هذا أن الخميني أعلن علي البوابة الشيعية أن الانتظار المحض قد انتهي عصره ولا طائل من ورائه فكان من أقواله المأثورة: علينا أن نحيا العصر بمبادراتنا العملية لظهور إمام آخر الزمان بدل أن نكون مكتوفي الأيدي فهذا التغيير الجذري قام بتغيير الأمة الإيرانية المنتظرة إلي أمة المبادرات العملية وبما أنه لا يمكن إدخال التغيير الأساسي في العالم الإسلامي من غير أن نأخذ جمهور المسلمين في صفنا فمن أجل هذا قام الخميني بإبتداع الهتاف المسحور "لا شيعية ولا سنية إسلامية إسلامية" وكان من تأثير هذا الهتاف الساحر أنه في عام ١٩٩٣م وفي الأيام الأولي لحركة المقاومة البوسنية التي تعرضت لأوقات الابتلاء والمحنة وجدنا جزيرة واحدة للأمل في الدنيا بأسرها هي دولة إيران الإسلامية حيث شجعتنا هذه الدولة إلي حد ما في بداية الأمر وأبدت روح الأخوة الإسلامية الحقة وعندئذ لاحت لنا آمال النهضة الإسلامية المتحدة والخميني طالما كان علي قيد الحياة استمرت في إيران المعركة النظرية بين الشيعة والإسلام المتحد وفي أيامه الأخيرة بدأت سيطرته علي الظروف تضعف ربما كان السبب اندلاع الحرب ما بين العراق وإيران لتقطيع أوصال الأخوة والتي استمرت زهاء ثمان سنوات فلم يتسن للخميني التركيز الكامل علي أجندته الثورية الأصلية وبمرور الأيام تحولت هذه المعركة ما بين المستكبرين والمستضعفين إلي حرب ما بين الشيعة والسنة ونظرا لهذه الظروف الطارئة لم يتم تقديم المبادرات الجذرية والأساسية للاتحاد الإسلامي والتي كانت تتطلب بعض التعديلات الأساسية في الهيكلة النظرية للشيعة.

علي أي أساس تقول هذا الكلام هل كان يريد الخميني حقا إدخال تغيير جذري في القالب الشيعي؟ أردت أن أعرف هذا الأمر منه بصفة خاصة.

قال: نعم هذا هو رأيي. الخميني كان إنسانا غير عا دي لا تقيمه في ضوء كتاباته السابقة حيث يظهر في صورة عالم شيعي تقليدي ويصرح بعقيدته مثل عامة علماء الشيعة قائلا: "إن لأئمتنا مقاما لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مر سل". إن عبقريته وإبداعاته تظهر في الخطب التي تم نشرها بعد الثورة و سعي واجتهد لكي يقدم العلامات الشيعية كعلامات الأمة الإ سلامية. علي سبيل المثال في منا سبة يوم الغدير لم يقم بالنواح كعامة علماء الشيعة والواعظين أن عليا تم سلب حقه في الخلافة وتجنب كذلك الا صطدام بموقف أهل السنة وقدم هذه المنا سبة كيوم لإعلاء كلمة الحق والعدل. إنه يقول: إن الر سالة الأ سا سية ليوم الغدير هي أن نبذل كل ما أوتينا من قوة لإقامة حكومة حيث لا يكون هناك سلب لحقوق أحد وينال الجميع الإنصاف الكامل. والخميني لم يكن غافلا عن أن كتب الرواية مليئة بالرطب واليابس ولا تقل الروايات التي تناقض الشيعية الحقيقية قبل السنة. لقد أبدي في مرة رأيه في كتاب بحار الأنوار حيث توجد بكثرة الروايات وعكسها وطلب نقد وإ صلاح هذا الكتاب قائلا: هناك حاجة ما سة لنقد وتعديل هذا الكتاب.

أبدي مثل هذا الرأي علماء الشيعة الآخرون أيضا فخذ علي سبيل المثال السيد مرتضي مطهري الذي ينكر تماما قصة الذاكرين ويقوم بإبطالها ومن أقواله أن مجالس الشيعة تُروي فيها روايات واهية لا أ ساس لها من الصحة وهي في حقيقة الأمر تقوم بتشويه صورة الشيعة الصحيحة وكذلك الحاج نوري الذي كتب في اللؤلؤ والمرجان أن السيد فضل بن عباس قام برمي شخص في الهواء في حرب صفين وبعد ذلك ظل يقذف حتي و صل عد د من تم قذفهم في الهواء إلي ثمانين شخصا ويقال أنه عندما تم قذف الشخص الأخير لم يكن قد سقط علي الأرض بعد

الشخص الأول الذي قذفه الفضل بن عباس ثم أخرج سيفه من غمده وبدأ يضرب الواحد تلو الآخر حتي يحوله قبل سقوطه إلي قطعتين.

نعم لا تسألن عن الواعظين فمجالسهم مليئة بالمعجزات والكرامات والخرافات والشعوذة وبهذه الطريقة يجعل الواعظون التجمعات الكبيرة في قبضتهم ويحولون عواطفهم وأحاسيسهم حيثما يريدون. أنا نفسي كنت أستمتع بالمشاركة في مثل هذه المجالس في قم وطهران لكن المتعة الحقيقية تكمن في شاعريتهم. إن متعة سماع الشعر بالفارسية لا أعتقد أنها متوفرة في أي لغة أخري. إن مظاهر سمو المناقب التي شاهدتها في مدفن السيدة فاطمة المعصومة وفي مسجد جمكاران فأقسم بالله أنني لم أستمتع ولم أمر بمثل هذه التجربة الفريدة من قبل وهي سماع الشعر والنغمة المفرحة في أي مكان آخر. ووقت زيارة حرم السيدة فاطمة ومناظر التأوهات والبكائيات والمناشدات لم أتأثر بها كثيرا ولعل الوهابية الكامنة في داخلي كانت تمنعني من أن أعترف بهذا الحرم ولكن عندما تدوي الألحان مؤثرة للنوحة والمنقبة في المجالس فإن كل شعرة في جسمي تحس بطرب عجيب وفرحة شديدة ووالله لا جواب ولا نظير لنغمات وألحان الشعر الفارسي. ذات مرة كانت قد جاءت مجموعة من الزائرين من مدينة مشهد وكان فيها عدد كبير من العلماء والفضلاء. وقرأ هؤلاء أبيات تتحدث عن مناقب السيدة فاطمة بأسلوب مؤثر جدا.

بدا لي كأن ستار الزمان والمكان قد رُفع ربما بسبب الأثر الساحر للأشعار والأسلوب المؤثر أو كيفية الحضور في حرم فاطمة أو كل هذا مجتمعا معا جعل الناس الموجودين في الحفل يفقدوا حواسهم وفي الآخر لحن الملحن هذا الشعر.

"لم يلد" م بسته لب وگرنه بگفتم
دخت خدا يندا ين دونور مطهر

فبدا لي في ترديده لهذا الشعر أن قائله قد قال ما بوسع النطق الإنساني والفكري وهذا هو المنزل الأخير للإنسان لا يستطيع أن يقول أكثر من هذا. وحسب قول الشاعر لو يخيط "لم يلد" شفاهي لقلت أن هاتين الفاطمتين أي فاطمة الزهراء والفاطمة المعصومة نوران طاهران لله بل – معاذ الله — ابنتاه. فيما بعد عرفت أن كاتب هذه الأبيات هو الخميني نفسه وهي جزء من قصيدته الطويلة.

علي ذكر الشعر والطرب بدا لي كأن المغني الكامن داخل السيد علي كودرا قد استيقظ أو كأنه قد تاه في ذكريات قم. رفع الصوت عاليا وبأسلوب مخصوص علي لحن: يا كريمة يا كريمة اشفعي لنا اشفعي لنا في الجنة. ثم لا أدري بماذا فكر حتي بدأ يضحك بصوت عال. قال: لو لم تكن هناك وفرة في الشعر واللحن لأصبحت الحياة موحشة وتحولت إلي خرابة. سواء كانت مدينة مشهد أو قم أو كانت مدينة نجف أو كربلاء توجد في هذه المدن أدوات كثيرة للشعر والطرب وليس السؤال هنا عن هل أنت شيعي أو سني وهل تؤمن بشفاعة الفاطمة المعصومة وأئمة أهل البيت أم لا تؤمن لكنك بكل تأكيد لو لم تمر بهذه التجارب فمعناه أنك حُرمت من بعض التجارب الجالبة للبهجة الروحانية. بدأ ينظر إلي علي كودرا مع هذه الكلمة وكأنه يريد معرفة انطباعي. فكرت أن علي كودرا لديه ذوق رفيع للشعر والطرب فلو تحول الموضوع فلا يمكن أن يجري الحديث في الموضوع الأساسي وإنني لا أريد أن أفقد هذه الفرصة فمن أجل هذا التفكير غيرت وجهة الحديث إلي آية الله الخميني.

سألته: ألا يبدو من القصيدة التي ذكرتها الآن أنه مع جميع مساعيه الاجتهادية كان نتاجا للفكرة الشيعية التقليدية؟ فبدلا من أن يضع عليها أداة الاستفهام قام بتقويتها؟

اعتراضك صحيح إلي حد ما بيد أن هذا هو الجانب الظاهري فقط ثم أنه علينا ألا ننسي أن كل داعية لبزوغ الصباح الجديد يبدأ سفره من ليلة حالكة الظلام وهو مع كونه في داخل هذا التقليد يضع بذرة التغيير وأهم إنجاز للخميني هو أنه وضع الفكر الشيعي علي طريق الجهد والعمل الذي كان ومازال إلي الآن منزويا في حاشية التاريخ مكتوف اليدين إلي أن أقنعه بقيادة فكر جمهور المسلمين فالخميني كان لديه رؤية أن لقيادة العالم الإسلامي لا بد من تعديل بعض الأسس النوعية للفكر الشيعي. انظر الآن قبل الثورة الإيرانية كانت المناقشات النظرية للعلماء الأصوليين والروائيين قد أثبتت تفوق الموقف الأصولي لكن مختلف المراجع التقليدية كانت محدودة في أوساطها ودوائرها التي كانت تحت تأثيرها. والخميني باعتباره الولي الفقيه قد أعلن صراحة علي الملأ أن الحكومة الإيرانية في غياب النبي ستكون بمثابة خليفة رسول الله وتحمل نفس المركزية والسلطات. إن فكر الشيعة الذي مر بمختلف المراحل المتقدمة كان قد صار في النصف الأخير من القرن العشرين عرضة للجمود الدائم لكن فكر الخميني ومبادراته العملية جعلته محور ومركز آمال الأمة الإسلامية. مع هذا القول تقلب السيد علي كودرا علي الجانب الآخر وسكت برهة كأنه يسعي لتذكر شيء مهم ثم قال: "لو لم تكن نظراتنا علي تاريخ ارتقاء فكر الشيعة فنحن لا نستطيع أن نقدر أهمية المبادرات الفكرية للخميني. انظر إلي أن أول وأكبر تعديل في فكر الشيعة والذي حدث بعد مائة وخمسين سنة علي يد شيخ الطائفة وبالتحديد في القرن الخامس الهجري حينما أجاز للفقهاء أن يكونوا بمثابة نواب الإمام في غيابه وبعد مائتي عام وفي ضوء المساعي الاجتهادية لمحقق الكرخي نال الفقهاء حق إقامة الحدود وو صولا لحق الإمامة وحق توزيعها. وبعد ثلاثمائة عام تقريبا منحت تعبيرات وتفسيرات المحقق الكرخي العلماء أن

يكونوا نوابا للإمام بصفة عامة وأعطتهم الإذن العام لإقامة صلاة الجمعة وفيما بعد وفي ضوء مساعي الشهيد الثاني السلطة التي كان قد حصل عليها العلماء وهي الحصول علي حق الإمامة بالإضافة إلي توزيع حق الإمامة سيكون باطلا لو تم علي أيدي الآخرين من غير الأئمة وكذلك يكون من حق العلماء إصدار فتاوي وأحكام الجهاد كما انكشف فيما بعد من خلال فتوي كاشف الغية الذي أصدر فتوي الجهاد ضد العدوان الروسي باعتباره نائبا للإمام الغائب والآن تلاحظ فتوي الخميني في هذه الخلفية التي أصدرها في السادس من يناير لعام ١٩٨٨م والتي قال فيها بكل وضوح أن الحكومة الإسلامية لإيران باعتبارها نائبة لرسول الله صلي الله عليه وسلم لها كل السلطات والاختيارات التي كان قد فوضها الله لرسوله وهذا التفويض غالب علي كل الأحكام والسلطات. والآن تأمل معي لو في غياب الإمام تحمل الولي الفقيه قيادة الولاية (البلاد) كنائب لرسول الله وله كل الاختيارات التي كان قد منحها الله لرسوله وكان عليها الخلفاء من بعده فأين الفرق إذن بين السنة والشيعة في مسألة الخلافة والإمامة؟

بكل تأكيد إنه لموقف اجتهادي وجريء. هل كان لدي علماء الشيعة أي تقدير أو تقييم لثورية هذا الموقف وبعده النظري؟

قال: نعم ولم لا؟ إنه كان إعلانا صريحا للتغير الفكري الشيعي وكان في استطاعة الفكر الشيعي من بعده أن يخرج من مكمنه ويمسك زمام القيادة. ففي الداخل جري كثير من القيل والقال حول هذه الفتوي وبدا لبعض العلماء ضيقي الأفق كأن فكرتي الشيعة والسنة بدأت تعودان إلي محور واحد. لو كان قد تقدم هذا الحوار إلي الأمام لسنحت الفرصة للطائفتين أن يطهرا تاريخهما من جديد ويزيلا منه المواد المسمومة ولم يكن غريبا أن ننجح في الوصول إلي تصور وفكر القرن الثالث أو الرابع

بعد المحاكمة النقدية للتاريخ والتفسير أي إلي الوقت الذي لم تكن قد قامت هوية نظرية منفصلة لكل من السنة والشيعة علي الرغم من وجود الاختلاف الفكري والنظري بينهما.

لكن لماذا لم يطرأ هذا التغيير؟ إن الخميني كان قائدا محبوبا ومقبولا وكان له كل الاحترام والتقدير في أوساط الشيعة في الداخل والخارج.

قال هذا هو سر الأسرار الذي لا تلتفت إليه أنظار عامة الناس فكل ما يُري في الظاهر لا وجود له علي أرض الواقع. إن هذا الاعتبار الجديد للولي الفقيه الذي يمنحه الحصول علي حق الإمامة هو في الواقع كان رسالة موت لمختلف المراجع التقليدية. إن الأوساط المختلفة للمراجع التقليدية خارج إيران لم تكن ترغب أن تفقد عظمة اجتهادها وتنضم إلي مركزية الولي الفقيه. وعلي الجانب الآخر بدأت أوساط السنة تشعر بالخطر إلي حد ما وهو أن هذا التغيير الثوري في فكر الشيعة يمكن أن يضعها علي منصة الأمة ومن ثم يستطيع الشيعة أن يؤدوا دور الزعامة بل بمساندة ومؤازرة الدولة الإيرانية تجعلها تشن الغارة علي القيادة السنية. إذن لم يكن هناك استعداد لدي الأوساط الشيعية والسنية لقبول هذه المبادرة الثورية بأسرارها ونتائجها وعندما كان الخميني يلفظ أنفاسه الأخيرة كان لديه شعور أن تلاميذه الذين تربوا في المدارس الشيعية التقليدية لن يكون الأمر سهلا لهم أن يسيروا علي الطرق الجديد. رحل الخميني عن الدنيا وهو حزين لأنه كان يشعر أنه لم يستطع قطف ثمار الثورة. إنك حتما تكون قد سمعت القصيدة المشهورة للخميني وهي التي قالها قبيل وفاته:

در ميخانہ گشايد بہ رويم، شب وروز
کہ من از مسجد واز مدرسہ، بيزار شدم

جامه زهد وريا كندم وبرتن كردم
خرقه پير خراباتى وهشيار شدم
واعظ شهر كه از پند خود ازارم داد
از دم رندى آلوده مددگار شدم
بگزاريد كه از بتكده يادى بكنم
من كه بادست بت مكيده، بيزار شدم

لم تكن هذه الأبيات جديدة بالنسبة لي وكنت علي دراية بكم كان الراحل الخميني حزينا ومكتئبا في أيامه الأخيرة وكانت تصل إلي الأخبار الحقيقية والشهادة العينية عن طريق حبيبي الدكتور الصديقي رحمه الله ففي تلك الأيام كلما ذهبت إلي لندن كان يرد في مجالس الصديق الكبير كليم الصديقي الذكر السامي للثورة الإيرانية فهو كان مؤيدا كبيرا وحاميا لها وفي نفس الوقت ناقدا لبعض الأمور أيضا لكن وبعد وفاة الخميني تغيرت الظروف تماما. واليوم بعد الحديث مع علي كودرا سنحت لنا الفرصة لنسمع شهادة أخري علي الحادث المؤسف. يا ليت تلاميذ الراحل كانوا قد استوعبوا الدرس وعرفوا أنه لا سبيل لتحقيق حلم الأمة من جديد بدون الخروج من غلاف التشيع ومن غير مقاضاة ونقد القضايا التاريخية المتضادة والمتحاربة. ليت الفكر الاجتهادي للخميني ودعوته لتغيير الفكر والرأي تقدم إلي الأمام عبر الخطوط المحددة. ويا ليت لو أن النقاش هذا كان قد اختار طريقا علميا نقديا وجريئا لكن كل هذا حديث الأحلام. وفي نفس الإطار يا ليت لو لم يقع علي الحوادث التاريخية ظل المعتقدات ومن ثم تلوينها لو حدث هذا لكان الحال اليوم قد تغير إلي الأفضل. مرت أمام عيني لقطات مجالس بيت الصلاة بمدينة

(علي كره) التي ترجع إلي الزمن البعيد ففي هذه المجالس كان صاحب النوحة يكرر مرارا وتكرارا "يا ليت" ليذهب بمشاهديه إلي أيام عاشوراء التي ترجع إلي عدة قرون مضت حيث وقعت حادثة كربلاء. لم يستطع صاحب النوحة هذا منعها وليس في مقدرته سوي تكرار "يا ليت يا ليت" ويحسبها واجبه الذي لا بد من أداءه ثم يكتفي به. كان يقول بلغة الشعر الأردي ما معناه:

يا ليتني كنت في ميدان كربلاء يا ليتني ضحيت بنفسي لأجل فلذة كبد الزهراء وحاربت أيضا مثل الحر ضد الأعداء وكل من يتقدم إلي الأمير لقطعت يده وملأت ميدان المعركة بالجثث يا ليت لو كنت موجودا هناك لكن لسوء الحظ لم أستطع نيل شرف الشهادة والعيون ستدمع بغزارة في مجلس العزاء وسأضرب الصدر من الهم والغم إلي أن تقوم الساعة.

فهل يا حبذا وليت هو آخر محطة لسفرنا الجماعي كأمة؟ السيد علي عزت بيغوفيتش كمفكر ومجاهد انهزم والخميني رحل عن الدنيا وكان قد أصابه اليأس والفشل.

تذكرت البرامج التي كان يذيعها التليفزيون الإيراني وهي كلمات وأقوال الخميني بعنوان (هذا هو الطريق) وبعد سماع حديث علي كودرا بدا لي كأن العنوان (هذا هو الطريق) قد برز لي من جديد بكل أبعاده. فهل الطريق مسدود أمامنا الآن بالفعل؟

بعدما رآني علي كودرا صامتا ومهموما قال: هناك تشابه عجيب بين الخميني والجد علي عزت بيغوفيتش فالاثنان كانا نقيبين وأمينين للنهضة الإسلامية. الاثنان كان لديهما شعور عميق بضرورة توحيد الإسلام السياسي والفكري. الاثنان سلطت عليهما الحرب إجباريا وكلاهما قاوم الظروف الراهنة ببسالة ولم يستسلما ولم يتلقا من أوساط العالم

الإسلامي التقليدية التعاون الكبير والحماسي إلا اليسير وواجه الاثنان أيضا النفاق. السيد الخميني أصيب باليأس من إيران التي أسسها من جديد ومن أوساط تلاميذه وكذلك الزعيم علي عزت بيغوفيتش لم ينل من العالم السني التقدير والاحترام اللازمين اللذين كان جديرا بهما والزعيم كثيرا ما كان يقول أن البوسنة هي رمز وهدفنا ليس الحصول علي دويلة إسلامية صغيرة بل من خلال هذا الرمز سنقوم بالنهضة الإسلامية الكبري فمن المغرب العربي إلي اندونيسيا كان هناك تفكك وتشتت في الأمة الإسلامية ولا شك في هذا أن العالم الإسلامي إلي يومنا هذا ينظر إلي الزعيم بكل احترام وتقدير لكننا نحسب هذا التقدير نوعا من النفاق فقد تآكلت أحلامنا. وهنا دمعت عيني علي كودرا وصمت للحظات وبدأ ينظر إلي الآفاق كأنه يريد إخفاء دموعه ثم فتح الترموس وصب المشروب المتبقي في الأكواب وقدم إلي بشكل بدا وكأنه يواسيني أو يعزيني علي هذا البيان الكارثي والمليء بالهموم.

قلت يا كودرا لا شك في أن التجارب الماضية مؤلمة ومحزنة جدا لكن الشعوب الحية تتعلم من التجارب الفاشلة وتخطط وتمهد الطريق للمستقبل. مرشدكم السيد علي عزت بيغوفيتش قال في كتابه كلاما عميقا. يقول أن الإسلام في واقع الأمر منهج وسبيل وطريقة للبحث والاكتشاف للوصول إلي مخرج جديد في الظروف الصعبة وكذلك عندما تكون الطرق مسدودة فكيف نبحث عن حيلة حتمية للوصول إلي الطريق المحتمل. إن الإسلام لا يقدم لنا حلا جاهزا بل يعلمنا كيفية البحث للوصول إلي الحل في الظروف المختلفة والحاجة ماسة إلي وقفة فكرية.

ولكن القضية الآن هي كيف تكون هذه الوقفة؟ لأننا أسري منذ قرون للتاريخ الموضوع والمسموم والدعاية السياسية المضللة والروايات الموضوعة المحيرة للعقول والبيانات المضادة المتحاربة بشأن نزول

الآيات والسور القرآنية، بشكل يخيل إلي أن هذه الورطة الشيطانية بمثابة حقائق ومعتقدات وهذه الشروح والبيانات المسمومة والمتحاربة قد تم تدوينها في كتب العقيدة والآن لا تشعر أي فرقة بضرورة فهم الوحي الرباني بعيدا عن هذه الشروح والحواشي والمصيبة الكبري أن كل طائفة أقامت مؤسسات تعليمية بشكل منظم لنشر وتقوية إسلامها الطائفي المنحرف والمضلل وتعتبرها حصونا للإسلام وكل ساكني هذه القلاع والحصون يثقلون مواهبهم العلمية والفكرية لتدمير وتخريب ودك الآخرين.

قلت له يا كودرا لكن التصور العام المقبول نحو المدارس هو أن الإسلام باق إلي الآن بسببها. ألست مصابا بحساسية زائدة بشأن هذا الموضوع؟

قال: هذه دور التربية الطائفية والنفور المذهبي والإسلام الذي يقوي من خلالها هو الإسلام الطائفي والمذهبي. الإسلام الذي يقسم الناس إلي مخيمات مختلفة. إنها ليست من قلاع وحصون الإسلام بالمرة الذي أنزله الله علي رسوله صلي الله عليه وسلم بل لو سألتني بصدق فأقول لك أن هذه المدارس الدينية والفقهية أقيمت وأسست في الوقت الذي احتاج الحكام إلي تجهيز وإعداد يكون متوافقا مع أهوائهم ويسير علي دربهم. إن المدرسة الأولي في قزوين أقامها دعاة الخلافة الفاطمية لتدريب وتربية واعظيهم ثم أقيمت جامعة الأزهر بشكل أساسي لنشر إسلام الفاطمية والعباسيون أيضا ساروا علي نفس النهج وأقاموا شبكة من المدارس النظامية البغدادية وكذلك لتوفير السند والدعم لإسلام الاثني عشرية أقيمت الحوزة العلمية. وفي التاريخ الحديث عندما كانت السيطرة علي جامعة الأزهر وقيادة العالم الإسلامي لجمال عبد الناصر نشأ هناك تنافس وصراع بين الحكام المصريين والسعوديين وأحست

الحكومة السعودية في قرارة نفسها بضرورة إقامة جامعة لها لأنها من غير مؤسسة تعليمية مثل جامعة الأزهر التي يقوم علماؤها بدور الطليعة. لا يمكن تحقيق أحلام سيادة الأمة للحكام السعوديين وبناء علي هذا الاحتياج أقيمت جامعة إسلامية عالمية بديلة علي عجل وقُدمت الدعوة للاشتراك في هذا المشروعِ إلي علماء الإخوان المعارضين لجمال عبد الناصر. والوضع الآن أن قُم والمدينة تخرجان جماعات من الواعظين وهم منذ أول يوم متضادين فيما بينهم. والمتخرجون من هاتين المؤسستين لا يستطيعون السير معا علي طريق التعايش لأن بقاء ونمو الواحد رسالة وفاة وموت للآخر.

مع إتمام هذا الكلام نظر علي كودرا إلي نظرة تساؤل وبعدما وجدني صامتا وشارد الذهن بدأ يبحث عن شيء في حقيبته وأخرج منها مجلة باللغة البوسنية باسم "لليان" وكانت تتضمن رسالة تقوم بالتعريف بمؤسسة المهدي بسرايفو. تصفحها ثم قدمها إلي قائلا: انظر إنه تقرير لاحتفال انعقد بمناسبة عيد الغدير وفيه تذكرة لغدير خُم مع إلقاء الضوء علي أهميته التاريخية والدينية. مكتوب فيه أن هذا اليوم في غاية الأهمية بالنسبة للمؤمنين. والآن قل لي أن هذه المؤشرات مهما كان أسلوب بيانها معتدلا أليست تتصادم مع معتقدات أهل السنة الذين يرون أن الخلافة تابعة لمبدأ "وأمرهم شوري بينهم" مباشرة، لأننا لو سلمنا وأقررنا بحدوث ولاية علي رضي الله عنه في موضع الغدير كأمر واقع فهذا يعني أنه لا اعتبار لخلافة الخلفاء الثلاثة. في هذه الحالة كيف تتوقع بأن الشيعة سيجدون سعة في صدورهم لهؤلاء الذين أنكروا ولاية علي رضي الله عنه واستولوا علي الإمامة المنصوصة غصبا.

فالشيعة يعتقدون أن عليا كان خليفة لرسول الله صلي الله عليه وسلم مباشرة ولديهم هذا عقيدة مقدسة وليس تاريخا محضا وعلي

العكس من هذا فأهل السنة لديهم إصرار علي أن الخلفاء الثلاثة بالترتيب هم من الخلفاء الراشدين.

لكن كل هذه أحداث ماضية. أليس من الممكن أن يتم تجميد هذه البيانات المسمومة في الوقت الحالي إذ يتعرض العالم الإسلامي لمؤامرات خارجية وحملات عسكرية؟ فعلينا بدلا من أن نثير القضايا الحساسة والنزاعية نشكل استراتيجية مشتركة من أجل الحفاظ علي أمتنا الإسلامية.

علي مشورتي هذه غضب علي كودرا إلي حد ما وضرب بيده علي المنضدة الحجرية بشدة وخشيت من أن تكون قد جُرحت يده وكذلك أصابني الخوف من أن ترجع إليه حالة الاكتئاب مرة أخري.

صدقت. أردت إمساك الحوار لأن فهم القضية كلما يكون بتعمق شديد تضعف الهمم بنفس القدر لكن لابد من إيجاد مخرج فبدلا من أن نترك السفينة المعرضة للغرق تحت رحمة الظروف لا بد وأن نسعي بقدرالإمكان إلي إنقاذها من الغرق فكل أزمة تأتي ومعها مفتاح حلها وهذا هو المعني الصحيح للحديث الشريف "إن الله خلق لكل داء دواء" ونحن المسلمون قد أوصانا الله سبحانه وتعالي ألا نقنط من رحمة الله. وانظر إلي المساعي الحميدة التي بذلت في الأعوام الماضية لتضييق الهوة لم تذهب هباء بالمرة ففي عهد شيخ الأزهر الأسبق الشيخ شلتوت أقرت جامعة الأزهر لأول مرة بالفقه الجعفري كمذهب فقهي خامس. ومن جانب آخر فقد أيد واعترف المرشد العام لشيعة الاثني عشرية الخميني بعهد الخلفاء الثلاثة في وصيته. الخميني لم يقم بهذا لمصلحة سياسية بل ذكر في وثيقة تم فضها وتُليت بعد وفاته فلم يكن هدف هذا الاعتراف والتأييد الحصول علي حماية عامة الناس وقبولهم. فلو نظرت من هذه

الناحية فستعرف أن محاكمة التاريخ وتنقيحه وتصحيحه كم هو مهم للتقدم إلي الأمام.

قال: إنه جانب ظاهري للقضية وإلا فالحقيقة أن نفس هذه الو صية ذكرت فيها أمور تمنع فتح طريق جديد. علي سبيل المثال فهذه الوثيقة التي تليت في البرلمان الإيراني لمدة ثلاث ساعات متصلة قرر فيها الراحل الخميني أن طبقة العلماء لها كل التقدير والاحترام وطلب من الشعب أن يستمر في طريقه للمستقبل دون مبالاة بالدعاية المخالفة والمعارضة. ففي جانب كان الراحل يشكو من أن المساجد والمجالس خالية من حرارة الفكر والرؤية وأن العلماء المتزمتين ليس لديهم حماس أو طموح للبداية الجديدة وأن كتب الروايات التي تُبني عليها فكر عامة الشيعة تحتاج إلي نقد وإ صلاح. وعلي جانب آخر ليس لديه مؤ سسة بديلة تقوم بتقديم برنامجه الثوري والإسلام المتحد إلي الأمام. فالمنهج الفقهي الذي تربي هو نفسه عليه وللخروج منه كان لعلمه الذاتي المتحضر دخل كبير ولم يكن ممكنا أن يبدأ بداية جديدة من دون التخلص من هذا المنهج لكن وللأسف سلم أمانة الثورة لحاملي نفس المنهج. لكن وهكذا وبعد اللف والدوران عدنا إلي نفس البوابة الفقهية القديمة. في إيران الجديدة لم يكن علماء الحوزة حراس المؤسسات الدينية فقط بل باعتبارهم زعماء ومر شدي الثورة كانت قيا دة المجتمع في أيديهم بالكامل والآن وبعدما نالت الأفكار التقليدية عناية من الحكومة بدأت تظهر وتثور القضايا القديمة بكل تفنن وزا دت حرارة مجالس النواح والعزاء والمآتم وتعالت علي شفاه الزائرين لمشهد وقم ألحان وأ صوات اضطها د أهل البيت فوقت الذهاب إلي مقبرة الفاطمة المعصومة كنت أتذكر كثيرا الروايات التي تنسب إلي جعفر الصا دق ومنها أن فاطمة مفوضة لشفاعة شيعتها فإنني كلما سمعت علي شفاه

الزائرين هناك مناجاة "يا فاطمة اشفعي لنا في الجنة" فأحسست وقتئذ بغربتي وهي أن شفاعة فاطمة مخصوصة لشيعتها فقط. الواقع أن حرارة الشيعة والسنة قائمة علي مخالفة الآخر بل المخاصمة كائنة بينهما علي رفض الآخر وهي فجوة لا يمكن تقليصها لأن الجسر يقام علي النهر الذي له شواطيء علي الجانبين أما هنا فيوجد بحر زاخر للخلافات التي لا نهاية لها.

أخي العزيز لا يُبني الجسر علي البحار. مع هذه الكلمة ربت علي كتفي وقام من مكانه وانتفض انتفاضة ثقيلة ثم قال: في هذه الأيام هناك كلام في الأوساط الفكرية الغربية عن تصادم الحضارات وهم لا يدرون أننا نحن كأمة معرضون لتصادم حضاري داخلي وهذا مرض مزمن. يا ليتنا لو كنا علي علم بأخطاره ولكن كم هم ساذجون مفكرونا الذين يحسبون أن الهتافات والنعرات النهضوية ستكون سببا في إزالة العصبيات والنفور فالجدار الذي يكون بنيانه مائلا لن يكون مقدرا له لمس السحاب. مع هذه الكلمة علق علي كودرا شنطته علي منكبه وألقي نظرة يأس وحسرة قائلا بلهجة ناصحة: أخي العزيز نحن قد وقعنا في وحل التاريخ المخيف والمليء بالأسرار. والآن لا جدوي من تحريك الأيدي والأرجل ثم رفع الترموس وبخطي سريعة بدأ يتقدم إلي حديقة الحصن.

كودرا! لحظة من فضلك اسمع. أردت أن أوقفه لكنه كان في دنيا الغضب وكان حانقا من التاريخ الذي تم تشويهه. أخذ كودرا الترموس الخاص به وحقيبته وانطلق لكنه ترك خلفه غبارا كثيفا من القنوط.

هل هذا صحيح حقا أن الخروج من أوحال التاريخ غير ممكن؟ هل الحرب الأهلية مكتوبة علي جبين الأمة الإسلامية للأبد؟ قبل ألف عام من الزمن وبالتحديد في القرنين الثالث والرابع من الهجرة أي من يوم ودعنا هويتنا النظرية المسلمة الحنفية واخترعنا لأنفسنا هويات لاإسلامية

ولاقرآنية مثل الشيعة والسنة والإسماعيلية والإباضية فمنذ ذلك اليوم أصبح الصراع الداخلي بل الحرب الأهلية مكتوبة علينا. متطرفو أهل السنة يحسبون الشيعة روافض وكفارا مستحقين للقتل في نظرهم وعلي جانب آخر أصبح الشيعة من خلال فهم التاريخ يحسبون سيدنا علي رضي الله عنه خليفة بلا منازع وو صيا للنبي صلي الله عليه و سلم فكيف يمكن تشكيل أمة واحدة مع وجود نظريتين متحاربتين. عقول العباقرة والمساعي المخلصة المبذولة لإصلاح الأحوال تلفظ أنفاسها في وحل التاريخ فقد جاء السيد علي عزت بيغوفيتش في لحظة تاريخية لجمع كلمة العالم الإسلامي وكان هذا هو وقت النهضة الإسلامية وكان هناك صوت و صدي لبزوغ فجر جديد للقرن الهجري الجديد فقد حاول بكل ما أوتي من قوة أن يشكل جسدا واحدا للأمة الإسلامية من الشيعة والسنة عن طريق رمز البوسنة لكن من أين للعالم الإسلامي أن ينهض فالتنافس غير الشريف بين إسلام الشيعة والسنة والمتصوفين والوهابيين جعل حلم البوسنة نفسه ضبابيا ففي ميدان الحرب كدنا أن ننتصر فيه لكن النفاق الداخلي والتنافس النظري البغيض جعلنا نخسر المعركة علي طاولة اتفاقية (دايتون) حيث أصبحت البوسنة إمارة يقودها ثلاثة رؤساء من الصرب والمسلمين والكروات وتم فعلا تشكيل مجلس للرؤساء الثلاثة وجاء من نصيب كل منهم رئاسة إمارة البوسنة لمدة ثمانية أشهر. إن السيد علي عزت بيغوفيتش وبدلا من أن يقدم للعالم الإسلامي حركة النهضة الحقيقة تعرض لنفاق الأهالي والأجانب وانزلقت قدماه من علي أرض البوسنة نفسها. إن الخميني قام بمبادرات غير عادية لتنقيح وتصحيح التاريخ ومهد الطريق للسير إلي الجانب الصحيح إذ اعترف بالخلفاء الثلاثة وجعل هذا العهد جزءا من تاريخ الاجتماع لكنه وللأسف لم ينل فريق الحكماء الذي يقوم بتوصيل هذه الرؤية الحديثة للتاريخ إلي

مصيره المنطقي ومن ثم يُخرج الأمة من وحل التاريخ وكم هو قاس وحل هذا التاريخ إذ أنه كلما يبدأ سعي للخروج من هذا الوحل يتولد مزيد من اليأس فهل الحقيقة هي هذا الواقع أي أنه لا يمكن أن يتنازل أهل السنة عن سنيتهم والشيعة عن تشيعهم وهل فعلا ليس بالإمكان أن يصبح الإسلام المجمع والمتفق عليه هو إسلام الجميع الذي كان سائدا قبل القرن السادس وكان رمزا للوحدة الإسلامية؟ لكن كيف يصبح كل هذا واقعا؟ كل سؤال يولد أسئلة جديدة وانزعجت من طابور طويل لهذه الأسئلة. يا ليتني كنت عالم دين وفقيه عصر ومفتي الزمان وفي نفس الوقت لو كنت أعرف الردود عن كل الأسئلة أو يكون لدي مهارة لمعرفة الرد علي الأسئلة من تصفح كتب التراث ووقتئذ غضبت من نفسي علي قلة زادي من العلم ثم اطمأن قلبي قليلا بعدما فكرت في أنه إذا ما لم نتمسك بحبل الله المتين بأيدينا فإن كل هذه الدفاتر من القيل والقال التي نرثها من جيل وراء جيل لن تنقذنا من هذا الوحل النظري المخيف. وعلي رأي شاعر المشرق محمد إقبال: ما لم ينزل علي قلبك هذا الكتاب فلا أنت حلال العقد ولا أنت الرازي ولا الكشاف.

الفصل الخامس

الكأس النوراني

مساء اليوم كانت في بوريل حركة غير عادية. عدد كبير من أعيان البلد والمشاركين المحليين كانوا منسجمين في الكلام في شكل مجموعات صغيرة حول "كوكتيل" التعارف. وكانت قد جاءت من ألمانيا فرقة المغنيين لتقديم أوبريت منظوم وكانت الإشاعة بلغت أشدها أن سكان القلعة القدماء سيعودون إلي الحياة مرة أخري مع أمجادهم وأبهتهم الأسطورية. والقاعة الليلة كانت قد زُينت بشكل يُخيل إلي الناس كأنها مجلس من مجالس العرب في القرون الوسطي. وإلي الآن كانت اللوحات المختلفة المعروضة علي جدران كاسيل تحاول أن تعبر بالمشاهدين إلي الماضي كي يشاهدوا بأنفسهم كيف كان أصحاب هذه القلعة يعيشون فيها والآن كان الماضي قد ظهر بكل بهائه ورونقه وأخذت أنا مكاني حول منضدة طويلة في وسط المجلس المفروش. وعلي الجانب الآخر من المنضدة كان قد جلس أعضاء الفرقة الأوبرالية في عباءات مزركشة ومزينة علي طريقة العباءات العربية وواحد منهم كان يحمل في يده رمحا والآخر كانت في يده عصا طويلة وكانت علي وجوههم نضارة كأنهم خارجون لأداء مهمة في الحال بكل نشاط وحيوية وعزيمة. فجأة انطفأ نور القاعة وخيم الظلام إلا أن المصابيح المعلقة علي الجدران أشعرت الناس بوجودها بعد أن بدأت الشموع تعطي ضوءا خافتا. وفي

نفس الوقت عزف شخص لحن الموسيقي المنتشية وانضم هذا اللحن مع لحن آخر فتحولت الموسيقي إلي سيمفونية ساحرة. وكان "ميها بوجنك" ممسكا بمزمار في ذلك الوقت وكأنه من القرون الوسطي وبدلا من الآلات الموسيقية الإلكترونية فاليوم قدم باستخدام مزماره جوا بدأ أهل المجلس يحسون معه أنهم انتقلوا إلي عصر فيشر كينج ثم قام واحد من الفرقة الأوبرالية الموسيقية يمسك بيديه كأسا مذهبا وطاف أولا حول المنضدة وهو يحمل الكأس ثم صرخ بحرقة وتساءل بأسلوب متألم قائلا: "أيها الناس هل سمعتم ذلك النداء؟ والآن اشكروا الله إذ جعلكم مستحقين لهذا النداء"

ثم بشيء من السرعة وضع الكأس النوراني في وسط المنضدة الطويلة وفي نفس التو واللحظة بدأ مغنو الحفلة بتقديم الأبيات الافتتاحية للملحمة علي لحن العود لكن ما أن مرت لحظات علي بداية الحفل حتي جاء مطرب آخر واضعا علي عباءته شالا مزركشا مذهبا ذو نجوم. جاء في وسط المنضدة وقال رافعا الكأس النوراني إلي منكبه بكل إجلال وتقدير: "استيقظوا أيها الناس فقد طلع الفجر". وبمجرد رفعه لهذا النداء أضيئت الأنوار الكهربائية ومن إحدي زوايا القاعة ظهر ميها بوجنك لكن هذه المرة حاملا الميكروفون اليدوي بدلا من المزمار وقال: "أيها السادة الحضور لقد مر حوالي ألف عام من الزمن علي وفاة بارسي فال وفيشر كينج لكنني كلما آتي إلي كاسل بول يُخيل إلي كأنه حديث أمس. الدنيا كانت علي معرفة بالملك آرثر أم لم تكن لكننا أهل سلوفينيا علي معرفة جيدة بكاسل بورل لبارسي فال. وجودي هنا في مساء هذا اليوم تسلسل تاريخي حيث اختلط التاريخ بالأسطورة. يقال أن أخوين لبارسي فال كانا قد قتلا من قبل في الحرب وحاولت الأم جاهدة حيث قامت بتدابير وحيل عديدة كي يكون بارسي فال بعيدا عن فوضي الدنيا

ومعاركها من الحرب والقتال وبدأ يتربي منذ الطفولة تحت رقابة خاصة لأمه في الصحراء بعيدا عن مشاغل الدنيا ولم يكن مسموحا له أن يتساءل لأن كل سؤال يولد أسئلة عديدة وكان الخوف كل الخوف أن يسلك بارسي فال الصغير طرق الصحاري والجبال بحثا عن إجابة الأسئلة لكن في النهاية حدث ما كانت أمه خائفة منه. ذات يوم قابل مقاتلا في الصحراء كان قد خرج مدججا بالسلاح علي حصان لإنجاز مهمة ما. يُقال أن أسلوب حياة الفروسية هذه أعجب به بارسي فال وعرف لأول مرة أن هناك أهدافا سامية في الحياة وللوصول إليها لا بد من التعرض للأخطار ويُقال أيضا أنه ذات مساء وبينما يستعد لعبور جسر قابل صيادين للسمك وقد دعاه هذان الصيادان لقضاء ليلة عندهما. حينما دخل بارسي فال مع مضيفيه في كاسل بوريل عرف أن مضيفه ليس شخصا عاديا بل هو صاحب كاسل فيشر كينج وفي الجلسة المسائية عندما زُين البلاط الملكي في كاسيل استغرب بارسي فال بعدما علم أن ساقي فيشر كينج يعانيان من جرح عميق ويتقطر الدم منهما باستمرار وكان يشعر في كل لحظة بالألم الشديد مما يجعله هذا الألم في غاية الاضطراب وذات مساء عندما فرغ من العشاء كان جالسا إذ رأي موكبا مكونا من أفراد مقدسين كالملائكة يدخلون البلاط الملكي بكل عظمة وهيبة وأمام هذا الموكب كان يتواجد شخص يحمل كأسا نورانيا وشخص آخر وراءه يحمل رمحا للدفاع عن الأول وعلي أسنة الرمح كانت توجد قطرات من الدم الطازج ولعل الكأس النوراني كان يحوي أيضا كمية قليلة من الدم مثل مشروب الشاي الأخير لسيدنا عيسي عليه السلام وبدأ يلف هذا الكأس النوراني علي أهل المجلس لفترة طويلة ولم يستطع بارسي فال إدراك فحوي ما يجري أمامه ولم يعرف من هؤلاء وما ماهية هذا الكأس وما سبب هذا النزيف من فيشر كينج وأيضا لم يعرف ما سبب تقلبه واضطرابه؟ وبما أنه

لم يكن ماهرا في فن إثارة الأسئلة ولهذا ظل عاجزا عن السؤال رغم توجساته وهواجسه وانقضي الليل هكذا في التردد والارتياب وفي اليوم التالي وعندما استيقظ من النوم كانت الدنيا قد تغيرت ففي القلعة الخربة لم يكن هناك إنسان ولا حيوان وقد نادي مضيفه كثيرا وبحث عنه في كل ركن من أركان الحصن لكن صدي صوته كان يعود إليه بعد أن يصطدم بسور القلعة وخرج عاجزا من القلعة واتجه نحو الصحراء حيث وجد امرأة كانت تنوح وسألت بارسي فال عن الكأس النوراني والموكب وعندما تحدث بارسي فال عن الموكب وتواجد الكأس ليلة أمس في القلعة غضبت غضبا شديدا وأحست بحزن شديد وقالت: يا ليتك لو حاولت معرفة ما بالكأس النوراني. في حقيقة الأمر كان في الكأس علاج لجرح فيشر كينج وهذا هو الشواء المقدس الذي جعل الناس في حيرة وهم هائمون منذ قرون. يا ليتك كنت تتمتع بمهارة إثارة الأسئلة. إنك بعدم سؤالك ضيعت فرصة نادرة وذهبية.

بعدما سمع ميها بوجنك هذه الحكاية سكت برهة ثم قال: اليوم وبعد مرور ألف عام علي هذه الواقعة هل نجد في أنفسنا الجرأة للسؤال الصريح؟ السؤال الذي يضع علي أسلوب تفكيرك علامة استفهامية. إثارة السؤال ليست لعبة أطفال بل هي جرأة تضع الكون كله في حراك واحد علي طاولة التحليل والتجزئة وهي نفسها حينما تجد أناسا أصحاب عقل مستنير وحي فبتوفيق من الله تمنحهم النبوة.

وبعد تعارف قصير رُفعت جلسة القاعة الليلية والسادة الحضور قد خرجوا من القاعة لتناول الشاي ولديهم نظرات التوجس والاستكشاف. أثناء تناول الشاي بدأت تبحث نظراتي عن علي كودرا. لكن لم نجد كودرا وواجهت مارلين التي جاءت نحوي بخطي سريعة وقالت بقدر من الصدح والتغني: يا دكتور شاز! ما هذه القصة؟ وأي لغز هذا الذي تركز

عليه في خطبك عن ترتيب وتنسيق الأسئلة وتشجيع الناس علي إثارة الأسئلة فما علاقتها بحكاية بارسي فال؟ والآن وبعدما فكرت في كلامك عن خلفية بارسي فال وجدت فيها علاقة محيرة وسرية للغاية.

قلت إن إثارة الأسئلة في جبلة الإنسان وإنك بكل تأكيد تشعرين أن الأستاذ حينما يسأل الأطفال في المدرسة قائلا: هل لأحد منكم أي سؤال فإن معظم التلاميذ يخفون أسئلتهم لأنهم لا يريدون أن يكونوا محور اهتمام الفصل كله ولعلهم يقدرون بشكل غير شعوري أنه لو خرج من نبالهم مرة فلن تكون السيطرة عليه سهلة ولهذا يفضل الأطفال السكوت وفي داخلهم ينزف جرح الأسئلة باستمرار. ألم تقرأي في الإنجيل كلام السيد المسيح عليه السلام: اسأل ستُمنح. ابحث ستجد. اطرق الباب سيفتح لك. لكن هذا بشأن الدعاء وبدون الدعاء لا تفتح أبواب الهداية.

ما لم تكن هناك رغبة صادقة ولو لم تكن لدي الفرد جرأة للسؤال لن نستطيع الوصول إلي الرد الصحيح والحقيقي فجميع كتب الدين والصحف السماوية تعلم الإنسان بصفة أساسية فن السؤال وإتقانه. لو أقيم السؤال بجميع أبعاده مرة فهذا يؤدي بنفسه إلي جهة الرد الصائب بشرط أن يظل القلب والعقل معلقين بهذا العمل.

حديثنا لم يزل جاريا إذ نعق البوق فجأة خارج كاسيل وفي كل لحظة تلو الأخري بدأ صوت البوق يزداد شدة. كان يبدو كأن جيشا من القرون الوسطي يرحل في ظلام الليل الدامس. توجهنا نحو الخضرة خارج كاسيل وبين الأشجار حيث كانت مساحة كبيرة إلي حد ما وحيث كانت قد أقيمت هناك شاشة كبيرة وعن طريق الأشعة الملونة لليزر كانت توجد طلاسم بيئة سرية وجذابة تحت السماء المفتوحة في ظلام الليل. وفرق موسيقية كثيرة كانت قد أخذت مكانها بعيدا بين

الأشجار. في بداية الأمر ظل صوت البوق مستمرا لبعض الوقت وأشعة الليزر ظلت تخدع الأنظار ثم في ظلام الليل الدامس سُمع صوت متألم كأنه شخصا جريحا يصرخ الصرخة الأخيرة بعد أن أصابه اليأس من الحياة ثم بدأ علي الشاشة بزوغ الفجر وذهاب ظلام الليل وخارج القلعة القديمة ذات الأسطورة سُمع وقع حوافر الأحصنة وشُوهد الجنود المزودين بسلاح الحرب وكانوا مشغولين في الحديث مع بارسي فال والمناظر بدأت تتغير وتتبدل إلي أن لوثت عين راهب فتاة مشغولة في العبادة فبمجرد أن وقعت عين الراهب علي الفتاة بدا وكأن الراهب قد جُرح جرحا شديدا في داخله وألمت به حالة ألم وكرب شديد إذ لم تكن تتوقف صرخات الراهب وبدأ في حالة الاضطراب هذه يتضرع إلي الله كي يعفو عما بدر منه من ذنب وبدأ شعور الألم يزداد في كل لحظة وحاول تلامذته معالجته وبذلوا في سبيل ذلك جهودا جبارة حتي المرهم الذي أحضر من جزيرة العرب لم يخفف آلامهم وأصبح الألم المستمر جزءا من حياته ليلا ونهارا.

وباستخدام أشعة الليزر حينما كان يذهب طلوع الفجر فكان يبدو للمشاهدين كأنه فعلا الحقيقي وفي بعض الأحيان كانت خلفية الشاشة تنقل الناس إلي بيئة القرون الوسطي في شكل المشاهد الحية والحوار المؤثر والصرخات المتألمة وفجأة أري أن شخصا عربيا يظهر أمام الناس مرتديا الملابس العربية الأنيقة ووراءه تلاميذه وأنصاره وعدد كبير من البلاط الملكي منتظرون له وهم رهن إشارته. هذا هو فيشر كينج يؤلمه إحساسه بالذنب. يُقال أن ساقيه قد أصابهما الجرح بالرمح المقدس الذي كان قد أعطاه له الرب كي يحافظ علي الشواء المقدس. لمدة ثلاث ساعات استمرت ملحمة بارسي فال هذه في الصحراء باستخدام التقنية الفنية عالية الجودة ذات البيئة المليئة بالسرية حتي خُيل إلي الحضور

أنهم يعيشون في بيئة القرون الوسطي. إن التكنولوجيا الحديثة للسينما وظلمة الليل الحقيقي للصحراء كانتا قد شكلتا بيئة مؤثرة بحيث يخيل إلي الناس أن هذه التمثيلية حقيقية. فتارة كانت تقدم أغاني الفناء وتارة أغنية تقول كلماتها أن الوعد الرباني مازال قائما للتائبين علي أن يتغمدهم برحمته فلا حاجة للخوف من جهنم أو من الموت. "ليس لدي أدني خوف من الجحيم والموت. هذا بأن ربي دائما قريب. يا إلهي يا إلهي**!**"

المنظر الأخير كان موجعا للقلب إلا أنه كان فيه عظة وعبرة حيث ترك في الختام أسئلة كثيرة تحتاج إلي إجابة. ويدخل فيشر كينج مع موكب أصحابه في زاوية مظلمة حيث يُري ذاك الشواء المقدس المغطي بغلاف مزركش غال وبارسي فال كان يحمل بيده الرمح المقدس والفيلم يؤكد للمشاهدين بأساليب متعددة أن علاج نزيف فيشر كينج يمكن أن يطيب بهذا الرمح المقدس الذي جرحه لأن ندبات وآثار الذنوب تكفر بالعفو والصفح.

لكن فيشر كينج ذو إحساس مفرط ويائس من الحياة وطالب للموت وعلي الرغم من هذا ليس لديه أدني تقدير لوجود الكأس وليس لديه إحساس بأنه هو الذي يحمل هذا الرمح المقدس وهو حارس لهذا الكأس النوراني وهو نفس الكأس الذي يتمناه الناس ويجوبون باحثين عنه حول الجبال والوديان والصحاري وعدد من قطرات دمه المقدس الموجود في الكأس يستطيع أيضا علاج القرح الأزلي في لمح البصر والحضور في حيرة شديدة يسألون أنفسهم ماذا حدث لفيشر كينج وهو يرسل خدامه إلي كل حدب وصوب للبحث عن المراهم والأدوية فلماذا لا يوفق اليوم ليرفع الغلاف المزركش من علي الكأس النوراني. في هذه الخلفية يظهر شخص باكيا ويقول أيها الناس لماذا لا ترفعون غلاف هذا الكأس المضيء؟ ما الذي أبعدكم عن فعل هذا العمل؟ وفي

أثناء انتظار الرد علي هذا السؤال يظل الصمت قائما لثوان ثم يغشي الحضور الظلام. يبدو وكأن شخصا ما قد قام بإطفاء الشمعة المضيئة في الزاوية ووقتئذ وفي الظلام الدامس يُخبر الحضور في صورة نداء غيبي أن هذا الكأس يحيطه حراس ملوثون بالذنوب فالذين كانوا محافظين علي الآثار المقدسة هم أنفسهم قد أصبحوا مخفقين، أرواحهم مجروحة ومبتلون بعذاب دائم فهم يريدون أن يعالج عدد من قطرات الدم المقدس جراحهم لكن الإخفاق الأزلي أصبح مكتوبا عليهم.

بعد ثوان بدأ يظهر علي الشاشة منظر الضوء الخافت وجاء بارسي فال وفي يده الرمح المقدس. ألقي نظرة حيرة واندهاش علي الحضور ثم دخل المحيط في ظلام دامس ومع صراخ مرير انطفأت أشعة الليزر فجأة وبدا لنا كأننا عدنا إلي أرض الواقع بكاسيل بورل من القرون الوسطي من جديد.

ومع التصفيق الحاد انتهت التمثيلية وكان قد اعترت الحضور حالة عجيبة. قطعوا مسافات قرون في لمح البصر ثم عادوا إلي الأرض الحقيقية. تجربة عجيبة وغريبة حقا. وساد شعور أن التمثيلية مبنية علي شخصيات حقيقية وكذلك الطلاسم المصطنعة تجعل الحضور يعتقدون أنها حقيقية. لم أمر بمثل هذه التجربة من قبل مطلقا ولعل ذلك بسبب جدران بورل والغابة التابعة لها حيث كانت الأشجار والأحجار قد تناسقت في جنح الليل مع هذه الشخصيات بالإضافة إلي تقديم الشخصيات بالملابس الشرقية. وإدارة الحوار بأسلوب قديم ملحمي ثم الإقامة في كاسيل بورل لمدة ثلاثة أو أربعة أيام فكل هذه الأمور صبغت التمثيلية بصبغة الحقيقة.

بدأ الناس بالقيام من أماكنهم وبعضهم مازال في دهشة. وجه واحد منهم إلي سؤالا ربما ناظرا إلي شكلي وهيئتي الشرقية "كيف بدا لك هذا التمثيل؟ وما هي انطباعاتك؟"

قلت: كان طلسما وانتهي وكان مؤثرا جدا وخارجا عن الوصف وإن كانت اللغة تمثل عائقا إلي حد ما. قال: نعم، فاللغة الألمانية القديمة أصبحت نادرة وقليل من الناس يعرفونها الآن والترجمة الميكروفونية كانت أيضا تخلق خللا في الاستمتاع. هل سمعت من قبل هذه الأوبرا المنظومة؟ أردت أن أعرف سبب اهتمامه العميق بهذا الأوبريت.

قال: بالنسبة لنا ملحمة بارسي فال مبعث فخر قومي مثله مثل شكسبير للإنجليز ودانتي للإيطاليين كذلك فإن بارسي فال يمثل لنا علامة البحث والتمحيص.

فهل تقطن هنا في لاهاي؟ لا إنني أسكن في ليوبليانا وأدرس هناك مادة مقارنة الأديان. لقد جئنا هنا بصفة خاصة من ليوليانا لمشاهدة هذا الأوبريت.

فكرت لماذا لا أسأل بشأن الكأس النوراني بصفتي طالب علم للأديان يبحث عنه العالم المسيحي منذ فترة طويلة مما جعله لمختلف الأدباء والفنانين موضوعهم من الدرجة الأولي.

ما رأيك في هذا الشأن؟ أي شيء يمنع فيشر كينج من رفع الغطاء من علي الكأس؟ ما هذه المأساة فالشيء الذي يبحث عنه العالم المسيحي منذ قرون بكل عزيمة وهمة ويأتي إليه ويمر بالقرب منه ثم يبتعد دون أن يستطيع الإمساك به؟

قال: في أوبرا اليوم كان المنظر الأخير مختلفا عن القصة الأصلية فهذا الجزء من الملحمة قد رتبه أناس مختلفون فيما رأوه صوابا بأساليب مختلفة فالملحمة الأصلية التي كتبها فنان القرن الثاني عشر وولفرن ون

ايشن باخ وقدم فيها بارسي فال وهو تائه في البحث عن الشواء المقدس. وفي القرن التاسع عشر حاول ريتشارد ويكنر ترتيب هذه الملحمة بأسلوبه الخاص وبعض المصنفين قاموا بإيصال هذه الملحمة إلي مصير منطقي حيث جاء الكلام عن موضوع البحث عن الشواء المقدس ومحاولة معالجة جرح فيشر كينج الذي ينزف دما ولكن النهاية التي شاهدناها اليوم ربما كانت قريبة من ظروفنا وهي أننا رغم الآلام والمصائب غير موفقين في الرجوع إلي الكأس النوراني.

كانت الساعة قد دقت الثانية صباحا فاستأذنت البروفيسور لينارت بريووك وبدا منظر الكأس يدور في عيني مرة تلو الأخري لأن البصيرة حينما تسلب فالبصر وحده لا يكفي. ربما الآية القرآنية "أفلا يتدبرون القرآن أم علي قلوب أقفالها" تشير إلي هذه الحالة. ففي العالم المسيحي هناك مأتم علي فقدان الكأس النوراني فإن أهل البصيرة منهم قاموا برفع الغطاء المزركش فلم يحصلوا سوي علي الحرمان واليأس لكن علي العكس من هذا فالشواء المقدس الخاص بنا نحن المسلمين وهو الوحي الرباني مازال موجودا بإشراقاته الكاملة تحت الغطاء فلم لا نجد في داخلنا الجرأة لرفع الغطاء المزخرف؟

كم هناك تشابه بين جرح فيشر كينج الذي ينزف دما باستمرار ويتألم منه وبين أفكارنا النظرية الجامدة؟ فأهل العلم عندنا الذين كانوا في يوم من الأيام رعاة وحراس لهذا الكأس النوراني (الوحي الرباني) هم أنفسهم قاموا ببناء أسوار حوله من الآثار والروايات والفقه والتأويلات التي لا يمكن اجتيازها. وجودنا كأمة تنزف دما منذ قرون بسبب الجرح الداخلي للانقسام ونحن نجرب المراهم المختلفة كمساع مصطنعة لوحدة الأمة لكننا للأسف نخفق في رفع الغطاء المزخرف من علي الكأس النوراني والنتيجة هي كأن الحرمان من تجليات الوحي الرباني

أ صبح مكتوبا علينا. كل منا قلق ومضطرب من هذه الظروف لكننا نخاف من السؤال كبار سي فال لأنه لا سمح الله لو خرجت وانطلقت الأ سئلة مرة واحدة من عتبات الفكر التقليدي فإنه من الممكن جدا أن تحدث نفيرا داخلنا.

الفصل السادس

سجناء التاريخ

ظللت متخبطا طوال الليل في مثل هذه الأفكار ومنظر الكأس النوراني لم يغب عن نظري وكانت تبدو أسوار وأبواب بوريل وكأنها تدعوني لرفع الغطاء المزخرف مرة تلو الأخري. وحاولت أن أقنع نفسي كثيرا بأنني بارسي فال الوقت الحالي ثم ما علاقتي بهذه الملحمة.

لم أكن قد استقرقت في النوم إذ بدأ يظهر منظر الحراس المعممين ذوي القداسة الموجودين حول الكأس النوراني. رأيت نفسي كأنني في أحلام اليقظة. يا إلهي ما هذه القصة؟ أري علي المصطبة الحجرية المرتفعة غطاء مزخرفا وفي داخله كأس علي هيئة كتاب وهو كأنه كتاب مقدس موضوع في حافظة حريرية وموجود في محراب مرتفع وحوله هؤلاء المعينين للحفاظ عليه وإذ بسور الآثار والروايات والفقه والتأويلات حول المحراب يزداد ارتفاعا باستمرار فالتاريخ والروايات والتأويلات الإسلامية وكذلك الأساطير الأوروبية النصرانية بدأت تختلط مع بعضها البعض فأصبح التخلص منها مستحيلا بالنسبة لي.

مساء هذا اليوم لا أدري لماذا كان يبدو لي أن جدران وأبواب القلعة تتحدث معي كأن التاريخ القديم الممتد لألف سنة قد عادت إليه الحياة من جديد ولا أدري متي غشيني النوم مع الغفلة واليقظة والخوف والوساوس. وحينما استيقظت رأيت نفس بورل القديم موجودا أمامي

وأشعة الشمس الجديدة كانت قد أزالت غطاء السرية من البيئة الأسطورية الليلية لبورل. لم يكن هنا الآن أي بارسي فال ولا وجود لأي فيشر كينج.

الناس كانوا يعدون أنفسهم للبرنامج القادم للمؤتمر وبمجرد أن خرجت من الغرفة أخبرني شخص أن السيد علي كودرا مريض جدا تعتريه تشنجات والدكتورة "بيا" كانت تبحث عنك أثناء الإفطار وكانت قلقة ومنزعجة للغاية. بعدما سمعت هذا الكلام أصبحت أيضا قلقا جدا وتذكرت سهري وعرقي وكذلك تذكرت مشاهد عجز عيني الساهرتين إذ لم أستطع رفع الغطاء المزخرف رغم بذل كل ما في وسعي لذلك ثم تذكرت أن علي كودرا لم يكن قد شوهد مساء أمس وقت عودتنا من البرنامج ولا أدري الآن في أي حال هو ولذلك انطلقت نحو غرفته بخطي سريعة. وفي الدور الأرضي لغرفته كان هناك تجمع للناس. دخلت في غرفته فماذا رأيت. رأيت شخصين أو ثلاثة يمسكونه من عضده ورجله وهو مربوط بالسرير لأنه يحاول باستمرار وبكل ما أوتي من قوة أن يقوم من السرير ويظهر أنه مستعد لاستخدام العنف وهو يقول: "اتركوني فإن حرب نهروان وكذلك حرب صفين لم تنته بعد ومازال في صفوفنا مثل هؤلاء الناس. اللهم عجل لوليك الفرج". وعلي الكرسي المقابل له تجلس الدكتورة بيا التي تحاول إقناعه أن الشياطين قد رحلوا من بورل والحرب قد انتهت في البوسنة واستتب هناك الأمن والأمان.

بعدما رأتني الدكتورة بيا تنفست الصعداء ومن أني لها أن تفهم ماهية حرب النهروان وحرب صفين وهي في الواقع كانت تعتقد أنها من الجروح النفسية لحرب البوسنة فأرادت تضميدها. وبعدما رآني علي كودرا بدأ يفتر وتخبو همته.

يا كودرا مهما تكن حرب نهروان وكذلك حرب صفين مشتعلة في كل جانب فلم لا يري أهل الفكر والرأي مشاهد "كل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء" ولماذا تنسي هذه المقولة "إن استشهاد الحسين في الأصل موت يزيد فالإسلام ينهض ويعود إلي الحياة من جديد بعد كل كربلاء".

بعد سماع هذا الكلام حدق إلي علي كودرا كأنه يسعي للتعرف علي ثم قال بلهجة شديدة: "مادام أهل عمر موجودين في هذه الدنيا فبيت فاطمة غير محفوظ وليس هناك سبب ليتنفس أهل علي الصعداء".

يا كودرا إن أفضلية علي رضي الله عنه راسخة في قلوب أهل الإسلام منذ قرون سواء أكانوا منتسبين إلي الشيعة أم إلي السنة فكلهم يحتفون حسب أساليبهم علي الملأ أن عليا رضي الله عنه يحتل الدرجة الأولي.

قال: إنني لا أقبل ذلك فكل هذه الأمور للتسلية فقط لأن عليا وعمر سيفان لا يمكنهما أن يجتمعا في غمد واحد.

يا كودرا مثلما لا يكتمل تاريخ الإسلام بدون علي كذلك يكون ناقصا أيضا بغير عمر. عليك أن تفكر بنفسك أن من لا يكون لديه عمر فماذا بقي له واعلم أن قصة الحياة قد انتهت.

بسماع هذه المقولة ومضت عين علي كودرا وارتسمت علي شفاهه ابتسامة مبهمة وأرخي نفسه وبدأ ينظر إلي اللوحة المعلقة علي الحائط بصمت وهي لوحة حصان من غير فارس وظن أنه حصان بارسي فال ذو الجناح فاضطربت عواطفه فجأة وأراد أن ينهض من السرير بكل قوته لكن الناس أمسكوه فألقي نفسه علي السرير بهزة عنيفة وبدأ يردد دعاء الفرج بصوت روحاني مؤثر ولفترة قصيرة بدأ يصلي ويسلم علي آل محمد صلي الله عليه وسلم وهو مغمض العينين ثم قال ناظرا إلي مع

ابتسامة خفيفة: هل تعلم أنه قريبا سيأتي ربما مساء الثلاثاء القادم يكون قد ظهر في مسجد "جمكران" ولا خير بعد الآن لأعداء أهل البيت.

يا كودرا هذا خبر جيد لكن أين يوجد أعداء أهل البيت الآن. لقد طوي بساط الخلافة الأموية وكذلك الخلافة العباسية والآن جميع الحكومات القائمة في العالم الإسلامي سواء كانت سنية أو شيعية أو سلفية أو بريلوية كل هذه الحكومات المختلفة تمدح السيدة فاطمة رضي الله عنها صباحا ومساء. ومساجدها يدوي فيها فضائل الخلفاء الخمسة وتجد خطبهم يوم الجمعة لا تخلو من ذكر أن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة والحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ولا تصح صلواتهم من غير قراءة الصلاة والسلام علي آل محمد صلي الله عليه وسلم. إذن فأين أعداء أهل البيت الآن؟

أثبت كلامي هذا لعلي كودرا شافيا وبدأت تهدأ ثورته وحدته في الخطاب شيئا فشيئا وربما بدأت الأدوية المسكنة أيضا تؤتي ثمارها ولبرهة بدأ يسمع كلامي وهو مغمض العينين ثم استغرق في النوم. وكان من تعليمات الدكتورة بيا أن يكون واحد أو اثنان موجودين معه باستمرار وتُفك ساقيه المربوطتين كي يجد نفسه في حالة جيدة بعد الاستيقاظ.

مع قصة نهروان و صفين التي جعلت عواطف علي ومشاعله تشتعل إلي هذا الحد؟ أثارت الدكتورة "بيا" هذه القضية اللامرضية بعدما اطمأنت أن الحالة أصبحت تحت السيطرة.

هما من الأماكن التاريخية حيث اشتبكت السيوف فيما بينها بسبب حدوث الخلافات البينية.

إلي أي زمن ترجع هذه الواقعة؟

مرت عليهما حوالي أربعة عشر قرنا من الزمان.

قديمة لهذا الحد؟ فلماذا جعلت هذه الأمور علي كودرا قلقا لهذا الحد؟

كل طائفة تعبر عن هذه الوقائع التاريخية حسب أهوائها. حاولت أن أفهمها.

لكن مثل هذه الأمور لا تقتصر علي المسلمين فقط فجميع أصحاب الأديان والمذاهب أسري لتعبيراتهم وتوجيهاتهم لمثل هذه الحوادث والوقائع التاريخية. علي سبيل المثال لا الحصر خذ النصرانية التي يطلق عليها في لغة أهل العلم (Pauline Christianity) أي النصرانية التي بناها باول هو نفسه باول الذي كان في وقت من الأوقات من أشد المعارضين للسيد المسيح عليه السلام. فقد تشرف أثناء سفره لدمشق أن يتحدث معه فحولت هذه الواقعة باول من معارض إلي مؤيد كبير له وداعية ومبلغا لما جاء به بل يمكنك أن تقول أنه أصبح معمارا عظيما للمسيحية فملفوظاته وأقواله ورسائله الآن تحتل جزءا كبيرا من الإنجيل. باول هذا الذي هو محطة كبيرة لتاريخ المسيحية حصل علي أهمية كبيرة إلي حد أنه لو تم إبعاده من المسيحية لانهارت العمارة النصرانية تماما. ونفس الشيء ينطبق علي اليهودية الحاخامية وأساسها بدلا من أن يكون مبنيا علي التوراة فهي قائمة علي تأويلات المفسرين للتلمود.

لكننا نحسبها تاريخا وننظر إليها باعتبارها تاريخا لا أكثر ولا أقل ولعل هذا هو السبب أن المجتمع النصراني لا تثيره ولا تحركه بهذه الشدة المؤشرات الدينية ثم إن الوقائع والحوادث التاريخية عندنا دائما ما تكون معرضة للنقد والبحث. ففي عام ١٩٤٨م اسكرول الحلزوني والذي كان قد عثر عليه في البحر الميت أثر علي الفهم التقليدي للإنجيل تأثيرا كبيرا. وهذا الذي تسمعه أحيانا أن السيد المسيح كان متزوجا حسب

تحقيق بعض الدارسين من "ماري ماجدلين" وأنه لم يمت علي الصليب بل تم إنزاله من الصليب يوم موته احتراما ليوم السبت ثم ظل ناشطا في مختلف بقاع الأرض لنشر رسالته. وهناك بعض الدارسين قد أشاروا بأن قبره موجود في كشمير.

أرادت الدكتورة "بيا" أن تشرح موقفها مشفوعا بالأدلة والبراهين.

نعم، حديثك صحيح إلي حد ما لكن لا تنسي أننا لا نستطيع أن نهزم تاريخا بتاريخ مقابل كذلك نحن بعد الخروج من سحر التاريخ نصبح أسري لتاريخ وضعي آخر.

فما هو العلاج لهذه الحالة لديك؟ وما هو السبيل للخروج من سراب التاريخ؟ أرادت الدكتورة مناقشة هذا الموضوع.

لا سبيل لذلك إلا بأن يتم استخدام مصدر ومرجع أكثر استنادا واعتبارا في التاريخ أي المرجع الذي يكون خاليا من البيانات المتناقضة والمناقشات المتحاربة وتكون جميع الفرق والطوائف متفقة علي صدقه. أنا لا أستطيع أن أقول شيئا بشأن المسيحية لأن لديهم أربعة أناجيل وهي مرقص ومتي ولوقا والرابع هو إنجيل يوحنا. فأما الثلاثة الأولي فلها موقف موحد وأما الرابع فهو يقدم وجهة نظر مغايرة. أما نحن المسلمون فمقاربتنا نحو الوحي الرباني مختلفة تماما وهنا كل المذاهب والفرق الإسلامية متفقة علي أن القرآن الكريم هو الكتاب الذي لا ريب فيه ولهذا ففي مقدورنا أن نقوم بطعن وتعديل ونقد التاريخ بكل شجاعة وجرأة بدلا من أن نطلع علي التاريخ كعقيدة أو أن نصبح أسري لهذا التاريخ. وفي عملنا هذا يكون ميزان العدل ومقياس الحق هو الوحي الرباني.

لكن عندكم أيضا يوجد نظام شامل للإسلام الفقهي أو المولوي مثل اليهودية الحاخامية والمسيحية الباولينية.

نعم هذا هو ما نأسف عليه ولكنك ستندهشين بعدما تعرفين أن الإسلام يعتبر التأويلات والتفسيرات الحاخامية نوعا من الأسر والأغلال ويقول عن رسول الله محمد صلي الله عليه وسلم بأنه جاء لكي يضع عنهم إثرهم وينجيهم من عبودية القيادة الدينية وبألفاظ القرآن الكريم "ويضع عنهم إثرهم والأغلال التي كانت عليهم". وربما أنت علي معرفة بأنه لا وجود في الإسلام لأي كنسي أو بابا والعبد يستطيع إقامة علاقته مع الرب بدون واسطة وهذه هي حرية الفكر والرأي التي يمنحها الإسلام لمعتنقيه.

حقا؟ إذن المطلوب أن يكون لديكم جو مفتوح ونقي. ثم ما هذه القصة أن الحوادث مثل نهروان و صفين قد عينت رقباء علي حياتكم الاجتماعية إلي الآن؟

كان تساؤل الدكتورة بيا حادا ومباشرا كأنها تقصد مضايقتي.

ماذا أقول. الرد علي هذا السؤال سهل جدا لدرجة الإيذاء وفي نفس الوقت صعب بنفس القدر.

ماذا تعني؟ بدأت تنظر إلي باندهاش.

نعم الشيء الذي يكون موجودا أمامنا ويكون جزءا من مشاهداتنا العامة فلن يحظي بالقبول لعدم مصداقيته حتي وإن أصبح إن أصبح شيئا عاما فالإيمان واليقين بوجوده يصبح أمرا صعبا علي أن هذا الأمر الصحيح يمكن أن يكون مبنيا علي الصدق بهذا الحد وخال من التعقيدات العقلية وواضح كل الوضوح مثل اثنين زائد اثنين يساوي أربعة.

لم أفهم شيئا.

إن الأمر الواضح هو أن صور واقعة صفين وحادثة نهروان أو اختلاف أصحاب النبي صلي الله عليه وسلم وصلت إلينا من خلال التاريخ المسموم ونتجنب باستمرار نقدها في ضوء الوحي بل يمكنك أن

تفهمي بطريقة مباشرة أننا نحن المسلمين جعلنا التاريخ قاضيا علي الوحي وفي مصطلح المفسرين يطلق علي التفسير بالمأثور.

إذن هي نفس الحالة التي نشأت منها الفكرة الدينية لليهود. لديهم أيضا مفتاح فهم الوحي في أيدي الشارحين والمفسرين التلموديين.

حاولت الدكتورة بيا أن تضعنا نحن المسلمين في مستوي اليهود.

نعم يمكنك أن تفهمي كهذا ولكن بيننا وبين اليهود فارق كبير. بصفة أساسة نحن نقر ونعترف بأن القرآن الكريم حكمنا وهناك شيء آخر وهو أننا لا نجد في أنفسنا الجرأة الكافية لكي نحاكم أدبنا الديني في ضوء القرآن الكريم خوفا من أن تنهار عمارة الإسلام الموروث وتسقط في نفس الوقت حصون الفرق المختلفة التي أقاموها بأنفسهم.

قالت: لو سلمت سلطة محاكمة التاريخ إلي القرآن الكريم فهل تري أن الظروف ستتغير بالمرة؟ والمسلمون سيخرجون من حصار وقيود تاريخهم الوضعي؟

نعم! ولم لا والآن ألقي نظرة علي الاختلافات التي نشأت في الصدر الأول من تاريخ الخلافة التي أصبحت جزءا من التاريخ المدون مع الصبغة الطائفية ففي دائرة الفكر القرآني صدقها مشتبه ومشكوك فيه بالمرة فتولد الضيق في قلب علي رضي الله عنه علي تنصيب أبا بكر رضي الله عنه علي كرسي الخلافة أو امتناع السيدة فاطمة عن الكلام مع سيدنا أبي بكر بسبب قضية فدك أو مجيء عمر رضي الله عنه لإشعال النار ببيت فاطمة الزهراء وعشرات من أشباه هذه القصص الخرافية التي لا سند لها بالمرة حسب قول القرآن نفسه بشأنهم "محمد رسول الله والذين معه أشداء علي الكفار رحماء بينهم".

نعم، صدقت كلامك يصدقه القلب. لا أدري لماذا لم يذهب تفكيري إلي هذا الأمر إلي الآن. والسيد علي كودرا الذي كان مستلقيا إلي الآن علي السرير شبه نائم تدخل في حينها.

كيف تشعر الآن يا سيد كودرا؟

وأبدت الدكتورة "بيا" سعادتها حينما رأته عائدا إلي حالته الطبيعية.

صحيح تماما ولكن الذي لا أفهمه هو متي جئتم إلي هنا؟ ولماذا هذه القصة مثارة هنا؟

"في الواقع اعترتك التشنجات ولا أدري لماذا كنت اليوم متأهبا للدفاع عن أهل البيت" وضحت له.

حقا؟ أنا لا أذكر شيئا من هذا القبيل ولكن الكأس النوراني يدور في نظري إلي الآن وأحس بداخلي عجزا كبيرا لماذا لم أستطع رفع الغطاء المزخرف رغم البواعث الداخلية.

ألم أكن قد قلت أن كل هذا من تأثير أوبرا البارحة. قالت بيا بتكرار تشخيصها المجرب. وفي هذه الأثناء أعلن عن موعد تناول الطعام. علي كودرا كان يبدو متعبا قليلا لكن بإلحاح منا انطلق معنا إلي حديقة الحصن لتناول الطعام الجماعي. كان الناس سعداء بعدما رأوه وقد عاد إلي طبيعته واسترد صحته وبعض الناس الآخرين كانوا مذهولين بأن كيف عاد كل شيء إلي طبيعته بهذه السرعة. الكل كان يريد أن يعرف ماذا حدث له وكيف يشعر الآن. وعندما توقف قليلا لإبداء الأمنيات الطيبة وأدعية عودة الصحة والعافية قمنا باحتلال منضدة في ركن ما. علي كودرا كان في حيرة عندما رأي الناس قلقين بشأنه والآن بدأ يقدر أنه قد مر بمرحلة حرجة. ماذا حدث له في نوبة التشنج هذه. لا يذكر شيئا. قال: لا أدري ماذا يحدث لي فأنا أفقد الوعي فجأة ويحتل مكاني شخص

آخر فحديثه وحواره ليس بحديثي. أحيانا يبقي نذر يسير من آثاره علي الذهن وأحيانا أخري لا أذكر شيئا بالمرة.

منذ متي يحدث معك كل هذا؟ سألت الدكتورة بيا علي كودرا لكي تقوم بتشخيص مرضه بطريقة أكثر دقة.

صعب علي أن أحدد الزمن بالضبط لكن أثناء حرب البوسنة كنت أحس أحيانا أن بعض أقربائي الذين تعرضوا لبربرية الصرب كنت أجدهم أحياء بلحمهم ودمهم حولي وهذه المشاهد تكاد تكون واضحة حتي بدأت أحسبها مناظر حقيقية لكن بعد ذلك فجأة كانت تغيب عني كل هذه المشاهد. وفي تلك الأيام كنت في حالة عقلية تمكنني من التفريق بين الهلوسة والحقيقة ولكن أثناء دراستي في مدينة قم الإيرانية عندما وجدت نفسي متشابكا بين الهوية السنية والهوية الشيعية في آن واحد وأصبح الأمر صعبا علي أي هوية أختارها لنفسي من بين هاتين الهويتين فبدا لي كأن هناك حوارا مستمرا في داخلي كل لحظة ولعلها كانت أول مرة إذ اعترتني نوبة تشنج.

ماذا كان سببها في الآخر؟ هل حاولت يوما أن تقوم بتحليل وتجزئة هذه الحالة؟ أردت أن أستطلع ما في ذهني.

قال: في البداية كان صعبا لي تصديقها. ذات مرة وبالتحديد كان مساء أحد أيام الثلاثاء. كنت قد ذهبت مع بعض أحبابي لزيارة مسجد "جمكاران". وهناك خلف المسجد كان يوجد بئر حيث يلقي فيه المؤمنون طلباتهم لتوصيلها إلي إمام الزمان. وشائع بين الناس أن هذه الطلبات تُعرض علي إمام الزمان مساء كل يوم ثلاثاء. فعلي إلحاح وإصرار بعض الأحبة كنت قد كتبت أنا أيضا عريضة وبمجرد أن وصلت قريبا من البئر بنية أن ألقيها فما الذي حدث لي وقتئذ لا أعلم. يقول أحباؤنا أنه قد خرج من علي لساني صراخ مخيف وانطلقت مني هذه

الكلمات بصوت عال: "عجل يا صاحب الزمان عجل أدركني الساعة الساعة". وبعد ذلك فقدت السيطرة علي نفسي واستغرب الأحبة هذه الكلمات لأنهم كانوا علي معرفة جيدة بهويتي السنية ودراستي وتربيتي الوهابية فكان الأمر غامضا لهم. ما لي وهذه الرغبة الشديدة لظهور الإمام الغائب لكن حينما عدت إلي وعيي لم أكن أتذكر شيئا من هذا القبيل.

فهل يدور في داخلك حوار بين المذاهب؟

قال: في الحالة اللاشعورية ممكن حدوثه ولكن في حالة الوعي والشعور أنا أسعي بكل الطرق الممكنة دفعها والضغط عليها. ولا أدري ما الذي يحدث لي فجأة وأنا جالس في مكان ما أن يبدأ الحديث عالم شيعي حتي أصبح داعيا ومبلغا للإسلام الوهابي دون رغبة أو إرادة مني.

والآن فهمت أن تقديري كان صحيحا فعلا. تدخلت الدكتورة بيا وقالت: في الواقع تعيش في باطنك شخصيتان في وقت واحد وأنت محب للإثنين ولست مستعدا لترك أحد منهما.

قال: نعم أحيانا أنا أيضا أحس بنفس الحالة.

قلت: إنني سمعت أن بداخل بعض الناس تعيش خمسة أو سبعة من الشخصيات في وقت واحد.

علي تدخلي هذا ابتسم علي كودرا وقال: كل هذا يرجع إلي تفنن طبائع المهرة النفسيين وهي تقديرات وقياسات. الرأي الذي توصلت إليه في ضوء دراستي لهذا الموضوع هو أن دراسة هذا الجانب من العقل الإنساني في مرحلة بدائية جدا فكما لا نعرف شيئا بشأن الإحساس والشعور كذلك لا علم لنا بشأن الالتباسات المختلفة الناتجة من القلب والعقل. لكن علم الأعصاب قد قام بكشف الكثير باستخدام الصور العكسية للدماغ وقد اخترع هذا العلم أدوية كثيرة لعلاج التشنج

وانقباض القلب. وباستعمال هذه الأدوية يمكن السيطرة علي ما يحدث في الدماغ بسبب عدم التوازن الكيميائي. ضحك علي كودرا بصوت عال علي تدخل الدكتورة بيا هذا كخبيرة وقال: كل هذه أوهام وخرافات الدكاترة والأطباء وتقوم بالدعاية من أجلها الشركات والوسطاء الروحانيون والنفسيون ليل نهار.

وما رسم المخ سوي أننا نقوم بإثارة عواطف المريض ونسعي إلي معرفة وتقدير تدفق الدم نحو المخ. وما حقيقة عدم التوازن الكيميائي إلا مجرد خرافة. وليس لدينا إلي الآن أي طريقة من طرق البحث والفحص والتي تستطيع أن تؤيد في حق هذه الخرافة الكيميائية الافتراضية. وأكثر ما يمكن أن يُقال أن بعض الأدوية أثبتت فاعليتها في حالة نوبة التشنج والنشاط الذهني.

لكن هذه الأدوية لا بد لها من أساس علمي وإذا كان المريض العقلي والنفسي يتم شفاؤه باستخدام هذه الأدوية فمعناه أن هناك نقصا وعيبا تقوم بمعالجته. أرادت الدكتورة بيا أن تبين موقفها.

هذا هو التعبير العلمي الطبي الذي أختلف معه. إن المرض الذي تسمينه مرضا نفسيا يسميه كثير من الناس الوعي الروحاني والذهني. عندما يأتي إلي آذانك صوت لا يقدر علي سماعه الآخرون أو تري حولك أشياء لا يدركها الناس الطبيعيون فمعناه الواضح أنك تعيش علي مستوي أعلي وأرفع للإحساس حيث لا يمكن للناس العاديين أن يمروا به فتسمية هذه الحالة بمرض في رأيي الشخصي ظلم.

لكن العلم الطبي يعد السيطرة علي السلوك غير العادي علاجا. قالتها الدكتورة بيا بإصرار.

انظري إنك استعملت كلمة خاطئة مرة أخري. لا تقولي غير عادي ولكن فوق العادي.

عندما رأيت أن الحوار بدأ يشتبك مع المصطلحات والتعبيرات قلت لنفسي أن علم الأعصاب مجال جديد إلي حد ما حيث يمكن النقاش والبحث الوافي حول إمكانيات العقل الإنساني اللامتناهية وعلي سعة هذا العلم. وكودرا نفسه قد مر بهذه المراحل فلم لا توجه إليه أسئلة محددة بشأن تجاربه الشخصية لكي نجد بعض العون في فهم ما يدور بداخله إذ تعيش فيه شخصيتان في وقت واحد ويدور حوار بينهما وأحيانا يشتبكان معا.

وما العجب في أن يتيسر لنا تضييق الفجوة القديمة بين الشيعة والسنة التي ترجع إلي قرون ماضية.

فسألت: يا كودرا إن الحديث عن وجود شخصيتين هل هذا أيضا أسطورة ا صطناعية وافتراء محض. ما رأيك في هذا بكل وضوح؟

قال: بالقطع إن الأمر صعب أن أقول لك أن شخصا يدخل ويخرج في نفسي لكن يبدو لي أن بداخل ذاتي مركزان كأن هناك قاعة كبيرة أعدت للمناظرة وعليها منصتان ففجأة أجد نفسي أتحدث علي منصة وفجأة أجد نفسي علي المنصة الثانية وتتغير وجهة نظري بالمرة.

ولكن حينما أؤيد موقفا ما وأريد إقناع الآخرين بموقفي هذا تبدو لي كأن هناك شلالا من الثقة والقوة يتدفق في داخلي ثم فجأة يتغير الجو وتهتز ثقتي بل وتنكسر وتتحول إلي شظايا زجاج ويتهيأ لي أنني لا أستطيع إنجاز أي شيء ويصيبني الشعور بالفشل والخيبة بشكل حاد حيث يبدو الموت بالمقابل شيئا تافها. مررت بهذه الحالة مرات ومرات. في الظاهر تكون هذه اللحظات رائعة لكن مع ذلك تكون في غاية الخطورة لا يمكن التعبير عنها بالكلمات وكذلك يبدو أحيانا أن المنصتان تسحبان ذاتي إليهما بشدة مثل المناظرين عندما يستعجلان في الحصول علي النصر وكل منهما يسحبني إلي جانبه ثم فجأة تفلت قبضتي من علي

إحدي المنصتين ولا أدري ماذا حدث فيما بعد لأنه لو لم تحدث لي هذه الحالة فلربما لا يكتب لي النجاح.

هل حدث في أي وقت من الأوقات أن استطعت أن تقدر هذه الحالة بعد أن مررت بها؟

نعم عشرات المرات لدرجة أنني عندما أعود إلي وعيي تكون قبضتي موجودة علي القطبين وأشعر بنوع من التحول الفكري بل وأسعد به لكن هذه الحالة تكون موجودة قبل غلق الباب. ليت كان في مقدوري أن أمنحك دماغي كمستعار للحظات كي تقدر بنفسك كم هي صعبة وشاقة الحياة في عالمين في آن واحد. أما غلق الباب فهو في الواقع نوع من "استراتيجية من أجل البقاء" فالذين لا يريدون مواجهة الحقائق هم فقط من يظلون علي قيد الحياة ويكونون محرومين من قضاء حياة سعيدة. حزني ليس مأساة ذاتية لشخصي بل هي مؤشر حرمان لأمة بأسرها تحملت الحياة علي نظريتين مختلفتين للقطبين. مع هذه الكلمة دمعت عينا علي كودرا.

وحينما رأيت علي كودرا أنه عائد مرة أخري إلي قبضة اليأس والخيبة حاولت إمساكه وقلت له يا كودرا الحوار الذي يدور في داخلك بين الإسلام السلفي والشيعي منذ فترة لو أخرجته من داخلك ووضعته علي المنصة الكبيرة للأمة ويكون الطرفان مقدرين لخطورة الحالة الحرجة فأعتقد أن الأمر سوف يتقدم إلي الأمام. معظم سوء التفاهم بيننا في الواقع يرجع إلي هذا السبب نفسه وهو أننا لا نعرف كما ينبغي وجهة نظر الفريق الآخر ولا نعرف شيئا عن رأس ماله العلمي.

قال: إنني لم أفقد الأمل لكن التجربة تقول أن الفرد والمجموعة والطائفة ما لم تشكل أمة فإنه عندنا تأتي اللحظات المغرية في طريق سفرهم فحينئذ يفقدون السيطرة علي أنفسهم.

اللحظات المغرية؟

نعم، وكما يقال فن الإغراء فلا يطلق هذا علي الحياة الجنسية فقط فأحيانا الشاعرية والألحان أيضا تأخذ عقل الإنسان وتذهب به بعيدا.وأحيانا يشار إلي السلف الصالح والآباء الكنسيين ويكون ذلك مشفوعا بالمصادر والمراجع وهذه المحاولة تكون لشل عقل الإنسان وكل هذه الأشياء نوع من الفخ تخور أمامه قوة التحليل والفهم. ففي مجالس العزاء تسمع القصائد المسحورة عن أهل البيت سواء كانت لها علاقة بالوقائع التاريخية أم لم تكن. لكنك تفقد وعيك في مهب هذه الألحان والشعر كذلك موقف السلف الصالح والآباء الكنسيين مهما كان تافها وركيكا يمنعك طلاسم الأسماء الكبيرة اتخاذ طريق منفصل. كل هذه أساليب مختلفة للإغراء.

بعدما سمعت الدكتورة بيا هذا المعني للإغراء أصيبت باندهاش وظهرت علي شفتيها ابتسامة غامضة وقالت: يا كودرا إن في كلامك جاذبية كبيرة. نفس اللطافة ونفس السحر ونفس عناصر الإغراء التي تأخذ معها عقل الإنسان حسب قولك.

نعم الكلام في الحب أيضا نوع من الإغراء. والهجوم بسحر الكلام يكون أكثر تأثيرا بالمقابل من غرام الحبيب. حاول كودرا إمساك الموضوع.

نوبة التشنج تبدو أنها قد حلت عقدة لسان علي كودرا. النفس كانت ترغب أن يستمر تسلسل كلامه هكذا لكن موعد البرنامج القادم كان قد حان حيث كان مكتوبا علينا أن نكون سبورة تمارين لنكت البروفيسور وولف حسب البرنامج المحدد.

وننظر ماذا تفعل بنا نحن أشباه الإنسان استعارات وكنايات وأساليب وولف.

انتقدت الدكتورة بيا بحذر ونحن انطلقنا نحو القاعة الليلية.

الفصل السابع

الطرق المسدودة

البروفيسور وولف وإن كان أستاذ اقتصاد لكن طريقة تفكيره كانت بعيدة تماما عن طريقة تفكير المدرسين. ومن أبرز صفات شخصيته التفكير خارج الصندوق. فحديثه لا يكون مليئا بالمصطلحات المعقدة ولعل هذا هو السبب أن أحاديثه في القضايا الاقتصادية المعقدة تمنح المستمع متعة سماع القصص. والأهم من ذلك أنه ليس مفكرا ومعلما فحسب بل من طليعة الداعين للجهد والعمل. ففي أثناء حرب البوسنة شوهد في هيئة صحفي أكثر من كونه مفكرا وقلمه ظل مناضلا ومؤثرا ضد الاعتداءات الصربية وكلما سنحت لي فرصة السماع لأحاديثه وجدت نفسي في حالة من البهجة والسرور. ذات مرة بدأ يتحدث عن حرب البوسنة بأن الأنشطة الاقتصادية حينما تدخل في نفق مظلم ولا يري أي شعاع للأمل فالمجتمع الإنساني يصبح ضحية لآكلي لحوم البشر. ثم من رحم اليأس يصبح ميلاد أمثال سيولوفودان ميلوفيتش من آكلي لحوم البشر أمرا طبيعيا وحتميا. وحسب قول البروفيسور وولف إن الأزمة الاقتصادية للعالم الغربي يمكن أن تترتب عليها نفس النتائج. وفي محيط أحبتنا لم يكن الأسلوب الفكري للبروفيسور وولف شيئا جديدا لكن وعلي الرغم من هذا لا يمكن الاستغناء عن خطبه لأن كل أحاديثه تكون بمثابة قصة جديدة ومسلية جدا. كان موضوع الحديث اليوم "مستقبلنا

المسروق"وبإشارة من البروفيسور كانت تظهر الصور الواحدة تلو الأخري علي الشاشة باستخدام البروجيكتور. لعلها كانت صور مناظر الثلاثينيات من القرن الماضي والتي تسمي في تاريخ الاقتصاد بالاكتئاب العظيم ففي الشوارع تكدس للعمال وانتظار لقدوم الثورة والأطفال الجياع والوجوه المكتئبة وكذلك صور المجتمع الصناعي الخرب ثم بلغة الصور قصة الحرب العالمية الثانية وتخريب العمران المدني وإلقاء القاذفات والتجارة الرابحة للرق والقصة المؤلمة للحرمان الإنساني والتعذيب المستمر خلف الرأسمالية الأمريكية والبريطانية. إن خطاب البروفيسور وولف الذي تضمن الإشارة بالصور ولم يستخدم اللسان ولم يفتح فمه لكنه كشف عن تاريخ الرأسمالية الكريه والتعذيب المتواصل الذي تعرض له الناس بشكل لا يمكن سرده. والمشاهدون كانوا في حيرة واضطراب شديد وفي نفس الوقت منتظرين لخطبة بليغة من البروفيسور وولف كي يبعث الروح في هذه الصور المتحركة. وعند انتهاء العرض تحدث البروفيسور وولف قائلا: أيها الأصدقاء عندما نرفع الستار عن هذا الحادث المفجع يكاد القلب ينخلع. إن الغاصبين الرأسماليين أغاروا علي مستقبلنا بشكل لم نستطع معه إدراك أسرارها وعواقبها. هناك دعاية مكذوبة أن الغرب مجتمع مفتوح حيث يطيب الكلام والنقاش حول أي قضية لكن الواقع والحقيقة المرة أن التحدث في موضوع نظام الاقتصاد أو التحليل العلمي والعقلي للرأسمالية جريمة لا تُغتفر. عليك أن تتحدث عن مضار شرب الخمور. قم بإنشاء حركة يكون هدفها العودة إلي القيم الأسرية ولك مطلق الحرية أن تقول ما تشاء حول موضوع الإجهاض أو أن تتحدث ضد الشذوذ أو معه لكن حذار أن تقوم برفع الستار عن النظام الاقتصادي وعن احتيالاته وخداعه فهذه المحاولة تكون بمثابة وضع علامة استفهام علي فكرك. لعلك تتعجب لو عرفت كيفية إغلاق

باب من أبواب الحوار الحر في قضية هامة مثل قضية الاقتصاد. فلتسمع كيف يتم التعامل حول هذه القضية. بصفة أساسية إن التعامل والأخذ والعطاء علم الربح والخسارة وكل إنسان مرتبط بهذا بشكل من الأشكال وهو يتعامل معه في حياته الشخصية وكذلك الاجتماعية وعلي أساسه يخطط للمستقبل ثم لا يوجد سبب في أن يكون هذا العلم العام المفهوم لعامة الناس من الربح والخسارة فوق فهم الناس العاديين لكنك تتعجب أن الناس العاديين قد رسخ في أذهانهم أن الاقتصاد علم معقد ولا يفهمه إلا المتخصصون وليس من الضروري لعامة الناس أن يكونوا علي علم بما له وما عليه. وعلي هذا فإن عددا كبيرا من سكان العالم حتي المتعلمين والمثقفين يعيشون في عالم اللاثقة ويظنون أن إجادة فهم المسائل الاقتصادية ليس في استطاعتهم علي الرغم من كونها يتعلق بها حاضر ومستقبل جميع الناس.

أين يذهب مكسبنا وما هي الثمرة الاقتصادية الحقيقية لجهودنا وما هو سبب التفاوت الكبير والمحير بين دخول الناس؟ رفع الستار عن هذه الأمور يعد خارجا عن الدائرة الإنسانية العامة. أليس هذا أمرا غريبا؟ مع هذه الكلمة أنزل البروفيسور النظارة من علي عينيه وطاف حول المنصة في حالة اضطراب ثم نظر إلي المشاهدين وقال: أيها الأصدقاء لو عرف الناس العاديون فقط عن اللعبة التي تدار خلف الستار عن أنشطتنا الاقتصادية فتأكدوا أن الدنيا بأسرها تصبح معرضة للثورة في غمضة عين. ثم لن يكون في يد أي تحليل علمي ولا في يد سحرة وسائل الإعلام أن يوقف هذه الثورة أو يبني جسرا. في هذه الحالة تقول: كيف وضع الستار الكثيف علي هذه الحقيقة الواضحة كل الوضوح منذ أمد بعيد؟

بصفة أساسية فإن كل هذا لعبة مصطلحات بل يمكنك أن تسميها ترصيعا بألفاظ مسطحة لأن المصطلحات الخالية من الروح عندما

تحاصرها الحقائق المبرهنة ففي هذه الحالة بناء سد علي تدفق معانيها يصبح ممكنا مثل علماء الأديان والقانون الذين يخصصون لأنفسهم الشرح والتأويل للتعقيدات القانونية. كذلك علماء الاقتصاد وضعوا علي التعامل السليم المفهوم حراسا للكلمات والمصطلحات المعقدة ومثلما لا يمكن فهم معاني التوراة من غير التلموديين وكما لا يمكن حل التعقيدات القانونية بدون الفقهاء والوكلاء كذلك مجال الاقتصاد أصبح حكرا علي الاقتصاديين. بقي المتخصصون فعدد كبير منهم علي دراية بخطورة مسائلها إلي حد ما وذلك بسبب أسلوب تفكريهم المنهجي لكن أن يتخيلوا أو يفكروا في نظام اقتصادي متبادل لا يمكن أن يخطر ببالهم لأن التربية الذهنية والعقلية لهم تمت علي يد النظام الحالي هكذا والحالة تزداد خطورة حينما نري أن التاريخ المقيت والدموي لعروج وتقدم الرأسمالية قد تم إبعاده عن كتابة التاريخ المقبول العام إلي حد كبير. وإن كانت تصدر بين الحين والآخر مؤلفات تشير في اللحظات المختلفة للتاريخ خطورة الموقف لكننا نصنف هذه المؤلفات في جزء الحضارة والثقافة ولا نشعر بحاجة لتدريسها لطلابنا كجزء من التاريخ الاقتصادي. علي سبيل المثال فإن تقدم الرأسمالية الأمريكية الملوثة بدم الزنوج السود ربما يكون حكماؤنا وعقلاؤنا علي معرفة بها. لكن في عام ١٩٤٤م صدر كتاب "الرأسمالية والعبودية" لإريك ويليامز. ولم يكن أهل العلم علي علم بأن نهاية مؤسسة العبودية لم تكن بسبب الرحمة والمواساة الإنسانية أو بسبب حرية الفكر والرأي لكن القصة الحقيقية لهذا كانت أن الماكينات والآلات الأوتوماتيكية حينما دخلت في الأسواق وبدأ ازدياد تمرد الأرقاء وكذلك بدأ ينتشر وينمو فيهم الوعي وبدا واضحا أن العبودية لم تعد تجارة رابحة فكان لا بد من القضاء علي هذه المؤسسة وكان هذا في صالح الرأسماليين أنفسهم. ومن المدهش لماذا ظل

التاريخ العام المتداول بعيدا عن تحليل الوقائع التي نتجت عن الاكتئاب الشديد. واليوم أضع أمامكم علي سبيل المثال ورقة واحدة من الأوراق المنسية للتاريخ الاقتصادي الكريه لكي تقدروا خطورة الموقف إلي حد ما. لقد مر علي هذا الاكتئاب الشديد حوالي خمسة و سبعون عاما لكن ما هو السبب أننا لم نستطع الخروج من آثاره وتبعاته إلي الآن؟ فالناس الذين كانوا مسئولين عن الأزمة الاقتصادية لعام ١٩٢٩م مازالت الدنيا في قبضة هؤلاء الرأسماليين أنفسهم إلي الآن. إن مؤسسة جولدمان شيس ومؤسسة جي بي مورجان ومثلهما من المؤسسات التجارية الأخري في الواقع عفاريت آكلة للحوم البشر. وهذه المؤسسات هي نفسها التي وضعت الحواجز والموانع علي الحوار العلمي الحر في موضوع النظام الاقتصادي المعاصر. في عام ١٩٢٩م وعندما أصبح ٢٥٪ من الناس في الولايات المتحدة الأمريكية عاطلين عن العمل بسبب الأزمة الاقتصادية وكانت الحالة قد وصلت إلي حد التمرد والاضطهادات التجارية والمجموعات الشيوعية الاشتراكية كانت قد أصبحت وحدة واحدة والناس كانوا غاضبين من هذا النظام الذي كان قد ولد حالة تجويع وفي نفس الوقت كانت قد بدأت تظهر حركة هدم وتدمير حتي وضع الرئيس الأمريكي الأسبق روزفلت خططا عجيبة وغريبة لأن الرئيس الأمريكي قد تفطن لخطورة الموقف فقد أقنع الرأسماليين أن يخصصوا جزءا معتبرا من ثرواتهم للمشروعات الخيرية لكي يتم السيطرة علي الغضب الشعبي. وكان من أقواله أن عودة العمال إلي العمل وزيادة الإنتاج من مصلحة الرأسماليين وهي في نفس الوقت ضمان لبقائهم. ونجح الرئيس الأمريكي في الحصول علي تأييد ومساندة الطبقة الكبيرة من الرأسماليين وفي لمح البصر شكلت الحكومة نظام الضمان الاجتماعي وتم تعيين العاطلين عن العمل في وظائف كبيرة وجديدة. حدث هذا في الوقت الذي كانت

الحكومة تواجه الأزمة الاقتصادية وهي في أوجها. وأسدل ستار المشروعات الخيرية علي الوجه الكريه للرأسمالية عن طريق هذه المبادرات غير العادية. وفي وقت قصير احتضرت الشكوك والشبهات التي كانت قد نتجت بشأن النظام الاقتصادي. وفي عام ١٩٤٢م فرض الرئيس الأمريكي روزفلت ١٠٠٪ من الضرائب علي دخول الأغنياء. قيل أن كل من دخله السنوي يزيد عن ٢٥ ألف دولار يلزمه أن يدفع للحكومة في شكل ضريبة ما قيمته دولار علي كل دولار. وجُعلت هذه النسبة دولار ونصف علي المؤسسات التجارية أي ١٥٠٪ وفي ضوء هذه المبادرات ازداد دوران رأس المال في المجتمع وعادت مظاهر الرخاء وأصبحت أغنية "ها هي الأيام السعيدة مرة أخري" الأغنية الشعبية في سائر الولايات المتحدة الأمريكية. إن الرئيس الأمريكي وإن لم يكن مؤهلا لتغيير النظام لكن بسبب قبوله العام لدي الشعب الأمريكي ونظرا لحسبه ونسبه كان يستطيع التفاوض مع الرأسماليين لكن بعد هذا الرئيس لم يأت أحد من الرؤساء يستطيع أن يقوم بلجم عفريت الرأسمالية. وهنا فكر أصحاب رؤوس الأموال لم لا نجعل الحزبين السياسيين دائنين لنا عن طريق دفع المبالغ الباهظة باسم الإعانات المختلفة بدلا من أن ندفع المبالغ الضخمة باسم الضرائب وبالتدريج وصل الأمر إلي أنه تم في عام ١٩٩٠م صياغة مشروع قانون علي يد الرئيس بيل كلينتون ومن خلال هذا المشروع تم اندماج البنوك الاستثمارية والبنوك التجارية معا فيما بينهما وكانت النتيجة أن التوقيع علي هذا المشروع لم يكن قد مر عليه ثمان سنوات فقط إذ بدأ النظام الاقتصادي في الانهيار لأن نقابة الشركات استخدمت النظام السياسي لصالحها كلما وكيفما أرادت. ستتعجب عندما تعرف أن المؤسسات التجارية التي كانت تدفع الضرائب ١٥٠٪ الآن

يتم تقاضي ٢٥٪ منها فقط والممولون والأغنياء الذين كانوا يدفعون في عام ١٩٤٣م ٩٤٪ من الضرائب الآن يتم تحصيل ٣٠٪ منهم فقط. والنتيجة أن الاعتماد المالي للمشروعات الخيرية يعاني نقصا شديدا وليس هناك أي نوع من المؤاخذة والمحاسبة من الحكومة للمؤسسات التجارية علي استغلالها السيء وكلما أرادت هذه المؤسسات تقليل المصاريف والنفقات وزيادة الربح طردت الموظفين بين عشية وضحاها ونقلت وحداتها التجارية إلي البلاد البعيدة الرخيصة. هذا هو الوضع الذي تولد منه اليأس الشديد بشأن مستقبل المجتمع الرأسمالي الغربي.

أيها الأصدقاء الأعزاء والآن هذا السراب الخادع لن يستمر كثيرا. إن أمريكا منذ عام ١٩٧٣م معرضة للتدهور الشديد في نسبة النمو والإنتاج وكل ما ترون من طلاسم الجاه والجلال وهذا المجتمع الأمريكي الذي لفته موجات من الفرح والسرور بهوليوود فكل هذا بسبب سياسة الديون وبمجرد أن تزول الهالة المضيئة للتصوير السينمائي ستري أن الحياة الحقيقية للمواطنين الأمريكيين مُرة وقابلة للشفقة والمصيبة أن عامة الناس غير مدركين للوضع الحقيقي. نحن نعيش في عصر الإعلام الأعمي. إن شركات مثل كومكاست ووالت ديزنيي وفوكس وتايم وارنر ووياكوم وسي بي إس وأمثالها قامت باختطاف الإعلام الأمريكي. هذه الشركات الإعلامية تقدم ل٨٠ أو ٩٠٪ من المشاهدين ما تريد أن يشاهدوه. ففي هذه الحالة من أني لهم أن يتعرفوا علي الوضع الحقيقي؟ أما الجامعات فبدلا من أن تنشر النور وتقوم بتعميم الحقائق وتوضيحها هي مشغولة بإعداد المدراء لهؤلاء الرأسماليين وأصحاب رؤوس الأموال هم الذين يحددون الآن أهداف وغايات مقاصدها الدراسية والحياة العقلية وليست هناك جامعة واحد بمنأي عن هؤلاء الرأسماليين في اعتماد مشروعاتها المالية.

والحق أن المجتمع الرأسمالي لعصرنا الحالي ليس مجتمع الناس الأحياء بل مثله كالإعلان الجذاب علي شاشات التليفزيون وحينما يفقد إعلان أهدافه يظهر إعلان آخر بعناوين جديدة. وفي هذا المجتمع المبني علي الظواهر يُري لمعان هوليوود لكن كل هذا من سحر التقنية السينمائية.

إن الرأسمالية لم تخرب مجتمعنا وسياستنا فقط بل قامت باختراق البيئة الخاصة بحجة زيادة الإنتاج حتي بدأت تتجمع السحب المحفوفة بالمخاطر علي مستقبل حياتنا الإنسانية. والحقيقة المرة هي عندما يتحول كل شيء في المجتمع إلي سلعة ولا يكون هناك أي تفكير فيما عدا الربح ولا تؤخذ في الاعتبار القيم المقدسة والأخلاقية ففي هذه الحالة ينظر إلي الإنسان كسلعة أيضا في النهاية وحينما تهبط مكانة خليفة الكون لهذا الحد فتولد اللامبالاة واللاجدوي أمر طبيعي. القصة كئيبة ومؤلمة جدا وأخاف من أنني لو رفعت النقاب كليا عن هذا الموضوع ففي هذه الحالة عدد لا بأس به من الناس سيفقدون الحماس للحياة علي هذه الكرة الأرضية.

سمع الناس حديث البروفيسور وولف بكل تركيز واهتمام فحديثه الجذاب مع الصور والرسوم والإحصائيات استمر عرضها علي الشاشة بأسلوب شيق لم نحس معه كيف انقضت ساعة كاملة من الوقت. كلامه الساخر اللاذع كان ممتعا فقد كان يتحدث عن تغيير هذا النظام بأسلوبه الخاص وعندما كان يرتفع صوت "هل هناك بديل" فالقلب كان يتألم ويزداد الشعور باليأس وأحيانا كان يبدو أنه سيخرج قريبا من حقيبته وصفة ناجعة.

هل هناك بديل؟ لا أعلم لماذا توجه إلي بشكل خاص دونا عن المجلس كله وبدأ ينظر إلي بنظرة استفهامية أم كان هذا إحساسي

الشديد بأنه في البحث عن البديل يتوقع الإغاثة من ممثل للأمة المختارة. ظللت أفكر يا إلهي ما هذا الوضع العجيب؟ فالذين كانوا قد كلفوا بتقديم البديل في ساعة العسرة من التاريخ وكان المتوقع والمأمول منهم أنهم بصفتهم الحاملين للوحي سيقدمون أنفسهم ما دامت الدنيا قائمة لتصحيح انحراف التاريخ. لكنهم اليوم عاجزون علي يد النظام الرأسمالي والعجيب والطريف أنهم غير مقدرين لخطورة الوضع والموقف بل أنهم في مقابل الشعوب الأخري معرضون للضعف والحرمان أولهما القبضة الحديدية للرأسمالية التي أخذتنا في قبضتها مع الآخرين وثانيهما القيامة التي قامت بيننا وبسبب الحرب الأهلية الفكرية والنظرية نحن لسنا في حالة تنظيم صفوفنا الداخلية. إن تحليل علي كودرا بشأن بناء وتجديد الأمة من جديد كان مبعث يأس شديد والآن فإن تحليل البروفيسور للأوضاع الداخلية الذي قام من خلاله بكشف الوجه الكريه للرأسمالية فقد ذهبت حتما احتمالية مستقبل مشرق. يا إلهي! ما هذا العجز. تذكرت أيام دراستي إذ كانت تدور الحرب بين الهمم العالية والتحليلات المنكرة ففي تلك الأيام كانت تلاحقني أحلام حيث كانت توجد سلسلة لا نهاية لها للجهات المفقودة والطرق المسدودة وإذ أري فيما يري النائم أنني أنزل من سلالم واسعة لمبني كبير وفخم وفجأة يضيق السلم ويصبح التقدم خطوة واحدة إلي الأمام صعبا. وأري كذلك أن الجدران بدأت تنكمش وتتقلص من الجهات الأربع وبدأت أحس باختناق شديد كأنني أموت ووقتئذ أفيق من النوم.

إن العذاب من أن تصبح الطرق مسدودة يكون شديدا ومفضيا إلي الموت وقدرت هذا العذاب إلي حد ما عن طريق الأحلام فذات مرة أري نفسي أقرأ كتابا متخصصا والموضوعات تكاد تكون واضحة جدا إلي حد أن الذاكرة تحتفظ ببعض الذي قرأته لكن بعد ذلك أصاب بحيرة

واندهاش عندما أعرف أن هذه الكتب لا وجود لها في الحياة الحقيقية لعل تصنيفها وتأليفها لم يتم بعد. وبعد أن أفيق من النوم جراء هذه الأحلام كنت أحس بتعب ذهني وجسدي شديدين كأنني فرغت من عمل شاق جدا. وعندما استمرت هذه الحالة فذات يوم شكوت إلي ربي في أدعية منتصف الليل. يا إلهي عندما تكون الطرق مسدودة والوجهة مفقودة فما السر أنك لا ترسل رسولا لإغاثتنا.

بعد سنوات طويلة سمعت نفس الشكوي من علي لسان طالبة بوسنية فسرت في الجسم ارتعاشة وبدا لي كأن القائل قد تفوه بكلمة نابية ومذمومة فعرفت يومئذ أن اليأس الشديد والعجز القاتل كيف وإلي أي مدي يجعل التفكير مشلولا. يرجع هذا الأمر إلي عام ١٩٩٨م إذ أن مؤتمرا عالميا للمنظمات المعادية والمعارضة للحرب كان قد جيء بي إلي منتجع سياحي بكرواتيا وفي فندق بكال كانت الخطب الرنانة والمناقشات الحادة والحماسية والمباحثات والمشاحنات مستمرة. بالإضافة إلي حكماء ومتطوعي الصرب والكروات والبوسنة. وكان هناك عدد لا بأس به من الدول الأوروبية الأخري والذين كانوا يسعون لاستتباب الأمن والأمان. والسيدات اللاتي كن ضد استخدام العنف كان عدد منهن حاضرات في هذا المؤتمر فالحرب في البوسنة وإن كانت قد انتهت لكن الجرح الغائر لم يكن قد اندمل بعد في القلب والعقل. كانت القيامة الكبري التي مر بها أهل البوسنة لكن تفصيل الأحداث عندما تسمعها من علي ألسنة أولئك الذين كانوا قد نجوا من جحيمها لحسن الحظ كان من الصعب للمستمعين أن يؤمنوا بأن مجتمعا حضاريا يمكنه أن يري في العشر الأواخر من القرن العشرين وقائع وأحداث اعتداءات وظلم وبربرية كهذه علي أيدي الناس.

إن الفتاة "المينا" التي كانت تبلغ من العمر حوالي عشرين أو اثنين وعشرين سنة ذات الوجه الطويل والعينين المشعتين فتارة تري فيهما ذكاء ونظرة غير عادية مفعمة بالأمل وتارة تراهما كأنهما تبحثان في الفضاء البعيد عن شيء مبهم أو غامض. عندما بدأت المينا خطابها في المؤتمر فكان يبدو أن لديها الكثير والكثير لتقوله وكأنها تريد أن تبلغ شعوب العالم رسالة من أفق الفضاء. والتوافق الكبير بين ثقتها وأسلوبها كان يدل أنها ليست من قبيل عامة الناس الذين يكونون نتاج الظروف بل هي من الذين يغيرون ويبدلون الظروف بعزائمهم وطموحاتهم ويحولون وجهتها لكن لا أدري ماذا حدث إذ انكسر صوتها قليلا حينما جاء ذكر سربرنيكا. بدا كأن الجمل قد وقعت في حلقها وعندما جاء ذكر أختها الصغيرة أمينة علي لسانها اغرورقت عيناها بالدموع ولم تستطع مواصلة الكلام. المشاركون بالجلسة بكوا أيضا لكن كانت لها لوم كبير علي بكائهم بل كانت في شدة الغضب وبعد أن سيطرت علي نفسها قليلا اكتفت بهذا القدر من الكلام: سامحوني ليس غرضي الحصول علي مواساتكم وأنا أعتبرها إهانة شديدة لعزة نفسي أن يترحم الناس علي وأن ينظروا إلي وإلي شعبي بنظرة مليئة بالشفقة. كفوا عن مواساتكم لله ولا تضعوني في هذا المستوي الذليل.

المينا قالت في خطابها الناقص ما لا يقدر عليه الخطباء البارعون.

الفصل الثامن

رجل مقطوع الرأس

فندق بيكال كان علي بعد خطوات من ساحل البحر. ذات يوم خرجت لأتمشي علي الشاطيء وابتعدت قليلا فماذا أري علي الساحل الحجري علي مقربة من الممشي حيث الصخور الكبيرة قد كانت مخابيء أثناء الحرب العالمية الثانية وتم تحويلها إلي شبه رصيف وصارت أغصان الأشجار المنحنية مظلة حيث جلس الناس علي الفراش. مررت بهذه الجلسة دون النظر إليها لأن مجموعات السياح والأزواج الشبان المبتسمين والضاحكين كانوا يتواجدون في نواحي الشاطيء وذهابهم وإيابهم في أحضان الطبيعة كان أمرا عاديا. لكن وقتئذ منعني من التقدم إلي الأمام صوت جهور للسلام والتحية. ورأيت أن غلاما يكاد يبلغ ما بين سبعة عشر أو ثمانية عشر عاما يتقدم نحوي بخطي سريعة وبعد مصافحة حارة بدأ يقول لي: هل تحب حضرتك أن تتشرف في مجلسنا؟ والآن بعدما رفعت نظري وتمعنت عرفت أن مجموعة من الشبان المشاركين في المؤتمر يستمتعون هنا تحت مظلة الطبيعة. وعلي البساط الحجري مفروش رداء وعليه بعض حاجيات الأكل والشرب. وفي زاوية أخري من هذا المكان توجد شنطة مقلوبة وكان يبدو أن مجموعة من الشبان قد جاءوا لرحلة ترفيهية.

حسنا! فأنت هنا يا ألمينا؟ أبديت فرحتي وسروري.

قامت احتراما وتقديرا لي قائلة: تفضل. من حسن الحظ أنه قد سنحت لنا الفرصة لمقابلتك. إنك قادم من بلاد بعيدة وهي الهند وإن حديثك في ذاك اليوم قد رفع من روحي المعنوية واهتمامك بقضية البوسنة ومشاركتك فيها منحتني إحساسا من البهجة والفرحة. إنني لست وحيدة في بحر هذا اليأس والقنوط. وإنني جزء من أمة عظيمة. ثم قالت: قبل أي شيء ماذا تريد حضرتك أن تشرب؟ وقدمت لي كوبا ورقيا وقالت: فيه قطع من السمك. استمتع بها أيضا.

شكرا جزيلا هذا يكفيني. ثم أخذت العصير بيدي وفي زاوية من الرداء جعلت لي مكانا للجلوس.

نعم إنني أيضا كنت أريد مقابلتك لأن خطابك في ذاك اليوم لم يكن كاملا بل بقي ناقصا. علي كلمة ناقص ظهر علي وجه ألمينا بعض آثار القلق ثم بدا لي كأنها سيطرت علي نفسها وعادت علي وجهها ابتسامة لطيفة وإن كانت باهتة. قالت لي: تعرف علي إيمان فهي أيضا من مواطني البوسنة وأشارت إلي فتاة في سنها. وفي نفس الوقت تقدمت إلي فتاة أخري قائلة: أنا اسمي لوسيا وأنا من زغرب ثم مدت يدها للمصافحة. عادت ألمينا وقالت: وهذا أخي الصغير حسن وهو كل دنياي. ومع هذه الكلمة احتضنت هذا الفتي وهو الذي كان قد أوقفني عن السير إلي الأمام وبدأ الحوار بيننا فعلمنا أن ألمينا وإيمان وحسن يعيشون في المركز الإسلامي بزغرب كلاجئين أما لوسيا فهي من زغرب نفسها وهي تنتمي إلي أسرة نصرانية وهي في نفس الوقت منضمة إلي منظمة هناك تبذل قصاري جهدها لاستتباب الأمن والأمان.

"كم هو جميل من هنا منظر المدينة القديمة" قلت هذا الكلام ناظرا إلي الجانب الآخر من البحر حيث تقع أبراج الكنيسة القديمة في حضن الطبيعة الصامتة. لكن وعلي بعد عدة أميال من هذه المباني تبدأ

حدود البوسنة والحياة هناك جحيم في جحيم إلي يومنا هذا. وأشارت إيمان إلي مدينة "بورج" وهي مدينة قديمة واستطردت قائلة: فهل بيت عائلتك قريب من هنا؟ لا ليس قريبا إلي هذا الحد لأنني من "بريدور". هل سمعت قبل ذلك عنها؟ نعم، في الأيام الماضية كانت أنباء "بريدور" في العناوين الرئيسة بسبب اكتشاف المقابر الجماعية. كنت قد سمعت أن الجثث تم إخراجها من المدافن للتحقيق في جرائم الحرب فماذا حدث لهذه القضية؟

قالت: البحث مازال جاريا. منظر مؤلم وموجع. من يعلم متي يخرج من المقابر رجل من من الآباء ورسغ من من الأمهات وفي أي حالة ستخرج.

ما معناه؟ هل هذه الجثث لم تعد الآن في حالة يتم التعرف عليها؟ أردت معرفة الموقف.

قالت: ابن خالي ومهنته الطب كان مشاركا في فريق الأمم المتحدة للتحقيق في جرائم الحرب. كان قد جاء مؤخرا إلي المركز الإسلامي بزغرب وذلك لتسجيل البيانات الحلفية من لاجئي "بريدور". حكي لنا أن أجزاء من الجثث المشوهة كانت تستخرج من المقابر الجماعية فتارة كانت تظهر الجثة الكاملة وتارة نري أن عظام الرأس والرجلين منفصلة. ففريق البحث كان يضعها في قماش أبيض ويقوم بترتيبها وكانت كل جثة تأخذ رقما. كذلك استمر إحصاء الجثث وفي هذه الأثناء وضعت جثة علي الرداء فطرأت علي ابن خالي حالة عجيبة فالحذاء كان مايزال موجودا في قدم الجثة وأراد التعرف عليها بتقليب أطراف الأصابع. أطراف الأصابع بقيت داخله وصارت عظام الساقين في يده. يا إلهي إنه نفس حذاء ماركة شولر الذي أحضرته لوالدي من "جراز". لم يستطع ابن خالي السيطرة علي أعصابه وكلما أتذكر هذه الحادثة أستغرب كيف

نجوت من الموت المحقق. مع هذه الكلمة ارتعشت إيمان وبدأت نظراتها تبحث بعيدا في السماء وراء الكنيسة.

أين كنت وقت وقوع حادثة "بريدور". كنت في بريدور نفسها ويا ليتني مت أيضا. لكن لعلهم تركوني لأكون عظة وعبرة للآخرين. وأختي التي كانت أصغر مني بسنتين ذات ليلة تم اختطافنا قهرا علي أيدي الاشتراكيين الصرب وقيل لنا وقتئذ أنه بعد تحقيق هام سيتم إطلاق سراحنا. وقد جاءوا بنا إلي خيمة عسكرية حيث كانت كتائب اشتراكية مفترسة تتربص بنا لتنتهك شرفنا وأعراضنا. أُرسلت أختي إلي غرفة مجاورة لي وما حدث لي لا أستطيه وصفه. إن هؤلاء الوحوش المفترسة قد هزوا وجهي هزا شديدا حتي بدأت أختنق وجُرح حبلي الصوتي ولم أستطع إصدار صوت لأيام.

مع هذه الكلمة أُصيبت إيمان بغثيان وبدأت الدموع تنزل من عينيها وهي تقول يا أختاه.

ثم بدأت تحكي قائلة سمعت صراخ أختي آخر مرة في تلك الليلة وبعد أربعة أو خمسة أيام عندما أعادوني إلي منزلي فلم يكن هناك أحد وكانت علامات إطلاق الرصاص علي الجدران والأبواب والشبابيك واضحة والأبواب كانت شبه محترقة. كل هذا كان دالا علي الخراب. لا أعلم ماذا خطر بقلب ذلك السائق الصربي إذ تركني في معسكر الإغاثة. ربما أختي أيضا تكون مدفونة في هذه المقابر الجماعية وربما أمي أيضا. أما الوالد فقد سمعت عنه أنه كان قد قتل مع رجال الحي الآخرين أثناء قذف القنابل.

إن الحديث المؤلم لإيمان كان قد أدخل المجلس في حالة هم وغم شديدين. يا إيمان لا تفقدي الأمل. حاولت لوسيا تهدئتها. إنني في غاية الخجل أن الاشتراكيين الصرب من معتنقي ديانتي لكن عفريت

القومية كان قد أصابهم. إنهم لم يرحمونا حتي نحن الكروات. تعالي ننسي الذكريات الماضية ونخطط لمستقبل جديد. العفو والصفح عنهم أفضل من الاحتراق في نار الانتقام والنفور.

لكن كيف نبدأ من جديد والقتلة مازالوا أحرارا ويتجولون في هذه المدن جهارا نهارا دون خوف أو جريرة وقد استولوا علي آليات الحكم ولم يندموا يوما علي بربريتهم هذه. قالت إيمان رافضة وجهة نظر لوسيا: يا إيمان كلامك صحيح تماما فالعفو ليس أمرا هينا و خاصة حينما يكون ميراث الظلم يلاحقنا باستمرار. عندما تأتي في يد أحد الأبناء رجل مشوهة بها حذاء أبيه فإن العفو عن هؤلاء المجرمين ليس سهلا. الذين حرموا أباه من الحقوق والحرمات الأساسية للدفن.

لكن اعلمي يا إيمان أننا لا نصفح ونعفو عن أحد باستمرار لأننا أصحاب الأرواح السامية التي لا تضر أحدا ولكننا نسمح ونعفو لأننا نريد أن نتجنب ملاحقة هذه الذكريات من أجل بناء مستقبل جديد ولا نريد أن تكون هذه الذكريات المؤلمة عائقا في تخطيط مستقبلنا.

إن الفتي حسن الذي كان يسمع هذه القصة الدامية والحزينة حتي الآن بكل اهتمام وتركيز وكانت عيناه يتقد فيهما بريق النباهة والذكاء في آن واحد وهو الذي كان قد أخفي نفسه وراء غطاء الصبا. تحدث في أسلوب ولهجة الحليم مثل الشيوخ إلي حد ما قائلا: إن ماضينا فقد دمره الأعداء وبهذه الذكريات الأليمة لو أصبح مستقبلنا أيضا ناقصا ولم يكتمل ففي هذه الحالة يكون النصر حليفا لأعدائنا. حقا إننا لا نستطيع النسيان لكننا بكل تأكيد نستطيع العفو والصفح. لقد أبدي عزمه وتصميمه هذا محركا قبضته المغلقة بأسلوب الخطباء وقال: حان الوقت لكي لا نعيش لأنفسنا لكن واجب علينا أن نعيش لهؤلاء المظلومين الذين صارت لهم هذه الدنيا جحيما و ذلك لكي لا يمر أحد منا غدا بنفس التعذيب.

خطبة الفتي حسن البريئة كانت مستمرة وكانت "ألمينا" تنظر إلي أخيها نظرة ا ستحسان والطمأنينة والثقة كانت قد عادت إلي وجهها بكلام هذا الفتي المليء بالإرادة والعزيمة. وقد رأيت في عينيها نفس النظرة التي كنت قد شاهدتها أثناء إلقاء كلمتها في المؤتمر. نفس أسلوب قبول التحدي علي أنها ستقوم بإنجاز أعمال كثيرة وبلهجة إذاعية قالت: إن ضعفنا وعجزنا هو سلاحنا ولم يبق لدينا شيء لنضيفه. الجبناء هم من يخافون علي إزهاق الأرواح ونهب الأموال. بعد خراب وضياع سربرينكا ماذا يكون إلا أن تُصنع سربرينكا أخري فالذين يستطيعون أن يتحملوا سربرينكا الأولي لا تستطيع أن تهزمهم سربرينكا أخري ولا يمكن إحداث حالة تعذيب أكبر من هذه.

من خلال حديث ألمينا كان قد اتضح لي أن لها علاقة قوية بمعسكر اللاجئين في سربرينكا حيث كان قد قتل الجنود الصرب حوالي ثمانية آلاف من رجال البوسنة بأسلوب وطريقة النازيين الألمان. يُقال أنه لا يوجد مثيل لهذا القتل الوحشي المخطط بعد الحرب العالمية الثانية.

كانت النفس تتوق لسماع رواية ألمينا كشاهدة عيان للقصة المؤلمة التي تعرض لها مسلمو سربرينكا كاملة لكنني خشيت أن تراودها حالة اليأس مرة أخري بسبب سرد هذه الحادثة الموجعة ويتلاشي كل هذا بين الدموع ولذلك حاولت حصر كلامي علي بعض الأسئلة العامة.

يا ألمينا! أن أولئك الذين كانوا يعيشون معا رغم الخلافات الدينية والثقافية كانوا يتزاوجون فيما بينهم بصرف النظر عن الأديان لا أدري كيف تولدت الدواعي الشديدة للنفور نحو المسلمين في قلوب الصرب ماذا كان السبب الحقيقي لتغير الموقف الصربي الاشتراكي نحو المسلمين حتي وصل إلي حد الاعتداءات الجارحة نحوهم؟

قالت: في يوغسلافيا السابقة كان الصرب والكروات والمسلمون متقبلين بعضهم لبعض ففي النظام الشيوعي القهري لم تكن هناك أية فر صة حقيقية للحوار المفتوح ولذلك فإن كل فئة حافظت علي هويتها بل ا ستمرت في تحسينها عن طريق مختلف الحكايات الدينية والأ ساطير التاريخية ولأن كل هذا ا ستمر في الخفاء ولذلك لم يتاح لهذه الأ ساطير أن تمر بأي نوع من المحاكمة العلمية والدرا سية أو التحليلية فكانت النتيجة الطبيعية أنه بمجر د أن ذهب النظام القهري بدأت تظهر الأ ساطير والتواريخ الموضوعة والمضللة التي كانت قد حفظتها كل فئة عن ظهر غيب تحت الأرض فحينما كانت الكتائب الصربية والمليشيات المحلية الصربية تهاجم المدن البو سنية فكانت علي ألسنتهم أبياتا ملحمية من قصائد.

Mountain Wreath

معني هذا أن الصرب كانوا يشجعون أطفالهم علي النفور ويقومون بإثارتهم ضد المسلمين؟

نعم، وإلا فإن هذه الملحمة المسمومة التي كتبها "بيتروفيتش نجوس" في أوا سط القرن التا سع عشر كيف يمكن أن يتم تر ديدها في العشرة الأخيرة من القرن العشرين. وفي هذه الملحمة الشعرية يتم تحفيز الصرب علي القتل العام للمسلمين.

قالت: هذه القصيدة فيها تنديد بأولئك الصرب الذين تمر دوا علي هويتهم الأ صلية تحت تأثير الأتراك واعتنقوا الإ سلام. هذه القصيدة تعدهم خونة وتريد أن تقضي علي مسلمي البو سنة من علي ظهر الأرض عقابا علي هذه الخيانة كي يستطيع الصرب المتبقون الحياة في هذه الدنيا بهويتهم القومية الأ صلية وينهضوا معتزين بهويتهم.

معني ذلك أن الذين كانوا علي رأس القتلة وكانوا يبيدون المسلمين هم في الواقع كانوا يقومون بهذه الإبادة كفريضة قومية للصرب.

نعم يا سيدي صدقت. ما كان مقبولا لأولاد الأتراك المعنيين أن يقيموا دولة مستقلة في يوغسلافيا فهذا لا يجوز في نظرهم وكانوا يعدونها قضية إهانة لقوميتهم وسلالتهم. لكن من يخبرهم أن الحديث عن بربرية الأتراك وإجبارهم للصرب علي اعتناق الإسلام الذي ورد في قصيدة بيتروفيتش.هذه القصة افتراضية محضة لا علاقة لها بالحقيقة. وليس هذا هو التاريخ الصحيح بل هي كانت أسطورة موضوعة سممت قلوب وعقول الصرب.

فهل المسلمون لم يكن لديهم أي تخمين أو تخوف لهذا النفور ضد المسلمين؟

ربما ليس لهذا القدر لأن المسلمين كانوا منشغلين بقضية الحفاظ علي هويتهم والإسلام النقشبندي كان قد لخص الإسلام في أدعية الصلاة والسلام وأقنع المسلمين أن هذا هو الدين وبما أننا لم نكن نتحاور داخل بيوتنا فأني لنا أن نتخيل الحوار مع الشعوب والأقوام الأخري.

معني ذلك أن المسلمين لم ينجحوا في توضيح وجهة نظرهم للجيران.

نعم يا سيدي. أولا لم يكن هذا مسموحا لنا في ظل الحكومة الشيوعية. ثانيا فإن الإسلام النقشبندي كما سبق كان يختزل الدين في صورة الأوراد والعبادات والعادات والتقاليد فلم يكن يفكر عامة المسلمين مجرد تفكير أنه علينا مسؤولية دينية ودعوية نحو جيراننا وأصحاب الديانات الأخري لكوننا مسلمين. فمثلما كان الصرب والكروات يركزون دائرة أنشطتهم في الكنائس كذلك كانت دائرة عمل المساجد والزوايا مقصورة علي المسلمين فقط. ففي البداية حينما وقعت

أحداث الاعتداءات من جانب الصرب لم يستطع حكماؤنا وعقلاؤنا أن يقدروا هذه الحالة الخطيرة ولا الدوافع التي وراءها بأي تقدير يذكر. يمكنك أن تفهم أن الطوفان أحاطنا فجأة وكنا نتوقع الكثير والكثير من العالم المتحضر لكن كل هذا ثبت أنه سراب وخدعة وتأكد أن هؤلاء ليسوا بمتحضرين. إن المجتمع الأوروبي مجتمع وحوش وإلا فإن هؤلاء المجرمين لم يكونوا ليستمروا لأكثر من خمس سنوات وهم يبيدون بني جنسهم بتخطيط منظم. يا ليت مسلمو البوسنة عرفوا هذه الحقيقة من أول يوم لربما لم نكن لنصل إلي هذه الحالة المزرية.

إن الأسلوب الهادئ لألمينا كان قد تحول إلي شيء من الغضب والثورة. قالت: إن شيوخنا وكبارنا ظلوا يعيشون حتي آخر لحظة في سراب. ففي معسكر اللاجئين بسربرينكا حيث كنت موجودة أنا أيضا وكان هذا الالتباس السائد بيننا أننا في حفظ قوات الأمن للأمم المتحدة والصرب لن يهاجموا هذا التجمع الكبير للناس الذي يبلغ عدده حوالي أربعين ألفا لأن الدنيا تراقبه ووسائل الإعلام ترصده. لقد كانت هذه خدعة كبيرة تعرضنا لها. الدنيا ظلت تشاهد وجثثنا ظلت تتجمع وكثير من الوقت قد ضاع في انتظار الإغاثة الموهومة.

لكن ماذا كان بوسع المسلمين غير الانتظار. أردت اختبار ذكاء ألمينا الحاد.

قالت: لو قدرنا من اليوم الأول أننا سنحارب بمفردنا الحرب التي فرضت علينا لكانت استراتيجيتنا مختلفة لكن في معسكر سربرينكا ظلوا يؤكدون لنا باستمرار أن قوات الأمن لمنظمة الأمم المتحدة معينة للحفاظ علينا والمهاجمون الصرب كانوا يتقدمون نحو المدينة باستمرار وكل يوم كانوا يؤكدون لنا أيضا أن المقاتلات التابعة لحلف الناتو ستقوم بالقصف وتمنع تقدمهم نحو المدينة. وبعد انتظار طويل ألقيت قنبلتان رمزيتان ولم

يكن هذا الإجراء كافيا بالمرة لمنع تقدم الصرب ثم عندما دخل الجنرال الصربي ميلاديتش مع جيوشه في المدينة فإن كتائب الأمن التابعة للأمم المتحدة لم تطلق رصاصة واحدة للدفاع عنا بل قامت بتسليمنا إليهم. لقد كانت خدعة كبيرة تسببت في تحطيم طموحاتنا وأكبر خدعة حدثت هي عندما طلب الجنرال ميلاديتش رؤساؤنا ووجهاؤنا للمفاوضات وقام بوعدنا أنهم لو سلموا أسلحتهم للصرب ففي هذه الحالة سيتم إبعادنا بشكل آمن خارج المدينة ولم يكن في المعسكر الكثير من السلاح ما عدا عدد من البنادق التي كانت تبدو لنا عونا كبيرا. والدي رحمه الله كان قد عاد من ذاك الاجتماع قلقا بشدة ولم يكن مستعدا بأي شكل من الأشكال لأن يتم تسليم السلاح للصرب. وفي الأخير حدث ما كان متوقعا وما كنا نخشاه. إن النساء والأطفال قد تم إبعادهم خارج المدينة لكن لم ينج أحد من الرجال. إنني لم أنس إلي يومنا هذا ذاك المنظر عندما تم إنزال والدي من القطار وهو يستعد للركوب.

دمعت عينا ألمينا وقامت بتجفيف الدموع من زاية طرحتها وحاولت السيطرة علي نفسها وتأوهت ثم قالت: ضاع كثير من الوقت في الانتظار.

في معسكر سربرينكا كانت تنتشر شائعات من نوع جديد كل يوم. كثير من الناس ظلوا مشغولين في الأدعية والأوراد وكانت تجرب وصفات لإجابة الدعاء وكان واحد منهم يقول أن سلوبودان ميلوشيفيتش هو الدجال الكبير لهذا الزمن وسيظهر من عالم الغيب قريبا المهدي المنتظر للقضاء عليه فالمباحثات والأحاديث التي كانت تدور في المعسكر نحو القضايا الدينية لم أري مثلها من قبل ولا من بعد فكل واحد كان منتظرا للمعجزة الإلهية. ذات يوم سألت والدي أليس كل هذا العدوان يقع علينا بسبب كوننا مسلمين؟ فلم لا يرحمنا ربنا؟ لماذا لا

يرسل مبعوثا لإغاثتنا؟ والدي ظل ساكتا علي سؤالنا هذا وظهرت علي وجهه موجة من الكرب والألم. خفت لأنني تسببت في ألمه ثم بنوع من التهدئة والطمأنة وبشيء من العزيمة قال لي: لا تنهزمي ولا تفقدي الأمل. إن الله سيدبر لإغاثتنا من الغيب. لقد سلب الأعداء كل ما كنا نملكه فلا قدر الله لا يمكن أن يضيع إيماننا أيضا بأيدينا. ودمعت عيناه هنا. فيما بعد عرفت أن الجنرال ميلاديتش كان قد قال لهم علي طاولة المفاوضات علي الملأ: أيها الناس إن ربكم لا يستطيع إغاثتكم ولكن الجنرال ميلاديتش بكل تأكيد يستطيع بشرط أن تسلموا لنا سلاحكم. فلم أكن أعلم أن والدي كان في صراع بنفس هذا السؤال. لو كنت أعرف لما طرحت عليه هذا السؤال ولما أزعجته. إن ألمينا قد ذكرتني بتلك الأيام حينما كانت أسئلتي موجهة دائما لله تعالي واليوم كانت حدة الأسئلة أشد. بدا لي كأن ذكاءنا القديم الذي يرجع إلي قرون عديدة مغلق وعليه ختم لا يمكن فتحه وأسلوب القيل والقال القديم عاجز عن تقديم أي رد علي الأسئلة الشائكة.

هل الله سبحانه وتعالي حقا قد غير وعده؟ وهل قام باختيار أمة أخري كي تتولي منصب الأمة المختارة؟ ثم ما هو السبب مثلا في أن ما بين مائتين وخمسين وثلاثمائة ألف من المسلمين وفيهم الأطفال الأبرياء والنساء ظلوا مستهدفين للقتل العام تحت تخطيط منظم ولم يأت الله لإنقاذهم؟

وقتئذ كانت الأسئلة المربكة للإيمان قد وضعت علامة استفهامية علي أسلوب التفكير الديني السائد. واليوم جاء حديث البروفيسور وولف أمامي كتحد جديد.

بعد أداء فريضة صلاة العشاء بقيت جالسا علي المصلي لفترة طويلة أفكر في هذه الأسئلة لكن ماذا أقول إن تجربتي بشأن الذات الإلهية

كانت مختلفة تماما لأنني أكون دائما في معية الله سبحانه وتعالي في كل الأحوال. في السراء والضراء في السفر والحضر وهذا مبعث اعتزاز وتقدير لي. ولهذا كان أمرا صعبا علي أن أؤمن أن الله لم ينظر إلي لأن الله سبحانه وتعالي لو ألقي بعض دنانير النصرة والتأييد في جيب أحد فذاك الشخص يغير مجري الحياة وليس من الضروري أن يكون هذا الشخص رسولا ونبيا. من سقراط إلي ماركس ومن زرادشت إلي غاندي لو لم تكن أفكارهم وأعمالهم مدعومة بنصرة الله وحمايته لما نجحت مساعيهم في إصلاح الأحوال والظروف وانتهت قبل أن تزهر وتثمر جهودهم. بقي أتباع الأنبياء فعملهم ليس فقط تزين التاريخ بل عملهم كتابة التاريخ من جديد ثم لو قام هؤلاء بأنفسهم فمن يستطيع أن يمنع تقدمهم. علي طاولة المناقشات في مختلف برامج "بورل" يتراءي لي كثيرا أن هذه النفوس المضطربة التي تنتمي إلي مختلف الملل والنحل والذين كانوا باحثين عن دنيا الفرحة والسعادة ربما هؤلاء ينتظرون بشدة قدوم أحد. إن البعض يقول أن علامات آخر الساعة بدأت تظهر الآن. وقت المعركة الفاصلة بين الحق والباطل قد اقترب. إن حرب نهاية العالم والمجيء الثاني للمسيح والتنبؤات الأخري حان وقت تحقيقها. في مثل هذه الحالة كثيرا ما أتذكر التعليق البريء لألمينا وهو لماذا لا يرسل الله رسولا لهدايتنا وإرشادنا.

الجزء الكبير من الليل كان قد انقضي لكن النفس لم تقتنع بالدخول في النوم رغم التعب طوال النهار. كان هناك اضطراب شديد قد سري في كياني. وفي هذه الأثناء جاء صوت ضجيج في مكتب الاستقبال ودوي صوت القهقهة المليء بالحياة. ربما فوج جديد للمشاركين كان قد وصل. وبدون تفكير نزلت وفي يدي شمعة. علي الباب الخارجي للقلعة مازال إلي الآن بعض الناس ينزلون من الأوتوبيس.

عرفت أن المؤتمر العالمي للفن والتجارة الذي سيبدأ بعد غد كان قد حضر وفد من لندن للاشتراك في هذا المؤتمر لكن بسبب عدم وجود الضوء الكافي لم تكن وجوه القادمين واضحة. وفي الليلة القمرية وفي ضوء القناديل الخافتة كان يبدو فقط أن هذه النفوس القدسية قد جاءت من عالم آخر. وقد أحاطتهم حالة من السرية والقداسة. في الليلة القمرية نزلت إلي الشارع المنحدر خارج القلعة سيرا علي الممر وذلك للاستمتاع بالطبيعة. في هذا السكون السري عندما تتحرك الأوراق يكون الإحساس كأن الطبيعة تتكلم. لم أكن قد سرت إلا قليلا حتي ظهرت لي من وراء الجبل صورة إنسان عملاق غامض. يا إلهي ما هذا ومن هذا الإنسان العملاق ولماذا هو قادم في الليلة القمرية ويسحب الزلاجة وماذا علي منكبيه؟ أليس هذا هو "ميراز ذو الرأس المقطوعة" الذي جاء ذكره في الحكايات الشعبية لسلوفينيا التي تحكي أن الناس يعتقدون أن أرواح الظالمين والغاصبين تخرج في منتصف الليل وهي مقطوعة الرأس مع الأموال المسروقة والمنهوبة لردها إلي أصحابها وتسأل يا أيها الأصحاب الحقيقيين للمال أخبروني أين أترك هذا المال؟ يقال لو أن شخصا ما تجرأ وقال أوصلوه من حيث كنتم قد أخذتموه فهذه الروح الخبيثة مقطوعة الرأس تنجو. لقد أمعنت النظر إليه وحاولت أن أفهم شيئا ثم تقدمت علي الطريق المحدد لي بخطي سريعة.

وعلي الجانب الآخر من الجبل كان الضوء البراق الخارج من برج الكنيسة قد خفف عني من الغموض المحيط بي ولكن في الأمام كان سكون الغابة حيث الأشجار العالية ويتخللها شارع مسفلت. في الليلة الماضية كان خبر احتفال ظهور بارسي فال مستمرا والبيئة الأسطورية للتمثيلية كانت مليئة بصور القرون الوسطي واليوم عندما أمر وسط هذه الأشجار العالية يخالجني الخوف كل لحظة. لا أدري من أي جانب قد

يظهر لي ميراز ويقوم بإعاقة طريقي وهو العملاق مقطوع الرأس الذي ينادي اليوم أيضا في الغابة والصحراء في منتصف الليل لمن هذا المال المغصوب وإلي أين أعيده؟ فكرت يا ليتني لو أجد في نفسي الشجاعة الكافية وأقول له لماذا لا تعيد مهابة وكرامة الأمة الأخيرة إلي أصحابها الحقيقيين.

الفصل التاسع

مسجد بدون مئذنة

وفي اليوم التالي ربما كانت الساعة الحادية عشر عندما ذهب بعض شركاء المؤتمر إلي المنطقة الخضراء الشمالية بقلعة كاسل بورل سالكين الممر القصير الذي يؤدي إلي نهر دراوا ونصبوا هناك خياما لهم. فنحن نزلنا أيضا بنفس المكان وجلسنا علي المناضد الحجرية نستمتع بالشاي المصنوع من الأعشاب الطبيعية تحت شجرة وارفة بالظل. كثير من الشركاء كان اليوم بالنسبة لهم آخر يوم من أيام المؤتمر والبعض الآخر كانوا يخططون لتجديد نشاطهم وذلك استعداد للاشتراك في المؤتمر القادم. السيد علي كودرا كان اليوم صامتا إلي حد ما والبروفيسور "بريووك" كان مصرا أن أذهب معه لليوبليانا حيث كان يريد أن يتيح لي التحدث مع منظمة المسلمين بسلوفينيا. بدأ يقول: إن في سلوفينيا يعيش حوالي ثلاثين ألفا من المسلمين وستندهش بعد أن تعرف أنه لا يوجد لهؤلاء المسلمين مسجدا بمعني الكلمة فمنذ أربعين عاما كان المسلمون يسعون لبناء مسجد لكن وبسبب المعارضة الشعبية الشديدة والخوف من رد الفعل لم يستطيعوا بناء المسجد. ولكن الآن ظهرت بصعوبة صورة للتفاهم فعدد كبير من المسيحيين المحليين المتفتحين يرحبون الآن بمن يريدون بناء المسجد. وقدومك سيكون سببا في دعم

اتحا د الأ ديان والدكتورة "بيا" أيضا كانت تلح علي منذ أيام أن أقابل المفكر السلوفيني " سلووك جيجك".

سألت البروفيسور "بريووك" لما ذا كل هذه المعارضة بشأن بناء مسجد؟ هل الشعب السلوفيني بحق خائف من المسلمين؟

قال: ليس من المسلمين لأن المسلمين يعيشون بينهم منذ فترة طويلة. إنهم لا يخافون من عامة الناس الذين هم من لحمهم و دمهم لكنهم خائفون من الرموز والعلامات التي تذكرهم بالسيطرة السيا سية للأتراك. بكل تأكيد إنك كنت قد سمعت عن النزاع الذي نشأ في سويسرا قبل عدة سنوات بشأن المئذنة. إن السكان المحليين يعتقدون المآ ذن المرتفعة نوعا من السيطرة الإسلامية ولذلك ليسوا مستعدين لقبولها بصدر رحب. البروفيسور "بريووك" كان مستمرا في إلقاء الضوء علي هذه القضية. قاطع حديثنا فجأة صوت نسائي مرتفع ومألوف يقول: مرحبا يا رفاق كيف الأحوال؟ كانت تلك "مارلين وارنر". جريئة ومفعمة بالحيوية والنشاط كالمعتا د. تفضلي، كيف حالك يا قاطعة الحديث؟ قلت ذلك ر دا علي كلامها.

كان الحديث يدور بيننا حول بناء المسجد في ليوبليانا وقال البروفيسور "بريووك" أن السكان المحليين ليسوا بخائفين من المسلمين لكنهم خائفون من الرموز والعلامات التي تذكرهم بالغلبة السيا سية للمسلمين.

نعم يا سيدي إن رأيي هو أن هذه هي لعبة الرموز والعلامات وليس الدين هو موضوع المناقشة. المسلمون يظنون البرج الطويل المرتفع للكنيسة علامة التدخل الأجنبي في مجتمعهم كذلك يشق علي المسيحيين أن يرتفع الآ ذان خمس مرات من المآ ذن العالية في مدنهم.

فلماذا لا يبني المسلمون مسجدا بدون مئذنة؟ أشار علي كودرا إلي هذا الحل.

مثل هذا المسجد المؤقت موجود من البداية في دير "هاوس" لكن المسلمين يريدون أن يكون لهم مسجدا مبنيا عن عمد. وضح البروفيسور بريووك.

هل يمكن في رأيك أن يتم بناء مسجد دون مئذنة؟ سألني مرة أخري.

نعم يا سيدي لم لا فما علاقة المآذن بالإسلام؟ وهذا الطراز الذي نطلق عليه الطراز الإسلامي لا علاقة له بالإسلام. هذا فقط يدل علي تقدم التاريخ الحضاري للمسلمين والذي ضم إليه الأجزاء الجيدة والمميزة للحضارات السابقة. والمسجد الذي بناه رسول الله صلي الله عليه وسلم في المدينة المنورة بعد هجرته إليها كان خاليا من القباب والمآذن فالرسول لا يصنع أصناما للعلامات والرموز ولكنه يعلم الناس العبودية الحقة وهو يجمع مختلف الشعوب والملل تحت المظلة الربانية ومن أين يتأتي له بأن يصنع علامات لغلبة وانتصار شعوبه علي الشعوب والأقوام الأخري. أيدت علي كودرا. ربما يكون هذا الكلام صحيحا وأصوليا لكن ألا يبدو لك أن يعلو نداء الحق سبحانه وبذلك تزول جلالة وعظمة الأديان ولن يبقي هناك أي فرق بين المباني العامة والمعابد. أشارت الدكتورة "بيا" إلي الجوانب النفسية والاجتماعية للقضية. إذن ينتهي ولا يبقي مادام غير مطلوب من الله سبحانه وتعالي مآذن المساجد وأبراج الكنائس فما الجواز لجعلها أساسا للأديان مادامت تتسبب في النزاعات البينية؟

مآذن المساجد في الواقع بُنيت لرفع الآذان وأبراج الكنائس جاءت في حيز الوجود ليكون جرسها مسموعا لمسافات بعيدة والآن وبعد

اختراع مكبر الصوت ذهبت فائدتها. والآن ما هي إلا علامات ورموز وليست علامات عظمة الله وكبريائه بل هي علامة اعتزاز وافتخار لكل قوم. لكن وللأسف الشديد إن عددا كبيرا من الناس جعلوا صنع ونحت هذه المعالم مبعث قداسة وإكبار بل حسبوها غاية العبودية. وضح علي كودرا بشيء من التفصيل.

نعم يا سيدي إن كلامك صحيح. إن الحماس الزائد في العبادة وكذلك الغلو فيها تتولد منه مشاكل كثيرة والآن عليك أن تنظر لكل المعالم في تاريخ الأديان والتي جعلتها الأقوام والشعوب أغطية وأردية لها لا علاقة لها بالأديان نفسها فصليب النصاري والنجم الداوودي لليهود و"سواستيك" أو "أوم" التابعين للهندوس وهلال المسلمين كل هذه العلامات والمعالم أصبحت جزءا من الملل والنحل في عصور مختلفة من التاريخ وبدأت تُعرف تلك الملل من خلال هذه المعالم. قالها البروفيسور "بريووك" مؤيدا لكلام علي كودرا.

نعم نعم هل أخبركم بشيء؟ ربما تزداد استغرابا أن المسلمين الذين جعلوا الهلال معلما لهم في مقابل الصليب ويحسبونه شعارا لقوميتهم هو في الواقع تاريخيا كان يستخدمه أعدائهم. علي اكتشافي هذا رفعت مارلين صوتها قائلة: "ياه". وجلس البروفيسور بريووك علي مهل.

حقا؟

نعم قبل مجيء الإسلام كان الناس في مكة المكرمة يعبدون القمر وعلم قريش القومي كان موضوعا عليه مونوجرام الهلال ولما انتصر الإسلام انتصارا حاسما علي كفار مكة ذكر القرآن الكريم هذه الواقعة بهذه الكلمات. "اقتربت الساعة وانشق القمر" أي جاءت الساعة التي انكسر فيها القمر.

نعم هل هذه هي خلفية هذه الآية الكريمة؟ أبدي علي كودرا استعجابه من هذا التفسير قائلا: إن هذا التفسير يميل إليه القلب لكن المفسرين الذين كانوا قد وضعوا حول هذه الآية سورا من القصص الأسطورية ولذلك لا تلتفت الأذهان إلي هذا التفسير الهام.

إن مارلين التي كانت إلي الآن صامتة وتسمع حديثنا بكل اهتمام وشغف فتارة كانت تهز رأسها تأييدا وتارة تكون غارقة في التفكير وكأنها مشغولة في تحليل عميق.

"سلمك الله" حاولت مارلين التدخل قائلة: هل من الممكن قمع هذه العلامات والمعالم بشكل مؤثر لكي لا نتشاجر فيما بيننا بسببها. هل من الممكن حذفها أو محوها من دائرة الفكر الديني؟

نعم، لم لا. لأن كل نبي ورسول بُعث في الواقع لقمع هذه الأصنام المنحوتة فجميعهم سعوا لقمع هذه الأصنام القومية التي كانت الشعوب تفتخر بها وقاموا بجمع عباد الله في سلسلة ربانية. لكن القضاء علي هذه المعالم ليس سهلا لأن هذه الأصنام القومية والمذهبية التي تتفاخر بها الأمم تحيا من جديد بأسماء وإشارات مختلفة. إن القرآن الكريم يعبر عن هذه الحالة بالشرك ففيه تفريق وتشتت أهل الإيمان إلي فرق وشيع عبارة عن شرك لكن وعلي الرغم من ذاك الوعيد الشديد فالواقع أن الناس الذين يعدون أنفسهم من المتدينين هم أنفسهم منقسمين إلي فرق وجماعات. إن انقسام المسلمين بين شيعة وسنة ثم انقسامهما إلي عشرات من الطوائف والفرق التابعة لهم وكذلك في النصاري نجد الكاثوليك والبروتستانت ثم انقسامهما إلي عدد كبير من الجماعات والفرق ألا يدل ذلك أن التفرق والجدال باسم الدين قضية مشتركة تحتاج إلي مناقشة جادة وعميقة بقلب مفتوح فحينئذ نستطيع الوصول إلي روح الدين. أردت أن أُفهمها روح العبودية في ضوء الأديان.

قالت: إنه مازال لديكم رونق الحياة الدينية باق إلي الآن والدين متغلغل في الحياة الاجتماعية كعنصر فعال ولذلك فعندما تنشب المشاحنات الدينية بين الحين والآخر في الحياة العامة فالأمر مفهوم ومتوقع لكن عندنا نحن في مجتمع المسيحيين حيث غاب عنصر الديانة من حياة الناس العامة فهناك أيضا تتصادم المعالم والعلامات المذهبية فيما بينها ويبدو أن الديانة هي محض دعامة عاطفية يستخدمها الفريقان في حربهما القومية التفاخرية كعلامة وقصدي هنا الحرب الأهلية الدائرة في أيرلندا الشمالية بين البروتستانت والكاثوليك ولم يتم السيطرة عليها رغم المساعي الحميدة المستمرة منذ قرون.

نعم يا سيدتي حينما تتحول العلامة إلي معلم ففي هذه الحالة يحصل الصنم القومي التفاخري علي دعم مسموم من التاريخ المختلق وعندما تصبح الأقوام أسري لتاريخهم الموضوع فيصبح الخروج من الحصار الذي فرضوه علي أنفسهم أمرا صعبا. لكنني سمعت أن عندكم في أيرلندا الشمالية قد تم الاتفاق علي صيغة مقبولة لدي الطرفين. نظر علي كودرا إلي مارلين طالبا الرد.

نعم قبل عشرة أو اثني عشر عاما قد تم التوقيع علي اتفاقية لاستتباب الأمن بصورة منظمة بين البروتستانت والكاثوليك لكن كل عام وبالتحديد يوم الثاني عشر من شهر يوليو وفي مسيرة "أورنج مان" تشتعل العداوة القديمة من جديد.

هل "أورنج مان" هذه فرقة دينية؟

علي سؤالي هذا قهقهت مارلين وقالت: إنه مصطلح يستخدم للإشارة إلي بروتستانت أيرلندا فقبل ثلاثمائة عام تقريبا كان قد لحق بالحاكم الكاثوليكي الأيرلندي هزيمة منكرة علي أيدي الحاكم البروتستانتي ويليام أوف أورناج. وفيما بعد بدأ الناس ينظرون إلي الحكم البروتستانتي

كرمز للاستعمار الإنجليزي حيث قدم السكان الكاثوليك المحليون تضحيات كبيرة في سبيل إنهاء قهر البروتستانت خلال ثلاثمائة عام مضت. وكانت النتيجة أن حصلت أيرلندا علي الاستقلال وأصبحت جمهورية مستقلة. لكن منطقتها الشمالية حيث يعيش عدد لا بأس به من البروتستانت مازالت تحت سيطرة بريطانيا إلي يومنا هذا. وكل عام في شهر يوليو في اليوم الثاني عشر يُخرج السكان البروتستانت في مسيرة تاريخية حاشدة مصحوبة بجيش من الموسيقيين مع الطبول. وعندما يمرون بالمناطق الكاثوليكية وهم يرتدون حزاما برتقاليا يرفعون هتافات لفتحهم ونصرهم علي الكاثوليك فيشعر السكان الكاثوليك أن هيبتهم القومية تتعرض للذل والعار وحينئذ تتفجر الاشتباكات وتنتشر الاضطرابات.

فلماذا لا تفرض الحكومة حظرا علي مثل هذه المسيرات المستفزة؟

كيف تحظر وهذا التقليد جار منذ مئات السنين. في الماضي كان الحكام البروتستانت يستخدمون هذه المسيرات لإظهار قوتهم وشوكتهم السياسية وكان هدفهم إخافة الأقلية الكاثوليكية وإذعانهم لأنهم عاجزون وضعفاء لا يقدرون علي شيء. والآن تُعد هذه المسيرة مرآة لهوية البروتستانت الدينية وليسوا مستعدين للتنازل عنها بأي حال من الأحوال.

هل السكان الكاثوليك أيضا يُخرجون في مثل هذه المسيرة؟ حاولت معرفة الموقف

نعم إن السكان الكاثوليك لديهم أيضا أبطالهم. ففي كل عام في ذكري تمرد عام ١٧٩٨م يعقدون اجتماعا كبيرا علي مقبرة الزعيم "تهيوبالد وولف تون". وفي هذه المناسبة يلقي كبار طائفة الكاثوليك

الخطب كأنه إعلان أن الحركة الانقلابية لتهيوبالد التي قامت ضد غزاة البروتستانت مازالت حية.

بأية نظرة يري الناس تلك الاجتماعات الدينية؟

حينما رأت مارلين مقدار اهتمامي بخلفية قضية أيرلندا الشمالية ردت: أعلم أنه مثلما تتصادم لديكم في مناسبات مختلفة طوائف الشيعة والسنة فيما بينهم فهنا أيضا يوجد عند كل فرقة تاريخ المظاليم الذي تتذكره كل طائفة بشكل يسمح لها إنزال الجور والقهر علي الأخري وإظهارالبغض والتعصب نحوها. إن التاريخ الذي يدرسه أطفال البروتستانت فيه ذكر مبالغ فيه للمظالم التي تعرض لها السكان البروتستانت علي أيدي الكاثوليك المحليين في أواسط القرن السابع عشر الميلادي. وعلي الجانب الآخر فإن الكاثوليك يذكرون أولادهم بأنه كيف قام البروتستانت الغزاة من انجلترا بالقضاء علي حضارتهم "الغال" ولغتهم وأدبهم وكيف انتزع الكاثوليك المحليون أراضيهم وتعرض مئات الآلاف منهم للفقر والجوع واضطر عدد لا بأس به للهجرة إلي الولايات المتحدة الأمريكية. وإلي يومنا هذا تسخر الحكومة البريطانية من أيرلندا الشمالية وقوميتها.

فهاتان الطائفتان لديهما تفسيرات مختلفة وهي تجعلهما بل تشجعهما للاستعداد للحرب الطائفية في المستقبل.

فلماذا لا تدرس الحكومة في مدارسها التاريخ المعتدل؟

كيف تدرسه والوضع أن للكاثوليك مدارس منفصلة وللبروتستانت مدارس خاصة بهم أيضا. وقد بدأ بناء المدارس المشتركة لكن إلي الآن لم تتعدي الأعداد الملتحقة بها أكثر من ٥ أو ٦٪ من أطفال الفرقتين. وإن سمح لك الوقت فلتذهب لزيارة مدينة بلفاست. ستندهش من أن كل فرقة من هاتين الفرقتين تعيش في عالم آخر داخل هذه المدينة.

مدارسهما منفصلة وإنجيلهما مختلف عن إنجيل الآخر وباراتهم منفصلة عن بارات الآخر. حتي سكان كلتا الطائفتين يعيشون في مناطق وأحياء بعيدة عن الأخري ولكي لا تحدث اشتباكات فيما بينهما أقيمت في بعض المناطق أسوار بالضبط تماما كما هو الحال في مدينة طرابلس بلبنان فعلي جانب من نهر أبو علي يعيش السكان الشيعة وعلي الضفة الأخري منه يعيش السنة. وإن كان في بلفاست في مقابل طرابلس أشياء أخري كثيرة تثير كلا الطائفتين ليل نهار ضد الأخري.

وما هي؟

في حوار مقارن مع مارلين وإن كان يخفي في طياته نقد لاذع لي لكن اهتمامي بهذا الأمر كان أن أعرف كيف يتشابك النسخة الشيعية والسنية من الإنجليز فيما بينهما. بدأت تقول: إنني كلما ذهبت من كندا إلي أيرلندا الشمالية فإن جدران وأسوار بلفاست تترك لدي انطباعا غريبا ومؤثرا فيبدو لي كأن تاريخ البروتستانت الممتد لثلاثمائة عام يدفعني باستمرار للانتقام. وكلتا الفرقتين قد أقامتا في المدينة تماثيل تذكارية لأبطالها ومشاهيرها كل في منطقته والجدران مزينة بالصور التذكارية. وكذلك تجد علي الجدران الشعارات والنعرات. علي سبيل المثال الشارع المسمي "فالس" الذي يقع في المنطقة الكاثوليكية تجد هنا الصور المعلقة ل"بوبي ساندس" الذي قتل في عام ١٩٨١م وهو سجين ومضرب عن الطعام. وعلي الجانب الآخر وبالتحديد في المنطقة البروتستانتية وعلي شارع "شانك هيل" تجد صور أبطال البروتستانت علي الجدران. في هذه المدينة أينما تتجه تجد الصور والتماثيل التذكارية والإعلانات والبيانات المنفرة من الآخر وهي سلسلة لا تنتهي.

ففي المدينة التي تجد فيها كل هذا التاريخ المسموم حيا فهنا لا مفر للشخص أن ينضم إلي فريق ما ويلتجيء إليه.

إن التاريخ سلاح خطير لو لم يعامل بكل حذر فسيكون رده قويا. إن الإنسان من خلال بيانات التاريخ المسمومة ينفخ الروح في التلميحات والمعالم ويستخدمها لأغراضه. لكن نفس المعالم والعلامات عندما تصبح جزءا من التقاليد الحية ففي هذه الحالة لا يفقد الإنسان السيطرة عليها.

أبدي علي كودرا رأيه.

حديث مارلين وإن كان مستمرا إلي الآن فإنني كنت أفكر كم هو خطير التاريخ. وكيف تجعل البيانات المسمومة العقل الإنساني مشلولا. إن القوميين الصرب وتحت تأثير العواطف الانتقامية من التاريخ الموضوع ظلوا يقتلون الناس مثلهم. إن البيانات المضللة للتاريخ كانت قد حولتهم إلي وحوش. إن الكتابات التاريخية والتدوين التاريخي للبروتستانت والكاثوليك جعل منطقة أيرلندا الشمالية مسرحا للحرب الطائفية. وكل مسعي حميد لاستتباب الأمن عاجز عن كبح جماح البيانات المسمومة. وعندنا نحن المسلمون التفرقة العنصرية بين الشيعة والسنة علي أشدها بسبب هذا التاريخ وهو التاريخ الذي نظنه غير صالح للتحليل والنقد. فكل الروايات الأساسية عن القرن الأول التي تتحدث عن الخلافات البينية بل التنافر والجدال والقتال والتي تقدم سيدنا عمر وكأنه عدو للسيدة فاطمة وسيدنا علي. وعند قراءة هذه الروايات يبدو للواحد منا كأن الرسول صلي الله عليه وسلم وبمجرد أن أغمض عينيه فإن أصحابه القريبين منه الذين كانوا رحماء بينهم قد سلبت منهن صفة الرحمة. ولهذا السبب فالمسلمون إلي يومنا هذا يجدون أنفسهم منقسمين بين معسكرات أبي بكر وعلي.

كل هذه القصص الموضوعة والمختلقة والبيانات التاريخية هي في الواقع نتاج للدعاية السياسية إلي حد كبير لكن المشكلة أن هذه الروايات

المضللة قد حصلت علي مكانة ذات قداسة في تاريخ المسلمين بحيث يعتبر وضعها علي طاولة التحليل والنقد مخالفا للإيمان.

وقت الوداع من المجلس ربت علي كودرا علي كتفي قائلا: إن التاريخ الموضوع كعقاب الرب لو أردت تركه فهو لا يتركك.

الفصل العا شر

الحبس الحضاري

كانت هناك اليوم علي بوابة كا سيل بهجة أكثر من ذي قبل. بالقرب من المقهي وفي الخضرة الوا سعة كانت الطاولات ذات المظلات المستديرة المزينة. وفي خضم فوضي الغداء والوداع كان الوافدون الجدد الذين جاءوا للاشتراك في مؤتمر الفنون والتجارة الذي سيبدأ بعد يوم. وعلي مقربة منا كان هناك أوتوبيس منتظر للذهاب إلي المطار. وكانت كلمات مثل "أراك عما قريب \ اعتن بنفسك \ و داعا" مصحوبة بالمصافحات والعناقات الوداعية مستمرة. ولم يكن حوار اليوم بنفس الحرارة التي كانت من قبل. البروفيسور "بريووك" كان يبدو مهموما إلي حد ما. وعلي كودرا كان غارقا في أمر ما. كان هناك حزن غير ملموس قد سيطر علي كل شيء. وفي هذه الأثناء رأيت الدكتورة قادمة مع وافد جديد وبعد الوصول إلينا بدأت تقول: انظر كيف أحضرت لك صديقك من بعيد.

باسم؟ يا إلهي إنه باسم البنا. خرج علي لساني دون انتظار. رفع باسم الصوت "مولانا" من شدة الحب وعانقني قائلا: كان برنامجي الوصول هنا مساء لكن بمجرد أن خرجت من المطار قابلت الدكتورة بيا قريبا من مكتب استقبال المشاركين في المؤتمر وربما جاءت لتوديع

شخص ما إلي المطار فجئت معها مباشرة. ووقت حلول المساء سيأتي بعض طلاب جامعة "ليوبليانا" وأصدقاؤنا هنا.

بقدوم باسم إلي المجلس كان قد سرت فيه روح جديدة وبدأ الحديث لفترة وجيزة. أنهي حالة الحزن التي كانت قد سادت اجتماعنا.

إن باسم تاجر ناجح لكن أمور الأمة هي المحور الحقيقي لاهتمامه ويفوق مجال التجارة. إنه من شباب مصر الذين جعلوا لأنفسهم مكانة مميزة في مجال النظم والمعلومات في مدة قصيرة حتي وصل إلي أسواق أوروبا وأمريكا. لكنه طوال رحلته للتجارة هذه ظل متحمسا حذرا لجمع شتات الأمة وتوحيد كلمتها.

فهل حضرتك قادم مباشرة من القاهرة؟

إن البروفيسور "بريووك" الذي كان قد تعرف إلي باسم إلي حد كبير أراد إحياء الكلام لذا قام بتوجيه هذا السؤال الرسمي.

ليس مباشرة بل إنني قادم عن طريق لندن.

كيف تبدو الدنيا من القاهرة؟

قصدي بأي نظرة يري أهل القاهرة الدنيا؟ أراد البروفيسور توضيح سؤاله.

رد باسم علي السؤال بإجابة في الصميم. قال: إنك قد سألت سؤالا مهما. يمكنك أن تحسب أن هناك ثغرة وهي تزداد اتساعا باستمرار. إنها ليست مقصورة علي القاهرة فقط بل هذا هو حال جميع المراكز الموجودة بالشرق والتي كانت في يوم من الأيام عواصم علي مستوي العالم سواء كانت المدينة المنورة أو مدينة دمشق أو بغداد أو القاهرة أو طهران أو غرناطة أو دلهي أو اسطنبول. في جميع تلك المدن كانت الحياة خالية من الحوار وعلي الرغم من توافر كل وسائل الرفاهية لكن هناك شعور غالب بالعجز وقلة الحيلة.

حقا؟

التفت إليه البروفيسور وقال: إن كان هذا الشعور في الشرق فلا عجب. هنا في منطقة البلقان يبدو لنا كأننا في حاشية الحضارة ولا حيلة لنا في تحديد وجهة الحياة.

لكن هذا الإحساس خاص بنا نحن أهل الشرق الذين ينتحبون منذ فترة طويلة علي انتقال مركز الحضارة ويبدو لهم المشهد الحالي مع تداول الأيام أن مركزها أصبح أوروبا علي المستوي العالمي.

قال: لا تقل بأنها ذات مركزية أوروبية فكل هذا كلام قديم والآن المشهد المعترف به في الدنيا هو ما Ninth Avenue يُري في Ninth Avenue?

قال: في وقت من الأوقات كان قد اشتهر أيضا رسم "سول ستيمبيرج" وكانت الدنيا قد رسمت فيه وكأن مركزيتها بمنهاتن. والناس الذين يعيشون علي الناينث افينيو فهم يرون المناظر الأمامية المتقدمة لنهر هدسون ضبابية غير واضحة فلا يهم أن العالم المتحضر ينتهي عند ضفة هذا النهر.

كودرا: كلامك صحيح فالقضية ليست أين تقف أنت وماذا تري بل القضية هي ماذا نريد أن نري؟ فإن ازداد ضباب التعصب علي العقل والقلب فالحضارات في هذه الحالة تتعرض للنرجسية وبدلا من الحضارات العالمية الأخلاقية تتولد الحضارات المحلية وينشب فيما بينهم نوع من النزاع والصراع الذي لا ينتهي أبدا. ثم إن هذه الظروف تلد نوعا من العمي الحضاري.

لا أدري كيف نصف تلك الحالة بألفاظ ما بعد حداثية؟ سألت البروفيسور بريووك.

قال: إنني أري أن حبس الحضارة بهذه الكيفية لم يتم إدراكه بعد فكتابات هنتكتن وفوكوياما نفسها نتاج لهذا الاحتباس الحضاري الذي لا يدل علي أن الثقافة الأوروبية والأمريكية محلية النوع. لماذا تعد نفسها خطأ حضاري مكتمل الأركان؟

في رأيي أن القضية لها جانب تجاري أيضا أكثر من كونها حضاريا. تدخل كودرا.

قال: إن أغاني وألحان الغرب والأفلام والموسيقي حتي طريقة الأكل والشرب كل تلك يتم تصديرها مثل الأمتعة والأدوات التجارية. ولها أيضا دخل كبير في حدوث تصادم بين الشرق والغرب. وهذه الثقافة ذات اللون الواحد والبرجر والماكدونالدز التي نعاني نحن من سوء ذوقها فسبب ذلك هو أننا غاضبون لا شعوريا من هذا الغزو الحضاري. في البداية كانت تحسب عادات وتقاليد الأكل والشرب الأمريكي وأغانيها وألحانها كنوع من الاحتفال لكن الآن يبدو لأهل الشرق أن هذه المطاعم للأكلات السريعة من رموز الاستعمار. ولقد أشعلت هذه الظروف فتيل النزاع بين الشرق والغرب.

إن باسم الذي كان يسمع هذا الحديث بصمت إلي الآن انتفض من مكانه علي تحليل كودرا هذا وقال: نعم إنه اضطراب سواء أكان في القاهرة أو دمشق أو بغداد أو في طهران ففي كل مكان يوجد نوع من الذعر والقلق والانزعاج. في مجالس أهل الحل والرأي يقول الفطناء منهم: سيحدث شيء ما في القريب العاجل.

هل يبدو لك أن العالم العربي سيتعرض لانفجار شديد؟

أراد علي كودرا أن يقرأ أفكار باسم.

نعم، يبدو ذلك. ففي هذه الأيام نوع الكتابات التي تظهر سواء الآثار والروايات كيف يتم تبرئتها لا يمكن أن يُغض الطرف عنها مطلقا. إنك بكل

تأكيد تعرف السيد سعيد أيوب وكتابه المسيح الدجال الذي صدر لأول مرة في عام ١٩٨٧م. يبدو أن وقت ظهور هذه التنبؤات قد اقترب.

عجبا! معني ذلك أن العالم العربي أيضا مصاب بهذه الحمي؟

سأل البروفيسور بريووك من الحيرة والاهتمام.

نعم يا سيدي فعندنا نص ديني بهذا الرأي فقد جاءت في الروايات أن سلطة الدجال سوف تكون علي الدنيا بأسرها ماعدا مكة والمدينة.

فهل عندكم أيضا نفس الترتيب للأحداث التي يذكرها كثيرا التبشيريون المسيحيون؟ هل العالم الإسلامي أيضا في انتظار المسيح مرة أخري؟ أراد البروفيسور بريووك أن يعرف ذلك بشكل خاص.

نعم في كتبنا هناك نص مكتوب منذ زمن بعيد أن السيد المسيح سينزل في دمشق علي المئذنة البيضاء من بين السحب وإن كان سعيد أيوب قد حاول لأول مرة في التاريخ إيجاد تطابق بين المراجع المسيحية والإسلامية إذ ظهرت مشاهد المستقبل بكل دقة فحسب رأي سعيد أن الدجال فرض وفي نفس الوقت حضارة يظهر طابعها في كل مرحلة من مراحل التاريخ النصراني الأوروبي فنمو المسيحية في أوروبا والحروب الصليبية والثورة الصناعية والحركة التنويرية والحربان العالميتان ثم بعد ذلك سلسلة حروب الخليج كل هذه في الواقع إثبات علي نجاح الخطة الدجالية باستمرار. هذه الفرية والخدعة منظمة ومحكمة ولا ندري كم من المؤسسات والحركات من أمثال (فري ماسونس – مورمونس – جيهوفاس ويتنسز) وغيرها تعمل ليل نهار لهذا النظام الدجالي.

لكن ما هو السند العلمي لهذه الأحاديث والأمور؟ اعترض البروفيسور بريووك.

هذه الأحاديث حرفيا مصداقة لما ورد في الكتب الخاصة بالأناجيل مثل (ريفيليشن – دانيل – إيزاكيل – إيساياه) وإن جاءت

تعبيرات سعيد صحيحة ففي كتاب "ريفيليشن" المراد من "نيو جيرو سالم" الكعبة حيث يتدفق زمزم "ريفر اوف لايف" في صورة عين الحياة. وما العجب أن يكون قدوم المسيح مرة أخري نوعا من الاستعارة المحضة. فإن كانت الإشارة "نيو جيرو سالم" إلي مدينة مكة فإن عودة المسيح يمكن أن يحمل أيضا علي ظهور محمد أو غلبة دينه.

عجبا! قال البروفيسور متماسكا. هذه الأمور جديدة بالنسبة لي. هل توجد هناك أيضا عقيدة مجيء محمد من جديد بين المسلمين؟ أراد البروفيسور بريووك توضيحا مني ولكن قبل أن أتفوه بكلمة وضح باسم قائلا: لا إنها ليست من عقيدة المسلمسن. هذا فقط ظن سعيد أيوب وبسبب هذا الظن تعرض أيوب لكثير من القيل والقال. وإن كان يعد هذا التعبير رأيه الشخصي لكن بقدر ما هو مطلع علي المصادر والمراجع والتوراة والإنجيل فلا يمكن رد حديثه بالمرة. ثم أن الظروف أيضا تتجه إلي هذا الجانب. والبراهين والقرائن تشير إلي أن ظهور المهدي قد اقترب وقته. هناك شخص بنفس اسمي باسم جرار وهو من قادة حماس المعروفين وله كتاب " سقوط إسرائيل عام ٢٠٢٢م". منذ اليوم الذي صدر فيه الكتاب والحضارة الدجالية يبدو أنها تقترب باستمرار من مصيرها المحتوم.

باسم جرار؟ خرج من علي لسان علي كودرا ارتجاليا.

كل هذه أساطير. قالها كودرا بكل حسم.

لكن الأحداث التي تقع باستمرار كيف يمكن رفضها من غير أن تصدقها. أراد باسم أن يدافع عن الشخص الذي يحمل اسمه. قال: من أقوال باسم جرار أن دولة إسرائيل ستبقي لمدة ٧٦ سنة قمرية وتنقسم

هذه المدة لأربعة مراحل وتكون السنة السادسة والثلاثون نهاية عروجها ثم يبدأ الانحطاط وبعد ذلك تسقط دولة إسرائيل عام ٢٠٢٢م.

أخي العزيز كل هذا محض افتراء وقصص وأساطير واهية. ظهر في أسلوب كودرا فجأة شيء من اللين وقال: إن المراجع الخاصة بالأناجيل والتعبيرات النصرانية الخارقة للعقل لم تكن صالحة للاعتماد عليها لدي المسلمين. واليوم لو بدأنا محاولة رؤية المستقبل من خلال هذه المصادر الصالح منها والطالح فهي تزج بنا إلي نظرية ضبابية جديدة. لكن مثل هذه الأحاديث توجد في كتب الآثار وتعد جزءا من تراثنا. أراد باسم محاولة إدخال صبغة علمية في حديثه.

التراث؟ إنك قد استخدمت كلمة صائبة في محلها. فليكن معلوما أن أساس الدين علي الوحي وليس علي التراث. فالتراث يكون بيتا اجتماعيا للشعوب ويتم فيه جمع مختلف المصادر والمراجع (الغث والسمين) وكل ما يدخل في شعورنا الاجتماعي يكون فيه ما يتعلق بالعلم والحكم ويكون فيه أيضا الصواب والخطأ والأمور التافهة. ومسئولية أهل العلم أن يخبرونا عن حقيقتها. هل هي من نوع الغث أم السمين؟

فلماذا لا يؤدي أهل العلم عندنا هذه المهمة؟ قال باسم بشيء من الانزعاج.

نعم يا أخي لا يصح اتهام أهل العلم والحق بأن بعض الأحاديث تكون من قبيل الأماني وتتعود الشعوب المهزومة علي مثل هذه الأمور ولا تقتنع أبدا بتركها وإلا فكبار محققينا من ابن حزم إلي ابن خلدون أنكروا واعترضوا علي عقيدة ظهور المهدي وعودة السيد المسيح من جديد.

ولماذا تذهب بعيدا فمن زمن قريب لم يكن أولئك وحدهم من القلة الذين عارضوا بشدة مثل هذه الأساليب الفكرية ذات الأساطير. فمفتي الديار المصرية الشيخ محمود شلتوت والعالم الهندي عبيد الله

السنديوأبو الكلام آزاد وأصحاب الفكر والرأي هؤلاء جميعا قاموا بإبطال هذا الرأي بشدة. وهناك بيت لشاعر الشرق محمد إقبال يقول فيه: انظر إلي نزول ربك علي مئذنة قلبك واترك انتظار المهدي وعيسي.

إقبال اللاهوري كان عبقريا. ذكر علي كودرا اسم إقبال بصوت عال كأنه وجد سندا قويا وقال: ربما تتذكر أن في حرب الخليج عندما نزلت الجيوش المتحدة في مقابل صدام حسين ففي ذلك الوقت كان قد نُشر حديث غير مألوف كان قد جاء فيه أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال: سيأتي وقت عندما يأتي البيض (بنو الأصفر) والشعوب النصرانية (روم) مع مصر في مقابل شخص صادم (صدام) ولن يرجع أحد منهم. ففي تلك الأيام كان قد احتد الأمر بين أصحاب الأساليب الأسطورية بسبب نشر هذه الرواية. واليوم أيضا فإن الذكاء المسلم متوقف. مع هذه الكلمة برز أسلوب كودرا المتألم. بدأ يقول: مازلنا متعودون علي أسلوب الفكر الأسطوري. وليست هذه قضية عوام الناس بل هي حال مفكرينا. توقف مع هذا الكلام علي كودرا قليلا كأنه يريد أن يتذكر شيئا ما ثم قال بعد برهة: لعلك تستغرب أن في عام ١٩٩٣م عندما ظهر احتمال قيام دولة فلسطينية في غزة وأريحا نتيجة اتفاقية أوسلو خرج الهواء من بالونة المفكرين المؤمنين بالأساطير. ففي ذات الوقت وبدلا من تصحيح طريقة فكرهم لجأ هؤلاء إلي قبة أسطورية وظنوها المنجية فيها. مؤلف كتاب أريحا (أي المدينة الملعونة) وهو محمد عزت عارف قرر أن قيام الدولة الفلسطينية الجديدة جزء من الخطة الدجالية وهي حسب قوله تمنح للفلسطينيين لأنها منطقة ملعونة وقد جاء في الإنجيل أن لعنة الله علي من يعمرها من جديد.

عجيب! خرجت من علي لساني هذه الكلمة عفويا.

قال: نعم لعلك تستغرب أن الأحباب قد عثروا علي مسمي الانتفاضة الفلسطينية أيضا في صفحات الإنجيل فحسب أقوالهم أنها مذكورة في الإنجيل. حتي ا سم الرئيس بيل كلينتون مذكور حسب قول شخص منهم حيث جاء في النص "سأعاقب بيل في بابيليون" والمقصو د ببيل الرئيس بيل كلينتون وببابيليون الولايات المتحدة الأمريكية. عندما تصبح ضبابية الأ ساطير مسيطرة علي العقل والقلب ففي هذه الحالة لا يري الشخص إلا ما يريد أن يراه ويسمع ما هو مقنع للآ ذان. أ صدر علي كو درا حكمه علي أ سلوب الإفتاء وقام غاضبا كأنه ضاق ذرعا من مثل هذه الأحا ديث. وعلق شنطته علي منكبه منطلقا نحو مقر إقامته.

فكرت أن با سم مسلم مواس ومضطرب فربت علي كتفه كي لا يكتئب من الحديث الصريح لكو درا وقلت له: يا با سم إن الماء عميق جدا وكو درا هذا ليس من السهل فهمه أيضا.

والبروفيسور بريووك ربما كان يريد أن يتسع الحديث لكن الأوتوبيس الذاهب إلي المطار كا د أن يتحرك وفي هذه الحالة قمنا لتحية المشاركين الذين سيو دعوننا.

الفصل الحادي عشر

الابتسامة البريئة

مساء اليوم لم يكن هناك أي برنامج خاص ففكرت لم لا أقوم بترتيب ووضع بعض النقاط للحوار القادم. قمت بجمع بعض الأوراق الضرورية ووضعتها في حافظة الأوراق وانطلقت نحو حديقة الحصن. كان الهدوء التام يخيم اليوم علي حديقة الحصن ووقت غروب الشمس كان يبدو منظر نهر دراوا من قمة الهضبة ساحرا وخلابا. وفي الآفاق البعيدة وبين السحب الداكنة كان يبدو لي أنني قد أصبحت مضيئا بأشعة الشمس الذهبية. بالإضافة إلي ذلك كان هناك تناغم عجيب وهدوء وصمت تام. نزلت من حديقة القلعة وجلست علي التل المقابل حيث يشعر الإنسان كأنه قد ترك الدنيا وراءه بعيدا. كوني أصبحت معزولا فلم تحدث لي هذه التجربة الكاملة إلا في جزيرة فنلندا في "ماري هام" واليوم بدأت أشعر بنفس الإحساس في بورل حيث كان يبدو لي وكأنني قد نزلت من كوكب الأرض الدائر الراقص بهدوء وضمتني الطبيعة المهيبة المليئة بالأسرار في أحضانها من كل الجهات. وأحيانا تتولد ذبذبات صوتية من تغريد الطيور لكن هذه الأصوات بدلا من أن تخل بالهدوء يبدو أنها تحللت إلي سيمفونية مصاحبة. وقد سرحت في هذه المشاهد والمناظر الطبيعية بحيث لم يتسن لي فتح حافظة الأوراق. وكانت تغمرني نوبة سعادة لا يمكن وصفها بعدما كانت تسلب قلبي

ونظري وعقلي. كان يبدو لي كأنني أصبحت جزءا من هذا المشهد الطبيعي وكأن هذا الجزء من كون الله الواسع وهذا المشهد لآفاق نهر دراوا من فوق تل هذا الجبل كان ناقصا من غيري.

لا أدري إلي متي ظللت أسيرا لهذه المناظر الطبيعية لو لم يأت صوت نسائي مألوف قطع تسلسل هذا الاندماج.

حسنا فحضرتكم جالس هنا مختفي. كان هذا صوت مارلين. وأضافت: إنني أبحث عنك منذ وقت غير قصير وقد أجلست أصدقاءك في الكافيتريا.

أخذت حافظة الأوراق وعدت إلي حديقة الحصن بعد اجتياز الأحجار غير المستوية بكل حذر. كان يبدو لي أن شخصا مجهولا جاء وقام بفصلي فجأة من مآخذ الهيبة والجبروت. مرة أخري ألقيت نظرة نحو الأفق بعدما تلفتت إليه. كانت هناك حالة عجيبة لا شيء يمكن أن يقلل من هيبتها وسريتها. ووقت العودة أحسست بنوع عجيب من الفرحة والطمأنينة. كل عضو من أعضائي كان نشيطا ولم تكن قدماي تطأ الأرض. كانت هناك حالة من فقدان الوعي وكانت النفس ترغب في أن أظل أقفز مدة طويلة.

خارج الكافيتريا كانت الطاولات ذات الشماسي المستديرة لاتزال موجودة وباسم الذي كان مشغولا في الحديث مع اثنين أو ثلاثة من الشباب قام لتحيتي بكل حب وقال: قابل ياسر فإنه من أحبائي. إنه طالب علم يدرس الإدارة بجامعة ليوبليانا وقد جاء مع أصدقائه للاشتراك في المؤتمر. وهذا عبد الحميد.

نعم، إنني من كشمير. وجئت هنا ضمن برنامج التبادل الثقافي. إنه شاب وسيم ذو شعر منكوش. عرف نفسه بنفسه.

وأنا اسمي محمد فالح. أنا من كوسوفا.

فهل حضراتكم جئتم هنا بنية الاشتراك في المؤتمر أساسا؟

نعم، كثير من الطلاب والأساتذة من شعبتي وكذلك من أقسام الفن والموسيقي أيضا سيلحقون بنا للاشتراك في المؤتمر. وصديقنا محمد فالح في الأساس رسام.

حسنا! قلت ناظرا إلي فالح مشجعا له. ماذا تصنع في رأسك؟ أردت جس نبضه. ظهرت علي وجهه ابتسامة مبهجة وقال: الابتسامة.

ماذا تعني بالابتسامة؟ أردت استثارته أكثر. فبدأ يقول: منذ ست أو سبع سنوات وأنا أحاول رسم وجه عليه ابتسامة طبيعية غير مصطنعة لكن إلي الآن لم أنجح في هدفي هذا. لكن من شاهدوا رسوماتي يقولون إن كلها تبتسم لكن عند إتمامها تبدو لي أن الابتسامة الفطرية الطبيعية كادت تأتي في قبضتي لكنني لم أستطع إمساكها.

لكن ما هو سبب هذا التعطش؟ هل حاولت في أي وقت تحليله؟

قال: إن الابتسامة ما لم يكن فيها هيام ولم يكن يتدفق نبعها من القلب والفكر فإنه يخيل إلي أنها مصطنعة لفتاة بائعة في الأسواق.

فهل تظن أن فرشاتك في يوم من الأيام تستطيع أن تلمس الابتسامة الحقيقية؟

ربما لا. فوجئت برد فالح هذا غير المتوقع.

فلماذا لا تترك هذا العمل؟

قال: غير ممكن لأنني ربما لا أستطيع الحياة بعد ذلك.

رد فالح هذا جعلني أزداد في حيرتي واندهاشي ولعله كان قد تفطن إلي استغرابي هذا ولذلك قال: إن رسم الابتسامات لي ليس بسبب عشقي للرسم ولكنه بالنسبة لي قضية حياة.

البحث عن الحقيقة سعي موهوم فالذين يحرمون من الابتسامات الحقيقية لا حيلة لهم إلا أن يظلوا متعلقين بالابتسامات عن طريق الورقة

والقلم. مع هذه الكلمة دمعت عيناه. توقف للحظات وظل ينظر في الأفق البعيد كأنه يحاول مسح دموعه.

ثم قال: إن الذين لا يستطيعون أن يمروا بتجربة ابتسامات حقيقية فأني لهم أن يرسموها؟ مع هذا الكلام بُح صوت فالح. كان يبدو كأنه يريد أن يقول المزيد. لكن ولسبب ما جلس بعدما وضع سدا علي إحساسه.

كان قد حان وقت صلاة المغرب. إن ياسر الذي كان قد تفطن لحساسية الموقف قال ناظرا إلي الساعة: لم لا نؤدي صلاة المغرب علي هذه الخضرة؟ وعبد الحميد أحضر من سيارته رداء مخمليا ذا لون أحمر. وبعد مرور أيام عدة قمت بأداء الصلاة بالجماعة علي أرض بورل تحت السماء المفتوحة حيث كان العقل يشتبك مرة تلو الأخري مع أسطورة بارسي فال. من كان يتخيل أنه وبعد قرابة ألف عام سيدوي صوت الأذان في قلعة المحارب المسيحي.

فالح كان لايزال مشغولا في أداء السنن وعندما رأيته مستغرقا في العبادة بهذا الشكل ازداد حبي له. إن الكارثة التي تعرض لها مسلمو البلقان قد جرحتهم من الداخل بشدة حيث لا يمكن لهم أن يحصلوا علي ابتسامة طبيعية وعفوية أبدا علي الأقل لهذا الجيل. ظهرت في ذهني صورة طفل رضيع كانت قد نشرت في الجرائد بعد المجزرة والإبادة التي حصلت في سربرينكا. كان الطفل البريء المقتول علي يد والده وعلي وجهه ابتسامة بريئة مليئة بالأسرار. وكل من كان يلقي عليه نظرة حتي ولو كان يحمل بين ضلوعه قلب أسد تدمع عيناه. هذه الابتسامة البريئة كانت قد ظهرت وقت حفر المقابر الجماعية. قلت لنفسي إن الطالب فالح صادق في كلامه. مادامت هذه الأمة تتعرض كل لحظة في المناطق المختلفة من الدنيا إلي سربرينكا جديدة (مجزرة) فمن أين ستعود الابتسامة الحقيقية علي شفاههم. لكن القضية معقدة أكثر من

ذلك. حسب قول كودرا فإن شيئا أساسيا قد انكسر داخل المسلمين. الشخصية الانفصامية والتفرق الطائفي كل هذه أمراض نفسية بل إنها علامات تشتت كأن وجود أمتنا معرض ليكون مثل سربرينكا علي المستويين الداخلي والخارجي. سربرينكا الخارجية نحن نطلع عليها لكن سربرينكا الداخلية كثير منا لا يستطيعون حتي إدراكها.

الفصل الثاني عشر

عجل السامري

بعد أداء فريضة الصلاة و صلنا إلي الرواق الخارجي لكا سيل حيث يوجد ممر ضيق يو صل الناس إلي المصلي الكنسي. وفي الداخل كانت مصابيح الغاز علي الطراز القديم مضيئة والبروفيسور "بريووك" و"علي كو درا" كانا موجو دين هناك منذ البداية. لم يكن هذا مصلي كنسي بل كان في الواقع عبارة عن بيت من الطلاسم. فالضوء الذي كان يخرج من مصابيح الغاز كان يجعل هذا المكان أكثر غموضا بدلا من أن يضيء ما حوله. أيضا تزيين الجدران ووضع الأجراس المعلقة من مكان إلي آخر والطوالع والنقوش والسبحات ذات الألوان المختلفة وأشياء أخري كثيرة كانت موجودة هنا. كان يبدو وكأننا قد نزلنا في سرداب من سراديب أهل مصر أو كأنه غار من قبيل غار أصحاب الكهف حيث لم يطرأ أي تغيير منذ مدة والزمن وكأنه توقف. وحين بدأت أألف هذا المكان عرفنا أنه ليس مصلي كنسي محض بل متحف روحاني بمعني الكلمة حيث جمعت آثار الرهبان وعلامات العابدين بشكل منظم. إنني قد رأيت في الطابق الأمامي عقدا من الطراز القديم فرفعته وبالنظر إليه بدا لي أنه ساعة الجيب لكن في الداخل بدلا من الساعة كانت هناك قطعة صغيرة جدا من عباءة "سانت بيدرا بيو" وقد تم حفظها هنا تيمنا وتبركا. وفي داخل العقد كان مكتوبا بشكل دائري عبارة معناها أن هذا الأثر لسانت

بيدرا بلا شك وقد وثقته السلسلة الروحانية لبيدرا بيو بنفسها. وعلي الوجه الآخر للعقد كانت هناك صورة لسانت بيدرا بيو. وقريبا من العمود المركزي للكنيسة الصغيرة هذه كانت هناك سبورة ذهبية وعليها طغرة ذهبية وفي داخلها أجزاء من العظام البالية وقد تم ربطها بخيوط حمراء كانت قد وضعت داخل هذا البرواز.

في بيت الطلاسم هذا حيث تتلاقي الأرواح والآثار وأنا منهمك في معرفة ما فيه أرادت مارلين بل كانت متشوقة لكي تعرف بسرعة انطباعاتي. بدأت تقول: دكتور شاز هل لديك علم أن من يلمس هذه الآثار أو يشاهدها بنظرة طالبة للمعجزات فإنه لو دعا بشيء في هذا الوقت فيستجاب لدعائه في تلك الحالة.

لكن الشرط أن يكون إيمان السالك (المريد) محكما غير متردد. أعطاها علي كودرا اللقمة مبتسما.

كنت أظن أن المجتمع اللاديني لأوروبا لا دخل للدين فيه إلا بقدر يسير لكن الأجراس التي تدق في سلوفينيا وهذه الكنيسة الصغيرة في بورل بزينتها ورونقها تؤكد أن المجتمع الجديد للغرب مازالت تحيا فيه أوهام وخرافات وتصورات القرون الوسطي.

ليست حية فقط بل بدأت الآن تزداد هذه الأمور. علق البروفيسور بريووك. وأضاف: إنك تندهش عندما تسمع أن قريبا من هنا توجد منطقة اسمها "ميدي جورئي" وهي من مناطق النصاري الكروات. لم تمض عليها فترة طويلة بل يرجع الأمر بالتحديد إلي فصل الربيع لعام ١٩٨١م إذ ادعي بعض الصبية أنهم شاهدوا علي جبال سربرينكا السيدة مريم عليها السلام. ليس يوما أو يومين بل امتدت المشاهدة لأيام. من أقوال هؤلاء الصبية أن السيدة مريم ظهرت ذات يوم وفي حضنها طفل مولود. لقد كانت جميلة جدا مليئة بجمال السماء. أمرتنا أن ننشر رسالة السيد

المسيح بأنه ليس هناك طريق آخر للقضاء علي ظلام الدنيا الذي بدأ يزداد يوما بعد يوم. ومع مرور الأيام أصبحت هذه الحكايات جزءا من الحوار الشعبي والراهب المحلي حينما رأي هذا الحماس أولي هذا المكان إشرافه ورعايته. والحكومة الشيوعية في ذاك الوقت بدأت تلقي القبض علي من يشيع هذه الشائعات وألقت القبض علي الراهب نفسه أيضا. لكن وعلي الرغم من هذه الإجراءات الحكومية فإنها لم تستطع منع استمرار ظهور السيدة مريم. والحالة الآن أنه قد أقيم في هذا المكان تمثال كبير للسيدة مريم والزوار يتوافدون عليه باستمرار. إن هذه القرية النائية حيث لم يكن هنا شيء يذكر حتي أمس لكنها تحولت اليوم إلي مزار شهير وتوجد هنا مئات من الفنادق. يقال أنه يأتي هنا كل عام مليون سائح لزيارة هذا التمثال.

نعم يا سيدي لقد صدقت. إن أسطورة قرية "ميدي جورئي" قد تكونت أمامي. كل هذا تجارة الإيمان وأمام الإيمان واليقين يجد العقل نفسه عاجزا. مع هذه الكلمة رفعت مارلين فنجان القهوة وسحبت الكرسي لتجيء في وسط المجلس وكأنه قد طرأ في ذهنها فجأة رأي ما وسرت علي وجهها حالة من النشاط. قالت: لعلكم لا تعلمون حكاية "سانت روزاليا". كانت فتاة عابدة وزاهدة ظلت مشغولة في العبادة لسنوات في الغار وبسبب كثرة المجاهدة والشوق إلي المشاهدة لم تستطع الحياة لفترة طويلة إذ لحقت في سن الشباب بالخالق الحقيقي. ولقرون عديدة ظلت عظامها مدفونة في هذا الغار إلي أن انتشر في عام ١٦٢٣م مرض الطاعون في منطقة بالرمو. وفي تلك الظروف العصيبة رأي كثير من الناس في المنام هذه الراهبة الشابة التي كانت تقول لهم في المنام أن عندي وصفة للنجاة من هذا الوباء. يقال أن الناس قاموا بحفر الغار وأخرجوا عظامها وفي شوارع بالرمو مرت مسيرة للمؤمنين بها مع

هذه العظام. وباء الطاعون توقف علي الفور. ولمدة طويلة ظلت هذه العظام محورا للمعتقدات وظل الناس يتحصلون علي بركاتها وذاع صيت معجزاتها بين الناس. وفي عام ١٨٢٥م وصل باحث بريطاني وهو "ويليام بيلكليند" وعاين هذه العظام عن قرب فعرف أنها في الواقع ليست عظاما بشرية بل هي عظام معزة ما لكن المصيبة أن هذه العظام مازالت موجودة إلي الآن في كنيسة بلرم علي أساس أنها آثار مقدسة للراهبة ولم يحدث أي تغيير في حصول الناس علي البركة من هذه العظام.

ما موقف الكنيسة في هذا الشأن؟ حاولت معرفة حقيقة الموقف من البروفيسور بريووك.

قال: منذ زمن بعيد وعندنا رجال الدين المسيحي معرضون للمجاعة فهم يعلمون جيدا أن إصلاح انحرافاتها في الواقع نفي لوجودها فلا يستطيعون الرجوع عن هذه المعتقدات المزيفة ولا يستطيعون أن يخطوا إلي الأمام. وهناك كنائس في ألمانيا حيث توجد الهياكل البشرية الكاملة للرهبان النصاري. وهي قد وُضعت للزوار في براويز زجاجية مزدانة بالذهب والفضة. والكنيسة أو الدير الذي يملك مثل هذه الآثار المقدسة يزدحم بالزوار.

هل تجارة آثار الأسلاف هذه رائجة في العالم المسيحي كله؟

إن عبد الحميد الذي كان يسمع حوارنا إلي الآن بكل تركيز طرح هذا السؤال كطالب علم متشوق.

نعم وماذا في جعبة الكنيسة الكاثوليكية غير هذا. قالت مارلين بأسلوب قلق. وعلي هذا خذ حادثة "ميدي جورئي" مثالا حيث ظهر مركز روحي في حيز الوجود بناء علي هلوسة بعض الفتيان المراهقين الذين لم يبلغوا سن الرشد. والكنيسة الكاثوليكية ليست في موقف أن تقول شيئا بشكل واضح. لقد سمعت أن لجنة علي مستوي عال لعلماء

النصاري كانت قد جاءت للتحقيق وتوضيح الأمر لكن لم تتمكن هذه اللجنة أيضا من توثيق أو رفض هذه الواقعة.

والحقيقة أن الكنيسة الكاثوليكية نفسها قائمة علي مثل هذه الأسس الهشة. فإن تم طي بساط القصص الشعبية للكشف والكرامات وظهور مريم وعيسي ابن مريم فلن يبقي لدي الكنيسة شيء يذكر. أبدت بيا قلقها.

أما كودر الذي كان مشغولا في صب العسل السلوفيني في قدح الشاي فقال: إخوتي الأعزاء. إن أهل الإيمان واليقين يعرفون جيدا أن عالم روحانيتهم قائم علي كومة من البارود. هي في الواقع لعبة بالنار والديناميت. ففي الكنيسة وخارجها مادام مدعو المشاهدة والمكاشفة يتحمل بعضهم البعض لكي تسود هذه التجارة وفي صالح الاثنين البارود والنار أن يعترف الواحد بالآخر لأن التصادم بينهما في حقيقة الأمر موت للاثنين.

لكن هذا الذي قلتيه حضرتك أنه ببركة هذه الآثار تقبل الدعوات فهل هذه عقيدة عامة لأهل الكنيسة؟ سأل عبد الحميد موجها إلي مارلين هذا السؤال بنظرة استفهامية.

لا تقل العقيدة بل يمكنك أن تسميها حسن الظن لأن العقيدة حينما تتعرض للانحطاط فوقتئذ يكون حسن الظن للمؤمن وقاية وجنة ويظهر في حيز الوجود مثل بيت الطلاسم هذا حيث نحن جالسون. وكان أسلوب مارلين قد أصبح أكثر جدية ورزانة.

لا، لكنني أسأل هذا السؤال لأنه عندنا في كشمير عندما يُسمح لزيارة شعر رسول الله صلي الله عليه وسلم بمناسبة ربيع الأول ويتم عرض الشعر المبارك للرسول من فوق المئذنة ويكون المنظر حزينا فالمؤمنون يتأوهون ويُسمع هناك بكاء وعويل لا يمكن وصفه. يقولون: بمجرد أن يقع النظر علي الشعر المبارك يصبح الدعاء مستجابا حينها.

والآن عرفت أن أهل الكنيسة عندهم أيضا مثل هذه العقيدة نحو الآثار فاستغربت.

نعم هذه البضاعة بضاعتهم التي انتقلت إلينا. أراد كودرا أن يحل هذه العقدة. قال: إن الاعتقاد بالتيمن وتقديس الآثار قد جاءنا فيما بعد. ففي القرن الأول الهجري نجد العشرات من المناسبات عندما منح الرسول صلي الله عليه وسلم عمامته أو فرش رداءه لتكريم شخص ما بغرض تأليف قلبه أو تشجيعه. أما هذا الاعتقاد أنه من الممكن الحصول علي البركة من هذه الأشياء الممنوحة فقد استغرق ذلك نحو قرن أو نصف قرن من الزمان لكي يسود. وكان وراء هذا الفكر أيضا العوامل السياسية. في رأيي إن أول شخص ادعي استحقاق الخلافة لنفسه علي أساس آثار الرسول صلي الله عليه وسلم هو الخليفة العباسي المنصور. وغير معروف من أين حصل المنصور علي رداء الرسول صلي الله عليه وسلم وآثارا أخري منسوبة إليه. فمن ناحية النسب كان يدعي أنه من آل عباس. وفي ليلة حالكة من عام ١٣٢ه وفي مسجد في الكوفة اعتبرت هذه الأسباب كافية لإعلان الخلافة الجديدة ثم بدأت هذه الآثار تزداد أهميتها وإلي يومنا هذا حتي وإن أغفل نظام الخلافة عن هذا فالمدعون للسيادة الروحانية في الزوايا والخانقاهات يحصلون ويعصرون البركات باستمرار من هذه التبركات المفترضة.

لكن البركة موجودة في هذه الآثار أليس كذلك؟ تماسك عبد الحميد نفسه.

فقط لأولئك الذين تكون درجة حرارة تفاؤلهم وحسن ظنهم مرتفعة.

ماذا تعني؟ حاول باسم التدخل.

قال: للآثار مكانة أليس كذلك؟ ثم ما هو تفسيرك لهذه الواقعة حينما أوصي سيدنا معاوية وقت وفاته بأن يدفن في القميص الذي أعطاه له الرسول ويوضع ظفره وشعره المبارك عند فمه وعينيه وجبهته للسجود عليها. ماذا تقول في هذا؟

لست في حاجة إلي أن أقول شيئا ما والواقعة نفسها تحليل مكشوف للأعين. إن صحابيا جليلا من قبيل سيدنا معاوية الذي يعد من كتاب الوحي والذي نال شرف جمع القافلة الإسلامية في العهد الأول كيف كان ممكنا له أن يختار طريقا لنجاته عكس سلفه الصالح؟ في الواقع إنها روايات موضوعة من المعسكر المخالف له الذي يقدم سيدنا معاوية كحاكم من حكام الدنيا الذين يبحثون وقت وفاتهم عن سند لتبركات الرسول صلي الله عليه وسلم لتكفير ذنوبهم.

عجبا لكن هذا الأمر لا يقتصر علي سيدنا معاوية رضي الله عنه فقط بل إن كتب السنن والآثار مليئة بمثل هذه الوقائع حيث قيل عن تبركاته الجسمانية صلي الله عليه وسلم أمثال الشعر المبارك ولعاب الفم والظفر والعرق وغيرها من الأشياء أنها تحمل في طيها البركة.

وفيما بعد بقيت هذه التبركات في مختلف البلاد والأمصار معروفة ومشهورة. ونعم إنني أتذكر الآن رواية أم سلمة رضي الله عنها التي كانت لديها خصلتان من شعر الرسول صلي الله عليه وسلم والتي كانت قد حصلت عليهما وقت حلقه لرأسه في الحديبية. أم سلمة هذه كانت محتفظة بهاتين الخصلتين من الشعر وكلما مرض أحدهم كانت تقوم بإغراق تلك الخصلتين في الماء ثم تقدم هذا الماء إلي المريض للشرب وكان المريض يشفي علي إثره من المرض. وقد جاء عن أم سليم بنت ملحان أنها كانت تقوم بتدليك جسدها بماء وضوء النبي المستعمل. أراد باسم أن يبرهن علي وجهة نظره بالمصادر.

نعم إنك قد وصلت إلي المكان الصحيح. استدار كودرا وظهرت علي وجهه بسمة كالتي تظهر عادة علي وجه الأستاذ عند سؤال طالب ذكي. قال: إن الماء يموت هنا فقط. وقت دراسة كتب الروايات والآثار ستتعجب وتستغرب أن كبار أصحاب النبي صلي الله عليه وسلم وأزواجه المطهرات لم يملكوا خصال الشعر ولا حتي الظفر ولم يفكر أحد منهم في جمع عرق الرسول صلي الله عليه وسلم. عليك أن تفكر قليلا أن أم سلمة كان لديها خصلتان فقط من الشعر وهما أيضا قد حصلت عليهما حسب الرواة في الحديبية وهي زوجة الرسول صلي الله عليه وسلم. وعلي خلاف هذا فإن أم سليم بنت ملحان وزوجها أبوطلحة لديهما نصف شعر رأس الرسول صلي الله عليه وسلم والذي كان قد منحهما الرسول في حجة الوداع عند حلق رأسه.

من أم سليم هذه؟ استفسر عبد الحميد الذي كان يسمع الحوار بكل استغراب إلي الآن.

ألا تعرف أم سليم؟ إنها كانت والدة أنس ابن مالك.

حسنا. هو صاحب كتاب الموطأ الإمام مالك؟ أراد باسم التوضيح.

لا لا هذا أنس ابن مالك الذي كان له الشرف أن يكون خادما لرسول الله ووالده مالك بن النضر مات علي الكفر ووالدته تزوجت من أبي طلحة ابن ثابت. يقال أن أنس ابن مالك كان آخر صحابي توفي في سن مائة وثلاث سنوات في عام ٩٣ه بالبصرة. إن كلام كودرا الآن قد أصبح مصبوغا بكلام المحدثين. وفالح وعبد الحميد كانا في انتظار ماذا سيحدث بعد ذلك؟

يا إلهي لقد بدأت تقلب كل شيء. أبدي باسم اضطرابه قائلا: لو لم تكن للآثار كل هذه الأهمية فكيف يمنح الشيخ رود باري كل ثروته مقابل

خصلتين من شعر الرسول حسب قول صاحب كشف المحجوب. ولعلك قد اطلعت علي دلائل النبوة لأبي بكر البيهقي الذي تجد فيه حكايات ووقائع كثيرة منها أن ماءه المستعمل كان شفاء للمرضي ومن لعاب الفم كان يندمل الجرح وعبد القادر الجيلاني قد ادعي أن رسول الله قد وضع لعابه في فمه ومنحه الإجازة للتدريس والإرشاد. وتصور لو أخرجت سر أسرار البركة هذه من أي ديانة فلن يبقي هناك شيء لا في الإسلام ولا في النصرانية.

إذن فليذهب الإسلام هذا هو ما يريد. إن الخواص التي توجد في الأشياء هي بركتها. علي سبيل المثال الماء البارد غير الملوث والنابع من الشلال الذي يطفيء عطشنا هو الذي يولد في داخلنا الإحساس بالشكر ويمنحنا الشعور بالسكينة وهذه هي بركة هذه النعمة التي وهبنا الله إياها. وأينما تلقي النظر حولك في الكون تري بركات الله ويبدو لك أن الكون كله مسخر لخدمتك مع أسباب الحياة. وجود الثمار الحلوة علي الأشجار و سعي النحل وهبة نسيم الصباح وطلوع فجر الصباح ثم غطاء الليل برداء النوم. إن هناك تواصل وتتابع مستمر للبركة اللانهائية ونحن نستمتع بها لاشعوريا. أما الكلام بأنك لو شربت من كوب الشيخ الفلاني أو أكلت حبة من نبات السكر التي منحك إياها الشيخ فتصبح في أعلي العليين أو ترتفع روحك المعنوية فاعلم جيدا أن في داخل قلبك يستوطن صنم ما وهذا مرض نفسي. فإن لم تتعرف عليه علي الفور فهو يلقيك بالتدريج علي قارعة الطريق لعبادة غير الله. والإسلام قد جاء ليصل العبد بخالقه مباشرة وكل منا نحن العباد أصحاب تكريم وكشف ومقتضي النص القرآني لتكريم الإنسان هو ألا يبحث عن البركة في الآثار الموضوعة والأشياء التي تركها إنسانا مثله بل يكون مطلعا علي بركة خواص الأشياء وترتيبها المتجدد.

معني هذا أنه لا يوجد شيء اسمه بركة في رأيك؟ هي محض خواص الأشياء التي نسميها البركة. إذن هي المادية المحضة.

لقد قلت لك شيئا آخر لكنك لم تلتفت إليه وهو أن الترتيب الجديد لهذه الأشياء يستطيع أن يكون مصدر ظهور البركات الجديدة. علي سبيل المثال إنك تغير أمواج البحار إلي طاقة المد والجزر ثم تستخدمها في الري. وببركة الرياح الشديدة وغدوها ورواحها تتحرك سفننا ومن أشعة الشمس الحارقة تحول الطاقة الموجودة فيها إلي الطاقة الشمسية المباركة أي بمعني آخر كلما تتفكر أو تتأمل في الآيات الكونية هذه ستجد نفسك في أحضان البركات الجديدة والمحيرة. إن الله يريد أن يفكر عباده ويستمتعون بالبركات المكنونة في هذا الكون وكذلك يشاركوا الآخرين في الاستمتاع بها. اقرأ القرآن. مع هذه الكلمة وضع كودرا فنجان الشاي علي الطاولة بشدة وهو يغير جانبه في الجلسة كأنه ذاهب لإصدار الفتوي الأخيرة. "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتي يتبين لهم أنه الحق" كأن ظهور البركة نبع لا نهاية له. كلما تفكر تزداد علما بصنعته وحكمته عز وجل في الكون ويزداد التعمق بالشعور بربوبيته نحو العباد. وتخر الجباه في السجود ولا يبقي هناك سبيل سوي أن يقول العبد "إنه هو الحق"

لقد قلت كلاما عظيما بشأن البركة الواسعة. علق البروفيسور بريووك. وكان يبدو أن باسم قد انهار بعد أن سمع هذا التعبير بشأن البركة وقال: إن هذا الجانب من البركة كان غائبا من نظري إلي الآن.

الواقع أن الناس ينشغلون في الحصول علي البركة من الأشياء التافهة المفترضة ولا يتوجهون لمعرفة البركة الحقيقية التي تظهر كل لحظة في كون الله الواسع. إن البركات المفترضة تمنعنا من الحصول

علي البركات الكبيرة بل أن هذه تُذهب بنا إلي الشرك بالله ويكون هدفها الأول أن نتوقف عن التفكير.

أضاف البروفيسور المزيد. والآن لتأخذ آثار المسيح هذه. الكل يدعي أنه يملك البقية الباقية لنفس الصليب الذي تم صلب السيد المسيح عليه. وحسب قول إيرا سمس فإنه بالقدر الذي توجد فيه بقايا الصليب الأصلي في مختلف كنائس أوروبا فإنه يكفي لبناء عدد من البيوت بدون الحاجة لمزيد من الخشب. وفي فوضي الآثار والتبريكات لا يعرف أين ضاعت الحقيقة. لكن ما غرض طلاب البركة منها إلا أنهم يحصلون علي البركة من كل قطعة خشبية موضوعة. وكذلك أحب أن أخبركم بشيء آخر وهو أن الباحثين المسيحيين لم يستطيعوا أن يفصلوا في هذه القضية إلي الآن وهي هل استخدمت ثلاثة مسامير أو أربعة لصلب السيد المسيح لكن لا بد من التفكير في هذا الموضوع أيضا وهو أن في مختلف كنائس أوروبا يوجد ثلاثون مسمارا مقدسا والاعتقاد العام بشأنها أنها كلها أصلية وموثقة.

عجبا! قال باسم مرتجلا. إذن لا اعتبار للآثار والتبريكات؟ وقبل أن يكمل البروفيسور كلامه العلمي الرزين سأل عبد الحميد علي كودرا ناظرا إليه ربما لم يكن يستطع إلي الآن إقناع نفسه بتفسير كودرا عن البركة.

لماذا لا توجد الحقيقة؟ حينما كنا علي معرفة بالحقيقة الأصلية للتبريكات أوجدنا عالما طلسميا مبنيا علي العقل والحكمة. بكل تأكيد تكون قد سمعت اسم جابر ابن حيان وهو الذي أخفي أهل الغرب هويته الإسلامية وسموه بجابر فقط. إن هذا الشخص قد قام برفع الستار عن سر خواص الأشياء بل يمكنك أن تقول عن سر البركات الخفية إذ جاء في حيز الوجود بترتيب وتدوين الأشياء علما محيرا مليئا بالأسرار وهو

علم الكيمياء. وجاء بمحاليل تستطيع أن تذيب الفولاذ مثل الحديد أيضا. راجع كتاب الحيل لابن موسي وهو موجود الآن أيضا بالإنجليزية تستطيع الحصول عليه من المكتبة. إنه ليس كتابا عاديا بل هو في الواقع بيت لطلاسم الماكينات الأوتوماتيكية. والمسلمون أنجزوا كل هذا في الوقت الذي كان الغرب غارقا فيه في الظلمات وإذا ما ظللنا حاملي العقول الاكتشافية وجدنا أنفسنا في كل لحظة في أحضان التبريكات التي لا تعد ولا تحصي. وكانت هذه الحالة من التجليات وكان وجودنا عبارة عن هذه التجليات.

وفي موقعة عين جالوت حينما قمنا بصد حملات المغول وحولنا وجهتهم من العالم الإسلامي فلم يفهم المغول وقتئذ من أين جاء لدي المسلمين البارود الناري الذي جعل أحصنة المغول تفر من ميدان المعركة ولم تستطع الوقوف أمامنا. حينئذ كنا علي معرفة ببركات النسب المختلفة للنترات والفحم وكذلك كنا علي علم بكيفية استخدامها في الظروف الطارئة ضد الأعداء. انظر إلي الرسائل العلمية للقرنين الثاني عشر والثالث عشر ستجد فيها مكتوبا عن استخدام البارود وعن خواص النسب لمختلف الأشياء لكن عندما تتولد في أذهاننا بأن جميع فتوحات خالد ابن الوليد كانت بسبب الخصلة المباركة لشعر النبي صلي الله عليه وسلم والتي كان يضعها وقت الحرب في عمامته أو عندما تأكد بأن آخر الخلفاء العباسيين كان كل ما لديه هو الرداء المبارك لرسول الله وحينما يرتديه لن يستطيع العدو إيذاءه لكنك تعرف جيدا أنه عندما قتل هذا الخليفة كان ملفوفا بالرداء المبارك.

لو كان في خصلة الشعر أو في الرداء أي مقوم للنجاح لما كان الرسول نفسه يتحمل هزيمة غزوة أحد. لو تسنت لك الفرصة في أي وقت فأري أن تذهب لزيارة متحف (توب كابي) فهناك أشياء كثيرة لأخذ

العظة والعبرة فبالإضافة إلي التعاويذ القرآنية تجد هناك ملابس مكتوب عليها القرآن الكريم بكامله. إن الخلفاء العثمانيين كانوا يظنون أن من يرتدي هذه الملابس التعويذية سيكون آمنا في ميدان الحرب من أي أذي وللحصول علي النصر العسكري ظهر في حيز الوجود معهد كامل للطوالع والوقفات والنقوش لكن لم تتوقف هزيمة الأتراك حتي اضطر آخر الخلفاء وهو عبد الحميد أن يختار لنفسه منفي ليكون عبرة وعظة. هذه هي حكاية البركات المفترضة. مع هذه الكلمة دمعت عين كودرا وبصفة خاصة حينما جاء ذكر الخليفة العثماني عبد الحميد فلم يستطع إخفاء صوته الباكي لأنه لم يتمكن من السيطرة علي نفسه المضطربة وقال: في الحقيقة إن هذه البركات هي التي قامت بتدميرنا وما نسميها بركات هي في الواقع أوهام محضة.

صوت كودرا الآن كان قد ارتفع وغلب علي أسلوبه أسلوب من يفتي ثم توقف للحظة كأنه يحاول أن يتذكر شيئا ثم قال: في أواخر القرن الثامن عشر عندما قام نابليون بونابرت بحملة ضد مصر فوقتئذ قمنا نحن المسلمون بالاستعانة بتلك التبريكات المفترضة بدلا من السلاح والبارود. سأل خديو مصر علماء الأزهر بأن العدو قد اقترب منا فماذا علينا أن نفعل في هذه الظروف الصعبة. أشار عليه علماء الأزهر بختم الجامع الصحيح للإمام البخاري لعل وعسي ببركته تزول وتذهب المصائب القادمة بعيدا وهنا فالأمة كانت مشغولة في ختم البخاري وهناك جيش العدو قد احتل مصر. وكذلك في أوائل القرن التاسع عشر حينما حاصر الجيش الروسي بخاري أمر أميرها بأن يتم التركيز علي ختم الخوجكان (من الأسرار النقشبندية) في جميع المدارس والمساجد. كتب المؤرخون أن الجيوش الروسية كانت تدخل هنا في المدينة وفي الجانب الآخر كان المسلمون في حلقات ختم الخوجكان ويرفعون

أصوات "يا مقلب القلوب" بدلا من اتخاذ التدابير العملية للدفاع عن المدينة. واأسفاه إلي أين أو صلتنا هذه البركات المفترضة.

في رأيي إن كلامك صحيح ففي أسلوب باسم الآن كان هناك تواضع طالب العلم بدلا من النقد والتجريح إذ بدأ يقول: لكنني لا أفهم إن كانت البركة حقا أسلوبا غير عقلاني والأوهام والخرافات تنشأ منها فلماذا نجد في كتب التاريخ والآثار للسلف الصالح ذكر لأهميتها الدينية وطريقة حصول البركة من خلالها.

سببها سياسي بحت بل يمكنك أن تقول أنها عجل السامري. إن أصحاب الفكر المجهول يبحثون دائما عن عجل يستطيعون أن يقولوا عنه إلها. وإن سرت علي هذا الطريق مرة فإن الحد الفاصل الذي يوجد بين العقل والأوهام والخرافات ينتهي ويتلاشي. علي سبيل المثال خذ هذه الروايات التي تتحدث عن أم سليم أنها كانت تجمع عرق رسول الله صلي الله عليه وسلم وحسب رواية الإمام مسلم أن رسول الله كان يدخل بيت أم سليم فينام علي فراشها وهي ليست فيه. وذات يوم إذ كان الرسول نائما جاءت أم سليم ورأت أنه قد نزل العرق من جسم الرسول وكان قد تجمع علي فراش الجلد ففتحت أم سليم علبتها وبدأت تملأ القارورات بعد مسحه ففجأة قام الرسول وقال: ما تصنعين يا أم سليم؟ قالت: يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا. إن المحدثين قد قاموا بجمع مثل هذه الأحاديث بدون فهم ونتجت فيما بعد منها مشاكل كبيرة للناس غير أنه يكفي للمتأملين أنه لم يشارك في مثل هذه الأمور الخاصة بالبركة كبار الصحابة والأزواج المطهرات رضي الله عنهن. وكذلك جاء من نصيب أم المؤمنين أم سلمي الخصلتان من الشعر وجاء من نصيب أم سليم كثيرا من الشعر فما هو السبب؟ وكذلك حديث الرواة عن أحسن وأفضل إنسان مثل الرسول صلي الله عليه وسلم عندما يتأذي أي إنسان

أو يكون مجروحا فالرسول كان يخلط لعابه في التراب ويضعه علي الجزء الذي يشكو منه ويقول: بسم الله تربة أرضنا بريقه بعضنا يشفي سقيمنا بإذن ربنا. هذا العمل في الواقع ينفي السلوك العقلي الذي يريد الإسلام أن ينميه في معتنقيه.

ثم من أين دخلت في كتبنا هذه الأبحاث والمناقشات الطويلة عن الآثار والتبريكات؟ حاول باسم التدخل مرة أخري قائلا: إن في البخاري وردت بعض الروايات التي تقول أنه صلي الله عليه وسلم طلب قدحا من الماء وغسل فيه وجهه ويده ومضمض فيه أيضا ثم قال لأبي موسي الأشعري وبلال: اشربا أنتما الاثنان بعضا منه والبعض الآخر قوما برشه علي وجهيكما. بعد ذلك أخذا القدح وفعلا ما أمرهما به صلي الله عليه وسلم. وكما تعلم فإن الجامع الصحيح للبخاري ليس كتابا عاديا فماذا تقول فيه؟

انظر حاول أن تصل إلي كنه الكلام. انظر أين يسكب ميزاب الآثار وبركاتها المفترضة.

إنك تقول أن عواملها سياسية. أعطي عبد الحميد اللقمة.

نعم لقد أصبت وأنا قادم إلي هذا الموضوع. إن العلاقة بين الخلافة والآثار ظلت عميقة وقد وجدت فيما بعد أن لدينا في العالم الإسلامي ثلاثة خلافات بوقت واحد ففي بغداد كانت الخلافة العباسية وفي القاهرة الفاطمية وهناك في الأندلس رفع الأمويون علم خلافتهم فكل من تلك الخلافات أحست بالحاجة إلي تقديم آثار وتبركات الرسول صلي الله عليه وسلم لإقامة الدلائل والبراهين علي خلافاتهم فالخلفاء العباسيون كانوا مدعين لقرابة الرسول صلي الله عليه وسلم من ناحية ومن ناحية أخري كانوا يدعون أن لديهم الخصلة المباركة من شعره والآثار الأخري انتقلت إليهم كميراث فبسبب تملكهم هذه الآثار أصبحوا

أحق بقيادة المسلمين. إن هلال الصابي قد كتب في (رسوم دار الخلافة) بشأن بلاط الخلفاء العباسيين أن الخليفة كان يضع علي رأسه عمامة سوداء وفي يده سيف رسول الله المبارك ومعلق أمامه مصحف عثمان كذلك كان منكبه مزدانا برداء الرسول. وفي عام ١٢٥٨م وقت سقوط الخلافة علي أيدي المغول ضاع الرداء المبارك ولكن في عام ١٢٦١م عندما تم إحياء الخلافة العباسية مرة أخري علي أيدي المماليك فأصبح كون الخليفة فردا من هذه الأسرة جزءا من أحقيته.

ماذا تعني؟ ألم يبق أي أثر من هذه الآثار المقدسة بعد حملات المغول؟

صعب أن يقال هذا الأمر لكن لا بد من التفكير في أن الخلافة العباسية عندما أقيمت في مصر مرة أخري فمن كانوا وراءها وما العوامل الحقيقية التي ساهمت في إقامتها؟

إنك تتحدث عن المماليك أليس كذلك؟ إن لهم خدمات جليلة فقد قاموا بمؤازرة الأمة في وقت حرج جدا.

صدقت. لكن لماذا احتاج بيبرس أن يسلم زمام الخلافة لشخص غير معروف من آل العباس؟ إن بيبرس كان قد قام بطي بساط أسياده السلجوقيين كما كان قد أوقف تقدم المغول وفي عين جالوت حينما انهزم المغول علي أيدي بيبرس فقد حدثت إضافة كبيرة في قيمة بيبرس لكن كل هذا لم يكن كافيا للاستيلاء علي السلطة ولذلك قام بتفويض الخلافة لشخص غير معروف من الأسرة العباسية ثم هذا الخليفة فوض جميع أمور السلطة إلي بيبرس في احتفال شعبي أي أن كل هذه الإجراءات لتنصيب الخلافة كانت في الواقع للاستيلاء علي السلطنة. وهنا هذا الشخص من آل العباس كان نفسه من الآثار المقدسة ويقال بأنه كانت في حوزته الآثار الأخري لرسول الله صلي الله عليه و سلم.

وفي عام ١٥١٧م حينما قام الأتراك بإسقاط الخلافة العباسية في القاهرة أخذوا معهم الخليفة العباسي المتوكل الثالث أيضا وهكذا انتقلت مؤسسة الخلافة من آل عباس إلي الأتراك العثمانيين.

نعم كلامك صحيح ففي نظرياتنا الملوثة دخل كبير للآثار في السياسة أما الحكام المماليك فقد قاموا بتغيير قالب الدين من أجل سياستهم.

كيف حدث هذا؟ نظر إلي باسم نظرة استفهامية.

الكلام يطول ولكن عليك أن تعرف الآن فقط أن تفكك أفكارنا قد ظهر في عصر بيبرس نفسه. إن بيبرس كان قائدا غاصبا استولي علي السلطة بقوة السيف ثم إنه لم يسلم زمام أمور الخلافة لشخص مجهول من أجل استباحة السلطنة لنفسه فقط بل عين أربع قضاة للمذاهب الفقهية الأربعة وفيما بعد وبالتحديد في عهد فرج بن برقوق أقيمت أربعة مصليات في حرم الكعبة وهكذا تمزقت وتقطعت وحدة أتباع محمد صلي الله عليه وسلم للأبد.

لكن لماذا أحس بيبرس باحتياجه لتعيين أربع قضاة مختلفين؟

كانت السياسة الداخلية وراء هذا التعيين لأن بيبرس عندما استولي علي مصر وبسبب سقوط بغداد عادت قيادة العالم الإسلامي إليه ففي ذاك الوقت كان للقاضي الشافعي شأن عظيم في القاهرة ولم تكن السيطرة عليه أمرا سهلا ولذلك أراد بيبرس أن ينهي مركزيته ومن أجل ذلك أقام مؤسسات متبادلة لقضاة الأحناف والحنابلة والمالكية وهكذا وجد التمذهب الفقهي إشرافا حكوميا وانقسم المسلمون إلي أربعة مذاهب فقهية. انظر وتأمل كيف تلعب السياسة الوقتية وآثارها بعد ذلك تكون مهلكة وبعيدة المدي.

هل كان لدي الخلفاء الفاطميين بمصر أي رداء مبارك لرسول الله صلي الله عليه وسلم؟ أراد ياسر محاولة التركيز علي الآثار والنوادر.

وإن كان هؤلاء لم يكونوا في حاجة للآثار لأنهم كانوا يقولون أن الخلافة من حق أولاد فاطمة لكن كل سامري يحتاج إلي عجل أليس كذلك؟ لقد استخدم الفاطميون من أجل هذا الغرض رأس الحسين ففي عام ٥٤٩هـ جيء برأس الحسين بن علي من عسقلان إلي القاهرة بكل تمجيد واهتمام لكي تصبح سيادة أحباء الحسين الصادقين معتبرة ويحصل عامة الناس علي البركة منه وإلي يومنا هذا مسجد سيدنا الحسين مازال باقيا بسبب هذه الآثار ومدعو أهل البيت أيضا الذين لم يستطيعوا إقامة الخلافة بصفة رسمية كانت دعواهم أن المصحف الأساسي بدأ ينتقل من سيدنا علي إلي الأئمة الاثني عشر حتي اختفي الإمام الثاني عشر بعدما جاء هذا المصحف في حيازته.

ففي هذه الحالة بات الأمر صعبا لعامة المسلمين فمن أني لهم أن يتعرفوا علي مدعي الخلافة الحقيقيين؟ أبدي ياسر قلقه.

نعم إن المدعين الفاطميين قد ذكروا فضيلة مناقب آل فاطمة. انظر إلي حديث الكساء ويوجد له نصان فحسب النص الأول إن رسول الله صلي الله عليه وسلم قام بتغطية آل علي بردائه وحسب الرواية الثانية أن العباس قد نالوا هذا الشرف. وفي فوضي الادعاءات السياسية هذه لم يكن سهلا لعامة المسلمين أن يطلعوا علي حقيقة هاتين الروايتين المتضادتين.

علي كل حال إنه حديث عن خلافة العباسيين والفاطميين وكان لديهما حديث الكساء لكن من أين جاءت الخلافة الأموية ومن أين جاءت الدلائل والبراهين لأحقيتها في الخلافة لأنه ليس هناك حديث الكساء بشأنهم. قال عبد الحميد مبتسما بعدما قام بتحسين سؤاله.

ابتسم كودرا وقال: لم يكونوا في حاجة لهذا لأنهم حصلوا علي حق الخلافة بعدما ترك سيدنا الحسين ميدان المعركة طواعية فإنهم لم يكونوا مضطرين لإقامة خلافتهم كالفاطميين بأن يعملوا في الخفاء وكذلك لم يقوموا في مختلف البلاد والأمصار مثل العباسيين لبدء حركة "الرضا من آل محمد". لكن وعندما ظهرت الخلافة الأموية في الأندلس ازداد بنيان مجدها وعظمتها من أمثال هذه الآثار.

إنك بكل تأكيد تتحدث عن عبد الرحمن الداخل؟ لا إن الداخل كان فقط أميرا وصل إلي الأندلس متجنبا حملات العباسيين وأقام هنا إمارته. أما الإعلان عن الخلافة بشكل منظم فقد قام به عبد الرحمن الثالث الذي كانت له مناوشات مع الخلافة الفاطمية. ففي هذه الحالة رأي أنه سيكون مناسبا أن يقيم الدعوة لخلافته في مقابل العباسيين والفاطميين بدلا من أن يبقي أميرا لمنطقة ولهذا الغرض سادت شهرة كبيرة لمصحف عثمان وحسب الروايات الأخري سادت شهرة وجود مصحف الإمام. واختار عبد الرحمن الثالث لنفسه كأمير المؤمنين لقب الناصر لدين الله. وأقيمت في المسجد لهذا الهدف مقصورة خاصة لهذا المصحف وقد كتب الإدريسي في (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) كان هو نفس المصحف الذي كان قد نسخه عثمان بن عفان رضي الله عنه بخط يده وقد استشهد وهو يقرأ في هذا المصحف. وفي مكان الآية "فسيكفيكفهم الله" من سورة البقرة بقعة دم عثمان رضي الله عنه. يقال: كلما كانت تنتقل هذه النسخة من المصحف من مكان لمكان كانت تسير وراءه مسيرة كبيرة. واعتمادا علي سيف رسول الله ومصحف عثمان انتشرت دعوي الخلافة لعبد الرحمن في مختلف البلاد والأمصار لدرجة أن الموحدين عندما هاجموا قرطبة أخذوا معهم هذا المصحف أيضا وأصبح هذا المصحف دليلا علي أحقية الخلافة.

نعم إن باسم الذي كان يسمع الحديث عن مصحف الإمام بكل إمعان قال: إنني لم أكن علي علم بالجانب السياسي هذا للخلافة الأموية بالأندلس. من أين أستطيع الحصول علي التفاصيل بهذا الشأن؟ ارجع إلي أي كتاب في التاريخ وقبل تاريخ ابن خلدون عليك أن ترجع إلي كتاب مرزوقي (ت٧٨١ه) أو كتاب عبد الله المراكشي ذائع الصيت (المحب في تلخيص أخبار المشرق). هذه الكتب تفتح الأعين. ستعرف من خلالها كيف قام الحكام بتقوية سلطاتهم عن طريق الآثار. إن عبد الرحمن الثالث كان يأخذ معه المصحف والآثار الأخري بكل اهتمام إلي المعارك الحربية. وفيما بعد اتخذ الموحدون نفس التقليد. في وقت من الأوقات كان ينتقل هذا المصحف إلي أيدي الأعداء كما حدث في عهد عبد الرحمن الثالث وفي أحيان أخري كان يضيع في المناوشات والاشتباكات البينية للمسلمين. يقول ابن عبد الملك إن الموحدين بمراكش والحفصيين بتونس وحكام بني نصر بغرناطة كانوا متربصين علي الدوام لأن يأتي هذا المصحف بحوزتهم.

ففي هذه الحالة كان هناك احتمال أن تستخدم النسخ القديمة للقرآن الكريم لاستحقاق الخلافة بدلا من المصحف العثماني الأصل.

نعم يا سيدي كلامك صحيح. وهذا ما حدث أيضا. قال كودرا مؤيدا لخوف باسم: إن دم عثمان من المفترض أن يكون قد وقع علي مصحف واحد. لكن بقع الدم توجد علي الأقل علي أربعة أو خمسة مصاحف وتوجد هذه النسخ في القاهرة والبصرة واسطنبول وطشقند. والآثار عندما تصبح سلما للوصول إلي السلطة ففي هذه الحالة مستحيل الحفاظ علي حرمتها. انظر إلي قصائد الشعراء في عهد الموحدين. علي هذه الكلمة مسح كودرا يده علي جبينه كأنه يتذكر شيئا ما ثم قال: إنني لا أحفظ القصيدة بالكامل لكن مازلت أحفظ بعض أبياتها:

هذا كتاب الله جل ا سمه   بخط عثمان وفي رحله
خير إمام آجرا جاءه   خير إمام كان من قبله
إليه ينمي كلما مصحف   تأنق العالم في نقله

ليس الأمر قا صرا علي شاعر أو شاعرين بل كان هذا هو المزاج الديني لهذا العصر فعبقري كابن طفيل كان أ سيرا لسحر الآثار ومن أبياته بهذا الشأن

بمصحف عثمان الشهيد وجمعه   تبين أن الحق بالحق يعضد
تحامته أيدي الروم بعد انصافه   وقد كا د ولولا سعده يبد د

والآن فإن كودرا كان مزاجه ميالا إلي سماع الأبيات والقصائد وبا سم كان في حيرة من أني لكودرا أن يعرض أبيات بعد أبيات لعصور مختلفة ومطابقة للمنا سبات. سأله: هل كان تخصصك الآثار والتبريكات في أي وقت من الأوقات؟

ابتسم كودرا علي هذا السؤال المفاجيء لكن قبل أن يقول شيئا سأله عبد الحميد سؤالا آخر وهو: ما هي الأ شياء الأخري التي كانت تعد من ا ستحقاقات الخلافة غير مصحف عثمان؟

قال: أولا كانت النسخة الأ صلية هذه التي أ صبحت تعزيزا كبيرا للخلافة وكانت عصا الرسول المباركة وكذلك سيفه صلي الله عليه و سلم كان يحسب دليلا علي القوة النظرية والروحانية للخليفة. وإن كان قد وُجد لدي أحد رداء الرسول صلي الله عليه و سلم فنور علي نور.

لكن بشأن الخلافة الأموية كلما تتحدث الروايات عن أن قميص الرسول كان قد دفن مع الأمير معاوية رضي الله عنه فهل الأمويون لم يكونوا علي علم بأهميته السيا سية؟ سأل عبد الحميد.

قال: ربما كان من أسبابه أن أهمية هذه الآثار لم تكن قد اتضحت في عهد الأمير معاوية. فأول من قاموا باستخدام سياسة الآثار هم العباسيون الذين أحسوا بضرورة إحضار الرداء المبارك وبعد ذلك أصبح هذا الاعتقاد راسخا في أذهانهم أن انتقال الرداء المبارك من جيل إلي جيل بين الخلفاء العباسيين كأنه تواصل وتتابع لنفس الخلافة التي تتصل بذاته صلي الله عليه وسلم.

ثم هل وراء الشعر المبارك وعلامات القدم التي توجد من مكان لآخر أي محرك سياسي؟

نعم لقد أصبت. إن مصحف عثمان والعصا المباركة وسيف الرسول صلي الله عليه وسلم كل هذه الآثار ظهرت في حيز الوجود كعلامات قوة وتم استخدامها من قبل الخلفاء كدليل علي استحقاقهم للخلافة. بقيت علامة القدم المباركة والنعل المبارك والشعر فاستخدمها مدعوا السيادة الروحانية كسند وإنك تتعجب أن كل هذه التجارة لقداسة الآثار في الإسلام تمت في وقت ضعف وانهيار الخلافة. إن أهل السياسة ورجال الدين كلاهما كانا علي معرفة بهذا السر وهو أن الحب اللامحدود الذي يوجد في عامة المسلمين فأي شيء مهما كان صغيرا أو تافها يُنسب إلي رسول الله يستطيع إثارة عواطفهم ومشاعرهم فإن كان أهل السياسة قد استعانوا بالرداء المبارك من أجل سلطاتهم فأهل الطريقة حصلوا علي خرقة الرسول صلي الله عليه وسلم عن طريق عويس القرني. وأهل الشريعة أي علماء الظاهر استعملوا النعل المبارك والشعر المبارك لتعزيز مركزهم.

متي ظهر النعل المبارك؟ عندنا في كشمير يُباع في الأسواق شبيه للنعل المبارك والناس يشترونه للحصول علي البركة.

وكذلك يوجد هذا النعل في متحف وقصر (توب كابي) أعطي باسم اللقمة.

نعم هناك خلفية سياسية للنعلين أيضا. مع هذا القول ابتسم كودرا مرة أخري وقال أن العباسيين قد استولوا علي السلطة بمؤازرة ومعاونة آثار الرسول صلي الله عليه وسلم. قدموا أنفسهم للناس علي أساس أنهم أمناء آثار الرسول ومحافظوها. وكان صعبا عليهم أن يرفضوا قطعا المدعين الآخرين لآثار الرسول الأخري لأنهم كانوا قائمين علي نفس الأسس فكيف يتسني لهم أن ينفوها. يقولون أن شخصا مجهولا جاء إلي البلاط الملكي للخليفة العباسي المهدي وكان في يده نعل وكانت دعواه أنها نعل الرسول التي وصلت إليه من مصادر ثقة مختلفة. أمام الملأ في البلاط لم يكن سهلا علي الخليفة في ذلك الوقت أن يرفض هذه الهدية. لو رفض قائلا أنها مزورة فيمكن للمسلمين البسطاء أن يحسبوه إهانة للرسالة المحمدية. كان المهدي علي دراية بأمور السياسة فقد قبل الخليفة الهدية علي الفور بكل تقدير واحترام وقدم لمن أحضر هذه الهدية عشرة آلاف درهم مع الشكر والاحترام. وبعد انصراف هذا الرجل قال المهدي كما كتب الخطيب البغدادي: إنني اشتريت لسانه مقابل عشرة آلاف درهم وقبلت هديته ولم أتعرض لدعواه ولم يكن لي سبيل آخر أفضل منه.

نعم يا سيدي الآن بدأت أفهم الموضوع فحينما يكون الحاكم نفسه واقفا علي أسس واهية فأني له أن يستطيع منع الآخرين من الآثار؟

ليس هذا فحسب بل أن أولئك الذين كانوا قد استولوا علي سيادة الأمة بالقوة الغاشمة فحصولهم علي آثار الرسول صلي الله عليه وسلم أصبح جزءا من دعم سيادتهم ففي كتب التاريخ هناك عشرات الوقائع من هذا النوع لدرجة يصعب علي ذكرها. الحاكم الأيوبي بدمشق الملك

أشرف موسي (٦٥٣ه – ٦٢٦ه) بكل تأكيد قد سمعت عنه. لقد حصل علي زوج من النعل المبارك من أحد المحدثين لكي يحصل منه علي البركة. الملك أشرف بني لهذا الزوج من النعل مبني كبيرا وعين لحراسته ورعايته موظفين برواتب. وفيما بعد أقيم مركز كبير قريبا من هذا المبني لدراسة الحديث الشريف. وبسبب النعل كان لهذه المدرسة شأن خاص. كان الناس يأتون من أقاصي البلاد لزيارته ووصل الأمر في القرن الثاني عشر الميلادي إذ بدأ العلماء بإصدار تمثال ورقي لهذا النعل فالناس الذين كانوا قد جاءوا من أماكن بعيدة لزيارته كانوا يذهبون بهذا التمثال ويحسبونه بركة.

معني ذلك أن شبيه النعل هذا ليس أمرا جديدا وإن كنت أفهم أنه بدعة عصرنا. أبدي عبد الحميد استغرابه.

لا بل مرت علي هذا العمل عدة قرون فقد كتب ابن عساكر(ت٦٦٨ه) في جزء خاص بتمثال نعل النبي وكتب المقري في فتح المتعال في مدح النعال أن هذا النعل قد نال قبولا كبيرا بين الناس وقام بسرد وقائع كثيرة بهذا الصدد. ويمكنك تقدير هذا القبول للنعل أن بعض العلماء والمحدثين كانوا مشهورين بسبب أنهم كانوا يملكون نسخة موثقة لهذا النعل. ففي المصادر التاريخية وردت أن أبي طاهر اليافي (ت٥٧٦ه) بالإسكندرية وحبط الله الأكفافي (ت٥٢٤ه) وأحمد الفزاري بأصفهان كان قد ذاع صيتهم بسبب هذا النعال.

نفهم قداسة النعال المبارك لكن أن ينال الشبيه كل هذا القبول لا أفهم ذلك؟

نفس موضوع الحصول علي البركة الأمراء والسلاطين كانوا يدعمون سلطاتهم ببركته وعامة الناس كانوا يحسبونه وصفة طبية للشفاء

من الأمراض. ففي شمال إفريقيا كان الفكر السائد أنه لو وضع هذا التمثال علي عين الأعمي فسيعود البصر ببركته. إن ابن عساكر كتب عن شيخ ما يسمي أبا جعفر علي أنه منح لطالب علم له تمثال النعل المبارك وكانت زوجته تعاني من آلام المخاض فوضع الطالب هذا التمثال مكان الألم داعيا رب أرني أيضا بركة صاحب النعلين. يقال أن ألم المخاض ذهب في لمح البصر.

إلي أي عصر ترجع هذه الواقعة؟ أراد عبد الحميد الوصول إلي عمق القضية.

قال: إن ابن عساكر كان في القرن الثاني عشر ولكن كتاب المقريء "فتح المتعال في مدح النعال" يرجع إلي القرن الحادي عشر.

معني ذلك أن هذه الأعمال ترجع إلي ألف عام مضت.

نعم، إن التغيير الذي طرأ في مزاج الأمة قد مر عليه أكثر من ألف عام من الزمن وإن لم يكن الآن بنفس الشدة فإسلام القرن الثالث عشر والرابع عشر يختلف قليلا عما كان من قبل. وقبل ذلك كان زهاد إخوان الصفا أو علماء الظاهر ففي هذا العصر كان الكبار يقبلون النعلين ويطلبون البركة. إن العلامة القسطلاني المتوفي ٩٢٣ه كتب في المواهب أن من يملك النعلين يكون محفوظا من بغي العدو والشياطين لا تستطيع أن تضره ويحفظه من أعين الحسود. وحسب كلام القسطلاني أن من الاستخدامات المجربة للنعلين أيضا أن المرأة الحامل لو أمسكته في يدها اليمني تنحل مشكلتها.

عجبا! قال باسم علي الفور: من أين وصل الكلام إلي أين؟

نعم إن كنت مصابا بالحيرة فالحق معك. بل إن المقريء كتب أن أهل دمشق كانوا يدعون ساعة العسرة بواسطة هذا النعل المبارك.

فهل في أي زاوية من زوايا دمشق مازال النعل المبارك موجودا إلي يومنا هذا؟ سأل عبد الحميد بشيء من الحيرة كأنه خطط فجأة للسفر إلي دمشق.

قال: إن المصادر التاريخية تشير إلي أن زوج النعل قد بقي موجودا في دمشق حتي أواخر القرن الثالث عشر وحينما حاصرها تيمورلنك في عام ١٤٠١م أخذ معه النعل المبارك أيضا.

هناك أمر غير مفهوم لي وهو أن هذا الأمر ليس حديث اليوم بل يرجع إلي ألف عام مضت فكيف جاء هذا التغيير الكبير في مزاج الأمة؟ ولماذا لم يحاول السلف الصالح السيطرة علي هذا الموقف الخطير؟ سأل باسم.

بكل تأكيد كان هناك نقادا لهذا السلوك في كل زمان ومكان لكن أمام القبول العام لهذه الآثار أني لهم أن يسمعهم أحد. ثم إن الرواج كان لأولئك الذين كانوا يأتون من مكان مجهول وفي أيديهم خزينة آثار رسول الله فيسلمونها لحاكم أو عالم أو متصوف. عالم معروف في القرن الخامس عشر وهو محمد الزمان (١٤٩٢م) تواصل بأحد هؤلاء الشيوخ الذي منحه خصلة الشعر المباركة لرسول الله صلي الله عليه وسلم وكذلك تمثال القدم المبارك وجزءا من المصحف بقلم أحد كتاب الوحي. لفترة طويلة ظلت هذه الآثار زينة وبركة لمدرسة ابن الزمان في القاهرة.

لكن كيف يتم التحري والفحص لمعرفة أن هذه الآثار في الواقع أصلية؟

ألا يكفي لهذا العمل مصداقية وعلم الشيخ؟ إنني قلت والشعر والمبارك الذي يوجد لديكم في كشمير هو أيضا من عطاء شيخ ما. أحضره السيد عبد الله مباشرة من المدينة المنورة في عصر ملك المغول

أورنج زيب وهو مؤرخ بشكل منظم. احتج عبد الحميد علي تشبيه هذين الشيخين ببعضهما البعض.

لكن السيد عبد الله الذي كان يدعي أنه من آل رسول الله صلي الله عليه وسلم وبسبب قصة عطائه للخصلة المباركة مازالت مكانة "السيد بل" مستمرة. هل تمت أي محاولة جادة لمعرفة حسبه ونسبه والتحري عن أصل تلك الخصلة المباركة؟

نعم لم يتبادر إلي ذهني هذا الأمر ولو كان هناك أي شك لكان أورنج زيب قد حقق في هذا الأمر بنفسه.

أي حاكم مهما كان لا يتصادم بمثل هذه الآثار والعلامات لأن الطريق الأسهل له هو ما قام به الخليفة المهدي وهو يعلم أنها مزورة لكنه يستخدمها لصالحه.

كان يبدو من لهجة وأسلوب عبد الحميد جيدا أنه غير مقتنع بردي. فقلت له: وهناك أمر آخر لا بد من استدراكه وهو أن العصر الذي نحن نتحدث عنه اليوم كان عهد انحطاط الخلافة فبعد ظهور الملكية والسلطنة وبصفة خاصة في عصر الأيوبيين والمماليك بدأ يطرأ في دين الله بعض التغييرات الجذرية والأساسية. أولا إن الحكام الأوائل لم يكونوا علي معرفة جيدة بروح الدين والشرع. ثانيا أنهم أتوا من مجتمعهم الذي كانوا فيه وذلك قبل اعتناقهم للإسلام فالعادات والتقاليد التي جاءت معهم كانت مختلفة تماما عن دعوة الإسلام الأساسية منها تقديس الآثار وثقافة المقابر ورأيهم عن الأرواح وأنها مع مرور الوقت تستمد القوة وتستخدم بفرض العون أيضا وعشرات من الأشياء من أمثال تلك وفدت إلي العالم الإسلامي مع المغول والأتراك وشعوب أخري من وسط آسيا الذين كان لهم تأثير حتي الآن في الأمور العلمية والعسكرية والسياسية وبصفة خاصة في عصر حكام السلاجقة والمماليك أدخلت

تغييرات ذات أبعا د في قالب الإسلام الأ سا سي بل يمكنك أن تقول أن مزاج الدين نفسه قد تغير. ولفهم هذه النقطة يكفي أن أقدم لك مثالا واحدا وهو أنه في القرن السابع الهجري بنيت القبة علي الروضة المباركة للنبي صلي الله عليه وسلم. ويرجع الفضل في هذا إلي الحاكم المملوكي السلطان قلاوون الصالحي وكذلك تخصيص الفقهاء الأربعة بل تقديسهم ثم أيضا في العهد الأول للمماليك وفيما بعد وفي عهد الجراكسة أقيمت أربعة محاريب (مصليات) في الكعبة المشرفة للمذاهب الفقهية. وفي عصر الدولة السلجوقية والأيوبية والزنكية بدأت سلسلة بناء المقابر هنا في جنوب آ سيا ومن ثم تنظيمها والاهتمام بها بشكل غير ماهية الدين البسيط المستقيم. الدين الذي كان قد جاء لربط العباد بربهم مبا شرة والذي كان قد بين أن من واجبات نبيه "ويدع عنهم إ صرهم والأغلال التي كانت عليهم" هو نفسه أ صبح دين الزوايا والمقابر وجاء ربيع الخلفاء الروحانيين للطرق الصوفية المنتشرة في مختلف البلاد والأمصار. ولأن هذا التغيير كان قد جاء من وراء عباءة الدين لذلك لم يستطع الذهن التقليدي تحديد أضراره.

لكن كيف يمكن أن يحدث كل هذا ولا يستطيع علماء الحق تقدير هذا التغيير الجذري ولم يفعلوا شيئا لإ صلاح الأحوال؟ اعترض با سم.

لم لا؟ إن الاعتراضات والاحتجاجات نجدها في كل مكان لكن حماس التيار الشعبي كان قويا حادا بحيث لم يستطع أحد منعه حتي أولئك الذين كانوا يحسبون أمناء علي ر سوخ العقيدة هم أنفسهم اختاروا تيار الكشف والروحانية والبركة وظنوا أن فيه العافية فالبعض منهم حصل علي آثار ر سول الله بالشراء والبعض الآخر عن طريق الهبة عبر شيخ ما والبعض حصلوا عليها بالوراثة ومن لم يستطع الحصول عليها بهذه

الطرق طلب الشعر المبارك من الرسول صلي الله عليه وسلم في المنام.

هل حدث هذا أيضا؟ ظل فم عبد الحميد مفتوحا من شدة الحيرة والاندهاش. نعم حدث هذا وليس من أي شخص عادي بل شاه ولي الله كتب عن والده أنه حصل علي الشعر المبارك من الرسول صلي الله عليه وسلم في المنام وكانا شعرتان متصلين ببعضهما وبمجرد أن يسلم علي رسول الله صلي الله عليه وسلم ينفصلان ويقفا مستقيمين وبمجرد انتهاء الصلاة والسلام يعودان إلي حالتهما الأولي.

حقا؟ إنك أتيت شيئا ثمينا. بدت الابتسامة علي شفاه كودرا.

لا لا. لا يتوقع هذا من شاه ولي الله. احتج باسم.

قلت له: إن لم تكن متأكدا من هذا فلترجع إلي كتاب (أنفاس العارفين) بل هناك تجد مكتوبا أن بعض الأشخاص جاءوا إلي شاه ولي الله الدهلوي لزيارة الشعر المبارك فحاول كثيرا فتح الصندوق الذي كان يحتفظ به الشاب لكن لم ينفتح قفله. قلق شاه ولي الله علي ما يحدث وقال لنفسه: ما الذي جري؟ فجلس في المراقبة وعلم أن شخصا من هؤلاء في حالة جنابة فأمرالجميع بأن يغتسلوا. مكتوب فيه أن الجُنب بمجرد أن قام من مكانه انفتح القفل وقام الناس بزيارة الشعر المبارك.

شيء عجيب. في كتب شاه ولي الله الدهلوي يوجد مثل هذا الكلام. كنت أحسبه مئذنة الرأي السديد والعقيدة الراسخة. أبدي باسم أسفه.

نعم، عندما تجد أعمدة العقيدة الراسخة منساقين مع التيار الشعبي للروحانية والبركة تستطيع تقدير مأساة الموقف. إن الذين اختاروا السياسة بالآثار قد أحكموا خلافتهم وسلطنتهم عن طريقها سواء أكانوا عباسيو بغداد أو أميو إسبانيا الأندلس وسواء كانوا الخلفاء الفاطميون أو

العثمانيون الأتراك أو المدعون الأتراك والمغول ومثلهم من الأكراد وكذلك العشرات من أمثالهم فهؤلاء وأولئك نجحوا فيما كانوا يصبون إليه. لكن وسط جميع هذا الهراء للحصول علي البركة وإثبات أحقية الخلافة أفسد الدين إلي حد ما بحيث لم يفكر أحد في تجديد جوهر الدين الحقيقي أما الآثار فقد زالت وانعدمت بالتدريج والآن فهي زينة للمتاحف مثل "توب كابي سراي". لكن ماذا تفعل في أن مختلف المدعين للخلافة طوال هذه المدة والحكام المسيطرون علي السلطنة استخدموا القصص الواهية والروايات الموضوعة لأغراضهم والتي أصبحت من سوء الحظ جزءا من تراثنا الأدبي. إن هذه المواد المسمومة والضارة والمضللة التي توجد في كتب التاريخ والآثار لم يستطع وجود فكرنا النظري الخروج منها إلي الآن.

ولا يمكن إحياؤه لماذا لا تفهم؟ قال له كودرا بشيء من الانزعاج. وفجأة ارتفع صوته وظل يمحلق في الفضاء البعيد للحظات ثم قال: قضي الأمر وجف القلم ولا يمكن أن يحدث شيء الآن. مع هذه الكلمات أخذ كودرا حقيبته كأنه يريد الخروج من المجلس بعدما مل منه ثم اختار أن يقف قليلا وقال: سوء الحظ هذا كتبناه نحن بأيدينا. تذكروا اليوم الذي كان يردد سيدنا عثمان رضي الله عنه لقاتليه: أيها الناس إنكم بعد قتلي لن تظلوا متحدين أبدا. مع هذه الكلمة وقف كودرا وكان يريد أن يخرج من الغرفة بقدر من السرعة إذ وقف فجأة كأن قوة غير مرئية قد أوقفته. والآن كان قد زادت هيبته حيث أحكم قبضته وقال بشيء من الصراخ: إن الناس الذين صرفوا النظر عن أهل بيت النبي صلي الله عليه وسلم بمجرد وفاته لا يمكن أن يأتي من نصيبهم غير المذلة والنكبة. والآن لا يمكن أن يحدث شيء. كله كلام لا طائل من ورائه ولا جدوي منه.

ترك كودرا المجلس لكنه ترك وراءه أسئلة كثيرة وباسم وياسر وعبد الحميد كانوا جميعا في حيرة ودهشة. سألوه: ما الأمر وما هذا الذي يجري؟

لا شيء. أحيانا يصاب كودرا بنوبة تشنجية. مع هذا القول أردت بالمرة تأجيل الموضوع خوفا من أن يكون قد أصابه التشنج فعلا. وقد خرجت وراءه فماذا رأيت؟ رأيت أن كودرا جالس بمفرده علي كرسي في رواق داخلي لكاسيل ومشغول في إشعال سيجارة. وبسبب الهواء الشديد تنطفيء شعلة الولاعة مرة تلو الأخري. قال لي بمجرد أن رآني: أحسنت إذ جئت أنت أيضا لأن الاختناق هناك شديد في الدور الأرضي.

قلت له: إن تيار الهواء مهما بلغت شدته فلا يصح ترك محاولة إشعال المصباح.

كودرا الآن كان قد توقف وفهم ما كنت أود أن أشير إليه وقال: إنني أشرب السيجار لمعرفة النفس.

حسنا. وكيف هذا؟

بدأ يقول: مع كل نفس من السيجارة ينقص عمر السيجارة. هذه كناية عن الفناء. تنفست الصعداء بعدما رأيت كودرا في مزاج جيد.

الفصل الثالث عشر

نزلت هكذا

تذكرت السيد عبد الوهاب أفندي اليوم كثيرا وذلك وقت الذهاب إلي فراش النوم عندما كان يقدم عددا كبيرا من الأدلة والبراهين تأييدا لموقفه ثم يشعر أن الانغلاق الفكري قد وضع قفلا علي عقله ولا تتقدم عربته بدون أقوال القدماء. فكان يواجه هذا الموقف المتأزم بظرافة بالغة

المهارة وتظهر علي وجهه ابتسامة خفيفة ويقول: هذه الكلمات كانت مكتوبة في الكتب التي تم إغراقها في نهر دجلة وقت سقوط بغداد. عندما سمعت هذه الجملة لأول مرة من علي لسان أفندي أخذتني حالة غريبة من الحيرة والاندهاش. فكرت في الأمر الذي تسبب في إغراق كل هذه الكتب في النهر وحسب بعض المؤرخين تحول ماء دجلة إلي ماء أسود من كثرة أحبار الكتب. والكتب كما هو معروف كانت رأسمال الفاتحين في كل عصر وقبل اختراع المطبعة كانت الكتب التي يتم نسخها باليد تحتل مكانة كبيرة مثل المجوهرات الثمينة. وفي أيام الجدب والقحط كانت تتم سرقة الكتب من بعض المكتبات العامة فقد كان بعض الناس يبيعونها بثمن بخس بعد الاطلاع عليها لشراء متطلبات الأكل والشرب. وكان هذا السؤال بالنسبة لي صعبا ومقلقا أيضا وهو أن الغزاة المغول الذين سهلوا لناصر الدين الطوسي في المراغة لقيام المرصد

وكان في جيشهم أو علي الأقل من مؤيديهم بعض أهل العلم. كيف تحمل هؤلاء خراب وضياع كل هذه الكتب.

إن الكتب التي تناولت موضوع سقوط بغداد فقد كان مؤلفوها منقسمين إلي نوعين: الأول المؤلفون الذين يقررون أن السقوط كان بسبب الأعمال السيئة للحكام والقسم الثاني يشمل المؤلفين الذين قالوا أن هذا السقوط كان عذابا من الله. تاريخ هؤلاء المصنفين يتخذ أسلوبا أسطوريا فنجد عندهم أنه حدث قبل سقوط الخلافة الرعد والبرق والمطر الغزير والقحط والجدب وآفات سماوية أخري فكأن حملات المغول قد خربت خلافة سماوية أو قلبت نظاما إلهيا فمن خلال هاتين النظريتين المختلفتين في وجهات النظر لا يعرف ماذا حدث لبغداد ولسكانها وقت السقوط في حقيقة الأمر. إن بغداد كانت دار الخلافة للإسلام السني وتضم من الكتب النفيسة لشرح وتفسير الإسلام السني في مكتبتها. لو كانت تلك الكتب موجودة اليوم لكن كان قالب الإسلام السني مختلفا.

هذا السؤال ولد في قلبي وعقلي نوعا من الاضطراب فذات يوم سألت الأفندي: ألا تشعر بشيء من النقص في فهم الإسلام من غير الكتب التي تم إغراقها في نهر دجلة؟

علي سؤالي هذا تبسم الأفندي وقال: أبدا، بل التي بقيت هل هي قليلة لتعذيبنا الفكري؟ انظر إلي كتب الرجال في مجلدات يصل بعضها إلي أربعين مجلدا لا يعرف من خلالها أين الحقيقة فالراوي الذي يعتبر ثقة لدي أحد ما وعادل أيضا هو نفس الراوي الذي يعد متهما لدي الآخر بالكذب والافتراء. إن الأعمار تنتهي ولا يعرف إلي أين و صلنا بعد تصفح هذه المجلدات الضخمة. ثم قال: لم يتم إغراق العلم بل تم إتلاف الكتب النزاعية وبدأ يقول: في رأيي أن ينظر إلي سقوط بغداد من ناحية

الحرب الأهلية الفكرية والنظرية فيما بين المسلمين بدلا من أن ينظر من ناحية الحملات الخارجية. وحادثة إتلاف الكتب لم تحدث لأول مرة في تاريخ المسلمين وقت سقوط بغداد فعندما قام صلاح الدين الأيوبي بطي بساط الخلافة الفاطمية أعلن في الوقت نفسه القضاء علي دار العلم. يقال أن الخلفاء الفاطميين كانوا قد أقاموا سلاسل للمكتبات العامة لنشر وتبليغ وجهة نظرهم وبصفة خاصة في عهد الحاكم كان يتم توفير التيسيرات للإقامة والطعام والشرب وأدوات الكتابة للقراء مجانا. وكان الهدف من وراء ذلك أن يتم نشر المفهوم الفاطمي للدين وعن طريق الهواة والمتشوقين تصل نسخ هذه الكتب إلي مناطق نائية وبعيدة. إن السلطان الأيوبي كان حامل لواء الإسلام السني ولذلك لم يكن المفهوم الفاطمي للدين مقبولا ولا المكتبات التي أقاموها مثل دار العلم ودار الكتب.

كذلك مكتبة اسماعيل بن عباد والذي كان ينتسب إلي آل بويه قد تعرضت لحملات محمود الغزنوي ومحمود هذا الذي كان يعد نفسه حامل لواء الإسلام السني قد أباد الكتب التي كانت موجودة في مكتبة ابن عباد. وكانت هذه الكتب تدافع عن وجهة نظر الشيعة ثم أخذ معه آلاف الكتب إلي العاصمة غزنة لأنه كان أيضا مولعا بإقامة المكتبات. ومحمود الغزنوي هذا مثل الباطنيين والقرامطة وأشعل النار في الكتب وكان يعتبرها واجبه الديني. ونفس الحالة تكررت في عام ١٢٥٦م وقت سقوط قلعة الموت الإسماعيلية. إن قلعة الموت كانت معروفة بمكتبتها ويقال أن عطاء الملك الجويني الذي كان من المؤيدين لهولاكو قام بمعاينة دقيقة لهذه المكتبة قبل تخريبها ودمارها وقام بفصل الكتب المفيدة والآلات الفلكية والتي أرسلت فيما بعد إلي مرصد مراغة. والقرائن تشير كما يعرف ويقدر من كتاب (تاريخ جهان كشا) أنه قد تم

إتلاف الكتب الأدبية التعبيرية بالإضافة إلي الكتب التي كانت تمثل وجهة النظر الإسماعيلية.

كان قد انتصف الليل وشركاء المؤتمر بكاسيل كان قد هدأ سيرهم وحاولت مرة أخري أن أنام لكن الأفكار لم تكن لها نهاية وكان يبدو وكأن حديثا صامتا قد سري في كياني. إن حرب التاريخ والتعبير تحتفظ في طياتها بكم من الأدوات الحربية الأهلية. إن مكتبة دار الخلافة للإسماعيلية قد تم القضاء عليها بأيدي الأيوبيين ومكتبة الصاحب بن عباد الشيعية قد تم إتلافها علي يد مجاهد كالغزنوي وتحت سمع وبصر المغول تم فناء المكتبة الإسماعيلية المعروفة بقلعة الموت. كذلك تم تدمير دار الكتب السنية في بغداد. كم هي عجيبة وغريبة الحرب الأهلية التي لا تكاد تتوقف.

إن تدوين تاريخ لطائفة سم قاتل للطائفة الأخري وبيان وتعبير الفرقة الواحدة نفي للفرقة الأخري فأني للتعبيرات الدينية التي تتغذي علي تاريخهم الذي وضعوه بأنفسهم أن يتنازلوا عن هذا التاريخ سواء كانوا هؤلاء سنة أو شيعة اثني عشرية أو اسماعيليون. فلدي كل هؤلاء الفرق والجماعات البيان والتفسير التاريخي الذي يعد معتبرا وسندا يحافظ ويدعم هيكلتهم النظرية. ولو أمعنا النظر في جميع هذه الفرق سنري أنها مصرة كل الإصرار أن يتم الإفهام والتفهيم في ضوء النص التاريخي وهو نفس التاريخ المسموم الذي ألفه أسلافهم لتنظيم معسكراتهم ففي هذه الحالة لو خرج عفريت التاريخ من السيطرة مرة واحدة فلا يمكن حبسه في الزجاجة مرة أخري. إن الآثار تضيع لكن الحديث عنها وعن صداها لا مفر منه. إن بردة الشيخ البصيري التي كانت قد منحت له من قبل الرسول (ص) ف المنام والتي لم تصل إلينا لكن الأسلوب الفكري الأسطوري لقصيدة البردة البصيرية إلي يومنا هذا

تزاحم صلابتنا الفكرية. كذلك كساء الفاطميين والعباسيين الذي كان قد تشرف حسب قول هاتين الفرقتين أن رسول الله (ص) كان قد غطي بهذا الرداء أهل بيتهما. لم يصل هذا الكساء أيضا إلينا لكن دعاء الكساء والحديث عن أحقية الخلافة عن طريقه للعباسيين والفاطميين أصبح جزءا من تراثنا الأدبي.

مع التفكير في أسرار تكوين الآثار والتاريخ والبيان والتعبير لا أدري إلي أي واد خرجت إذ أري في الدور العلوي لبورل أن باب المكتبة المركزية مفتوح وهناك مصباح كهربائي معلق بالسقف المرتفع ليصل النور إلي مكتب المطالعة. وعلي المكتب يوجد عدد من الكتب في حالة رثة. وفي الغرفة لا يوجد أحد. إن نوعا من السر الصامت يغطي المكان. رفعت كتابا كنوع من الشوق وبدأت أقلبه. يا إلهي! ما هذا؟ إنه كتاب (البدع). استغربت. ماذا يصنع هذا الكتاب في مكتبة بارسي فال هذه؟ حاولت قراءة اسم المؤلف وبعد بحث وتمحيص عرفت فقط أنه من تصنيف عالم نيسابوري وبسبب الرطوبة فمعظم الصفحات أصبحت ملتصقة ببعضها وفجأة وقعت عيني علي عنوان فرعي حيث كان مكتوبا "إن الله أنزل الشريعة وليس العلماء فالأول عبارة عن بشارة سماوية لأولئك الذين يريدون أن يقضوا الحياة في ظلال اتباع أوامر الله ورسوله أما الثاني فهو إنتاج زمني وأرضي بالمرة وكان مكتوبا بعد ذلك: اليوم دار خلافة الإسلام في نواح. إن العلماء والسلاطين قد أغاروا علي المقتدر الأعلي للخلافة بصورة بشعة ربما لا يقدر أحد الإحساس بحجم شناعتها. أما الخليفة فهو مجرد دمية لأن السلطة الحقيقية في الواقع بأيدي العلماء والسلاطين وبسبب اعوجاجهم فإن قالب وشكل الدين المبين معرض باستمرار للتغيير والتحريف. يا ليت لو يمنع أحد تحريف وتبديل الدين هذا.

السطور القادمة كانت قد تعرضت للمسح والمحو الزمني وبعد ذلك وجدنا ما يلي مكتوبا: إن حكام السلاجقة لم يكن لديهم أي انتماء نحو الدين ومصالحه أما الحكام الأيوبيون فإنهم يرون دائما ماذا يريد الخلق ثم يلقون بعبئهم في كفة عالم أو محدث. ففي هذه الحالة هو من يقوم بالشرح والبيان الصحيح للدين الحنيف أما الخليفة فهو رهين الظروف.

ومِن تصفح ما قبل وما بعد كان قد عُرف أن هذه الكتابة تعود للأيام الأخيرة للحكومة السلجوقية وإن كانت بعض الأمور محيرة للغاية فقد كان مكتوبا في مكان ما "في تعديل وتحريف الإسلام دخل كبير للنزاعات البينية بين المحدثين والفقهاء". في أول الأمر كان السبق للفقهاء وهم أهل الرأي وكما هو معلوم أن مؤسس الفكر الحنفي الإمام أبو حنيفة كان يعد من أهل الرأي لكن فيما بعد أمام الكتابات القوية للإمام الشافعي والقبول العام لأحمد ابن حنبل تعرض أهل الرأي لهزيمة نكراء.

المصنف كان قصده أن اختراع علم الرجال هو بمثابة إعطاء سلاح بأيدي المحدثين لا يمكن مقاومته من جانب أهل الرأي فهم يجدون أنفسهم عاجزين. أما الخليفة المسكين فهو خاضع أمام السلطة باعتبارات السياسة. ومن الجانب النظري فقد جعل العلماء أئمته. إن عدم احترام مظاهر كرسي الخلافة موجودة في تاريخنا ذي الستمائة عام هنا وهناك. فأين عظمة أبي بكر وعلي لطاعة الله فالأول مصمم علي الجهاد ضد مانع الزكاة علي الرغم من آلات المعارضين والثاني وهو علي رضي الله عنه مصر علي رأيه في قضية التحكيم وأين الخليفة هارون الرشيد من هذين الشيخين الجليلين أبي بكر وعلي والذي ينصحه أبو يوسف مع غيرته الفقهية: إنني ألفت علي طلب منك هذا الكتاب والآن عليك أن تفقهه

جيدا وتتأمل فيه وتدر سه مرارا وتكرارا حتي يرسخ كل هذا في ذهنك (فتفقهه وتدبره ور د د قراءته حتي تحفظه).

وفي مكان آخر من هذا الكتاب كان مكتوبا أن أ صحاب الحديث مصرون علي أنهم فقط علي حق ولكن الحقيقة أن هؤلاء خلف ستار السنة قد أثاروا نزاع الترفع الذاتي والشخصي. إن هؤلاء لدفع معارضيهم ينهونهم أولا بالمرجئة والقدرية والخوارج والروافض وبعد ذلك يقررون أن الأحا ديث التي رووها ضعيفة أي لا اعتبار لها و سلسلة الاتهامات لا تتوقف هنا بل يدعون أن إسلام أهل الرأي أو المتكلمين غير معتبر ولا يصح تأدية الصلوات خلفهم ولا تقام العلاقات الاجتماعية معهم مثل الزواج. عندما يقول مثل ابن حنبل علي الملأ أن أبا يو سف من أ ساتذته الأولين وقد سمعت منه الأحا ديث وهو صدوق أيضا لكن لا أحب أن أروي عنه الأحا ديث لأنه من أ صحاب أبي حنيفة. ففي هذه الحالة يمكن تقدير الموقف المتأزم وعندما يتم كتابة وتسجيل الرواة الثقات مثل علي ابن ها شم البريد (ت١٧٩ه) في كتاب المجروحين لأنه متعاطف مع أهل البيت وعندما يتم رفض قبول الأحا ديث للأمير معاوية (ت٨٥ه) لأنه يعد من أ ساطين المرجئة ففي هذه الحالة يصبح الأمر معقدا لشخص بسيط أن يتحري الحق.

الكتاب كان يبدو مسليا للغاية لكن وللأسف الشديد فإن جزءا كبيرا منه لم يبق صالحا للاطلاع عليه بسبب الرطوبة والتلف. والصفحة التالية كانت قد التصقت بالأخري بسبب الرطوبة لكن وبسبب كون الموضوع شيقا ازدادت لهفتي لمعرفة ماذا كتب المصنف بعد ذلك. بصعوبة شديدة قمت بفصل الصفحات وفي و سط الصفحات كان هناك جلد دائري عليه علامة سهم بقلم ر صاص أحمر وكان مكتوب تحته "ابن عبا د الخارجي؟ عبد الملك ابن محلب أو مروان". كان يبدو من كل هذا

أن باحثا ما قد ألقي النظر علي هذه الصفحات والنص الأصلي من الكتاب كان عليه التعليق الآتي "ابن عباد كان صادقا في كلامه وهو أن النزاع البيني بين شيعة علي وشيعة عثمان هو الذي شوه صورة الإسلام المنزل من عند الله فهؤلاء وأولئك قد جعلوا الأحاديث والروايات مرجعهم علي الرغم من وجود الأوامر الإلهية. وفي البحث عن الهداية انصرفوا إلي المراجع والمصادر الأخري تاركين القرآن المصدر الأساسي للهداية وأفكارا مثل محبة أهل البيت وقدوم المهدي ولدت في الإسلام العلويين والانتظار الموهوم لقادم جعلهم أسري للتكهنات.

استغربت أن بعض أهل الرأي والنظر في القرن الأول الهجري كانوا رافضين بهذه الشدة أن يكون هناك مرجع آخر غير القرآن الكريم. إن هؤلاء كانوا علي علم أن روايات المناقب والفضائل سواء كانت في حق الشيعة العلوية أو يكمن بداخلها ببذور العباسية والشيعة الإسماعيلية في الواقع كل هذا يتصادم مع آفاقية الإسلام.

وكان مكتوبا بعد ذلك ما يلي: يا ليتنا نفهم أن المفاوضات التي كانت تجري في دومة الجندل ما بين علي ومعاوية لم تكن في موضوع من هو أحق بالخلافة بل القضية التي كانت موضوع البحث هي هل قتل عثمان كان باطلا أم لا وكيف يتم تصفية قاتلي عثمان. وسواء كان كتاب الجاحظ العثمانية أو الرد المضاد للإسكافي كل هذا وذاك شروحات طائفية للتاريخ لا تلقي الضوء علي القضية نفسها وسيدنا عثمان رضي الله عنه ليس الخليفة المظلوم باعتبار أنه استشهد علي كرسي الخلافة مع وجود أنصاره وأقاربه. بل أن الدور الأكبر في هذه القضية كان لسوء الظن وسوء التفاهم الذي شوه صورته لحد تأثر به كبار الصحابة وسكتوا. وفي القرون القادمة ازداد وتعمق ضباب سوء الظن والبيانات المضللة.

ما معناه؟ ما ذا يريد المصنف أن يقول؟ فقد أثارت هذه السطور فضولي و دفعتني لكي أقرأ الصفحة التالية بأي شكل من الأ شكال لكن واأ سفاه أمام قدم الصفحات كنت عاجزا عن تحقيق هدفي لكن وبعد بضعة صفحات كانت العبارة واضحة إلي حد ما فقد كان مكتوبا: من دواعي قتل عثمان كما يشا ع كان تعطيل حدو د الله فهذا هراء ولا يعبر عن الموقف تعبيرا صا دقا أن يقال بأن هرمز كان مصرا علي قتله بسبب عدم إقامته الحد علي عبد الله ابن عمر و دفع الدية من جيبه الخاص أو عدم الالتفات وغض النظر عن والي الكوفة وليد ابن العقبة الذي كان متهما بشرب الخمر أو اكتشاف الر سالة المزورة با سم سعد من عثمان ونتيجة لهذا عا د البغاة إلي المدينة بعد أن كانوا متوجهين إلي مصر أو إ صرار الحشو د القا دمة من الكوفة والبصرة والشام ورفع الهتاف (إن الحكم إلا لله) لرفع شكواهم أو ا ستياء عام للها شميين والأنصار بسبب تقدم وعروج الفرع الأموي بصورة غير عا دية وبقاء الجماعات الأ خري علي الهامش. كل هذه الأمور ما هي إلا عوامل فرعية لكن المبا درة الجريئة والخطوة الثورية غير العا دية هي التي قام بها والتي وضعت سدا منيعا أمام الحدو د النظرية التي بدأت تنتشر وقام بتلجيم المجتمعات الإ سلامية التي تسببت في ا ستشها ده لكن رأس مال الإ سلام النظري أ صبح محفوظا ومصونا للأبد.

ما ذا كان قد حد ث في المدينة؟

يا ليت لو قام أحد بترتيب تاريخ جمع القرآن الكريم كبا حث. سيدنا عثمان كان قد جمع القرآن لكن ليس بالطريقة التي تقدمها لنا الروايات المضللة لأن القرآن محفوظ من العهد الأول كتابيا. ذلك الكتاب لاريب فيه لم يكن عبارة عن الأحجار والعظام والجلو د ولكن سيدنا عثمان أمر بنسخ المصحف الإمام أي مصحف الر سول في عدة نسخ وتم

هذا تحت إشرافه ثم قام بإرسال هذه النسخ إلي مختلف البلاد والأمصار رسميا مع التوجيه السديد أن يستعان في نشر القرآن الكريم بهذه النسخة المعتمدة فمنذ أيام عمر رضي الله عنه كانت قد بدأت توسعة العمارة الإسلامية وانتشر أصحاب الرسول في مختلف البلاد وأصبحوا مرجعا للخلائق في المناطق المفتوحة ومن جانب قراءة القرآن وفهمه كانت توجهات الناس قد بدأت ترتكز علي عبد الله ابن مسعود وأبي ابن كعب وسالم مولي أبو حذيفة ومعاذ ابن جبل وأمثال هؤلاء عشرات من أصحاب الرسول (ص) وكان لدي بعض منهم نسخهم الخاصة للقرآن الكريم. والبعض الآخر كان يحتفظ ببعض الأجزاء وكان يدعي ابن مسعود أنه قد كتب سبعين سورة في مصحفه بعد سماعها من رسول الله (ص) مباشرة. وكان لأبي ابن كعب نسخته وكانوا قد وضعوا علي هذه النسخ بعض العلامات من موضع لآخر تيسيرا علي أنفسهم. ومن حيث عالم القرآن الكريم بدأت مكانة القراء الكرام تزداد أما الذين تعلموا علي يد الرسول (ص) مباشرة فكان لأمثال هؤلاء الأساطين في الفن مكانة اجتماعية كبيرة أكبر من الموظفين الكبار المدربين للخلافة ولأن الكتاب الذي كان قد صنع هذه الدنيا الجديدة فكان أمرا طبيعيا أن يكون للصحابة الكبار كمفسرين وشراح هذه المكانة العظيمة وكذلك أن ينال تلاميذهم المنزلة الكبيرة. ففي البيئة التي قيل عنها خيركم من تعلم القرآن وعلمه لو ظل الأمر علي هذا النحو فلا حرج لكن الذي حدث أن مختلف الأوساط هذه بدأت تتعرض لاختلاف القراءة ففي نسخة ابن مسعود مكتوب هكذا وفي مصحف أبي ابن كعب مكتوب بشكل آخر وأبو الدرداء يقرأ هكذا وحذيفة ابن اليمان الذي كان قد شاهد هذا الموقف الحساس قد أبدي قلقه لعثمان ابن عفان فألف سيدنا عثمان رضي الله عنه ألف لجنة للنساخ المهرة تحت رئاسة زيد ابن ثابت وهكذا أصبحت النسخ

المعتمدة للقرآن الكريم متوفرة في مختلف البلاد وقد أصدر في نفس الوقت الخليفة فرمانا بأن كل من كتب من القرآن شيئا لنفسه فليتلفه ويكون العمل من الآن علي هذه النسخ المعتمدة وقد طلب من أبي ابن كعب ومن ابن مسعود خصيصا بأن يسلما مصحفيهما إلي الحكومة وكانت القضية أن القبول العام لهؤلاء في المجتمع كان بسبب المصاحف الخاصة بهم والتي كانوا قد أعدوها لأنفسهم وإن كان هذا المصحف لم يكن يختلف عن المصحف الرسمي لكن هؤلاء لم يكونوا مستعدين للتنازل عنه. وفي هذا الشأن تمت معاملة بعض الصحابة الكبار معاملة قاسية بل غضب خليفة ذلك الوقت من ابن مسعود غضبا شديدا وأمر بطرده من المسجد. ووسط هذا التدافع انكسرت عظام ضلعين من أضلاعه وأم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها احتجت علي هذا التعامل مع أصحاب الرسول لكن سيدنا عثمان كان يعرف جيدا أن المصلحة العامة للأمة فوق المصالح الشخصية أيا كانت حتي ولو كان صحابي من أصحاب النبي.

ومع الأسف الشديد لم يتم حصر هذا الإنجاز العظيم لسيدنا عثمان رضي الله عنه إلي الآن كما ينبغي باعتبار أنه ليس جامع القرآن بالمعني الذي هو سائد بأنه قام بجمع الأوراق المنتشرة في شكل كتاب مدون بل إن إنجازه الكبير هو أنه قام بحكمة بالغة باجتثاث الأخطار المحتملة التي بدأت تحلق حول عصمة القرآن الكريم. حتي ذهبت خارج المصحف جميع الروايات عن القراءات المختلفة طوال القرون المتوالية. وفي هذا الصدد اضطر أن يتحمل عتاب بعض كبار أصحاب الرسول (ص) وبسبب هذه المبادرة التي قام بها عثمان ذهب بهاء مجالس دروس القرآن الخاصة ففي هذه الحالة كان اضطراب أوساط كبار الصحابة والقراء شيئا طبيعيا.

بالنسبة لي كانت هذه الأمور موضحة للرؤية. هل حقا دفع سيدنا عثمان كل هذا الثمن من أجل جمع وحفظ القرآن الكريم. تذكرت مجلس أبي موسي الأشعري حينما خطب في ثلاثمائة مقريء من البصرة وقال مخاطبا إياهم: إنكم من أفضل سكان البصرة. إنكم القراء فلتستمروا في قراءة القرآن لكن حذار أن تصبح قلوبكم قاسية من كثرة التلاوة كما حدث للذين كانوا من قبلكم. كنا نقرأ سورة كانت في طولها مثل طول سورة البراءة ولقد نسيناها ولا نذكر إلا آية واحدة منها "لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغي واديا ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله علي من تاب" رواه مسلم والترمذي. أو الآية المفترضة التي رواها أبي بن كعب كما جاء في الترمذي: (إن ذات الدين عند الله الحنفية المسلمة لا اليهودية ولا النصرانية. من يعمل خيرا فلن يكفره) أو كما جاء في مسلم الآية المصطنعة لخمسة رضعات آو آية الرجم التي وردت في البخاري وهي: "الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة". كل هذه الآيات الموضوعة غير موجودة بالمرة في المصحف العثماني السائد بيننا الآن. لو تأملت موضوع حفظ القرآن الكريم علي خلفية هذه الروايات لتزداد أهمية المبادرة الثورية التي قام بها الخليفة عثمان رضي الله عنه.

في أيام حصار وعجز الخليفة كانت قد جاءت جماعات مختلفة من قراء البصرة والكوفة بالإضافة إلي بغاة مصر. نجد في مختلف المصادر والمراجع ذكرا لقراء الكوفة. وقتئذ لم يكن هذا الأمر مفهوما لدي لأن الذين كانت ألسنتهم رطبة بتلاوة القرآن الكريم كيف تسني لهم أن يقوموا بحركة ضد خليفة ذلك الوقت ومع هذا العدد الكبير. ولقد أقلق هذا السؤال قبلي آخرون فكانوا قد عللوا أن هؤلاء في الأصل كانوا قرويين فلذا سموا قراء ضد أهل الحضر غير أن الكوفة كانت في الواقع حامية عسكرية فلا يعقل مثل هذا التقسيم. من بين السطور لهذه الروايات

وكذلك من مصادر التاريخ يعلم أن في الكوفة والبصرة وكذلك مناطق مختلفة من بلاد الشام كانت قد نتجت أوساطا كبيرة لأناس لم يفهموا القرآن كما ينبغي وكانت قد أصبحت قلوبهم قاسية بسبب كثرة التلاوة حسب قول أبي موسي الأشعري والذي كان واليا للكوفة نفسها فهؤلاء هم الذين كانوا يتهمون عثمان رضي الله عنه بتعطيل حدود الله. ومن هذه الأوساط خرجت جماعة متطرفة في موقعة صفين وكان صليل سيوفهم يدوي مع شعار (إن الحكم إلا الله). هؤلاء هم الذين أطلق عليهم المؤرخون فيما بعد مصطلح الخوارج.

بجهود ومساع مبذولة من سيدنا عثمان نجا القرآن الكريم من فتنة اختلاف النصوص والقراءات المختلفة ومُحيت نسخ أبي ابن كعب وابن مسعود وأبي الدرداء وعشرات من أصحاب الفضيلة أمثالهم من علي الدنيا لكن فيما بعد بدأت روايات خبر الآحاد تلقي بذور فتنة اختلاف الفهم والقراءة ففي كتب الروايات باسم الحديث وفي حواشي التفاسير ارتفعت كلمة (نزلت هكذا) معتمدة علي رواة غير ذي ثقة إذ أصبح صعبا علي طالب سابق أن يعرف أن الآية الفلانية كيف نزلت في واقع الأمر وكيف كانت تُقرأ قبل هذا التعليق وهوامشه وماذا كان قبلها وما بعدها.

لا شك في أن النسخة التي أوجدها الخليفة عثمان رضي الله عنه ثبت كافيا وشافيا للسواد الأعظم من الناس لكن أهل العلم لم يبتعدوا من هذا البحث العقيم وهو كيف كانت هذه الآية أو تلك في نسخة فلان وعلان وأصيبوا بهذا الالتباس الفكري وهذه الأمور ليس من الضروري لعامة الناس أن يعرفوها لكن الخواص (أهل العلم) لا بد أن يكونوا علي دراية بمختلف القراءات والناسخ والمنسوخ كي يستعينوا بهذه المعلومات الإضافية في أحكام تدوين القرآن فالإمام مالك اعتمد علي

قراءة نخعي ابن نعيم (ت١٦٩ه) والإمام الشافعي اعتمد علي عبد الله بن كثير(ت١٢٠ه) وقد أبدي الإمام الشافعي رأيه في هذا قائلا: وهذا ضروري لأهل العلم أن يصيروا إليه وهو معرفة خبر الآحا د.

وبحثا عن العلم الخاص قدم أهل العلم عندنا هذه المصائب وهي هل يصح أن نقرأ في سورة الفاتحة (مالك يوم الدين) أو (ملك يوم الدين. وفي الآية العاشرة من سورة البقرة هل نقرأها (يكذبون) أو (يكذبون مع وضع الشدة علي الذال). هناك عشرات من المسائل التي نتجت عبر هؤلاء الأساطين بفن القراءات فهؤلاء الناس خرجوا إلي نفس الوادي بحثا عن العلم الخاص الذي كان قد قضي عليه قضاء مبرما المصحف الإمام لرسول والذي قام بنشره سيدنا عثمان بعد أن تم نسخ المصحف الإمام بعدد كبير تحت إشرافه وأرسل إلي مختلف البلاد وانتهي صدي "نزلت هكذا" علي الأقل لمدة قرن من الزمان لكن وفيما بعد وباسم القرآن الكريم بدأت تنتشر الروايات التي تهاجم في الواقع عصمة المصحف الإمام بكثرة ثم أصبحت مضار علوم القرآن علي لطائف القراءات السبعة والعشرة. فإن وضعت نصب عينيك هذه الفتن من الالتباس الفكري والنظري تزداد أهمية إنجاز سيدنا عثمان رضي الله عنه لجمع وحفظ القرآن الكريم.

وقت قراءة هذا الكتاب أصابتني الحيرة وأعجبت به أيما إعجاب فازداد شوقي لكي أعرف المزيد عن مصنف هذا الكتاب لكنني لم أستطع أن أعرف أكثر من أنه من نيسابور وزمن تأليفه قبل سقوط بغداد بقليل فقد كان مكتوبا إن تأسيس المدرسة المستنصرية سعي جيد حيث تم الاهتمام بتعليم المذاهب الفقهية الأربعة لكنها تأخرت كثيرا فليت لو أن فتن الجدال الفقهي كانت قد منعت في حينها عندما كانت قد بدأت تظهر في القالب الديني. لماذا لم نحس بخطرها عندما قام العالم

الأشعري أبو نصر القشيري في عام ١٠٦٧م في بغداد النظامية وخطب خطبة مشتعلة ومثيرة للفتن فالحنابلة بتأثير من هذه الخطبة هاجموا الشوافع هجوما داميا حتي أصبحت بغداد ملطخة بالدماء ثم بعد عدة سنوات من هذه الحادثة الموجعة وبالتحديد في عام ١٠٨٢م كان العالم الأشعري الآخر وهو البكري قد أشعل الجو في بغداد بسبب خطبه المنفرة وبعد ذلك فكل سعي محمود للقضاء علي هذا الجدال الفقهي أتي بنتيجة عكسية ففي عام ١٠٩١م اهتم نظام الملك بانعقاد مجلس المحادثة والمذاكرة لتسوية الخلافات التي صارت في موضوع ذات وصفات الله تعالي لكن الفريقين لم يكونا معتادين علي أي محادثة أو مناقشة علمية فرفض الحنابلة قبول الدعوة قائلين أن من يكون منتسبا إلي البلاط الملكي لا يحق له أن يحاسبنا علي إيماننا. وكان المصنف متكدرا وحزينا علي هذا الموقف وإلي أين آلت الأمور إذ أصبحت بعض القضايا التي لم يكن يعتد بها محور اهتمام من قبل الدين. كان مكتوبا: تنتابني حيرة عميقة إلي أين وصل ديننا الحنيف وإلي أي شكل تحول فهناك من هو معتزلي ومن هو أشعري ومن هو حنبلي ومن هو شافعي ومن هو ظاهرة ومن هو حنفي. لا أدري من أين خرجت هذه الأشكال المختلفة والمتحاربة أما أهل التصوف فدنياهم تختلف تماما وغير معلوم من أين وضعوا لأنفسهم كل هذه الطرق المختلفة. إن الزوايا والخانقاهات الموجودة الآن في كل الجوانب والأكناف لم يكن لها وجود في الصدر الأول وهي تحظي بحماية السلاطين وهم من جانبهم يصدرون الأوامر لتخصيص الإقطاعات الكبيرة لمسؤوليها. فهل هناك مظاهر مكروهة أكثر من تلك وهي أن تطلب الدنيا باسم الدين.

ومن العجيب أنه كان هناك شعور بالخطر لدي أهل العلم لهذه الحالة المتفاقمة كأن أهل الفكر والنظر كانوا قد أدركوا أن الخلافة العباسية بسبب ضغوط آرائها المضادة ونظرياتها المتشددة أوشكت علي الانهيار.

وحسب قول المصنف: أصبحنا من حيث كوننا أمة متفرقين وكأن التفكك والتشتت قد أصبح قدرنا. من أين وصل الأمر وإلي أين. في ليلة النصف من شعبان تكون المساجد ممتلئة وفي أول ليلة من جمعة رجب تضاء المساجد بالمصابيح ولو جئنا إلي العبادات المصطنعة مثل صلاة الحاجة وصلاة التراويح وعشرات من أمثال هذه العبادات يهرع إليها عامة الناس بكل رغبة وشوق تستحق المشاهدة ويجد العلماء أنفسهم عاجزين أمام حماسة وحرارة العوام وهم يعبرون عنها بالبدعة الحسنة. إن الحكام الأيوبيين الذين لم يكن لديهم أي انتماء للمصالح الدينية كانوا يساهمون في هذا الحماس الشعبي. فوالد وأحدهم يقوم بكفالة دروس مسند ابن حنبل والآخر يتولي رعاية مدرسة فقهية خاصة فمثل هذا الموقف قام بترويج وترسيخ النظرية المتحاربة والتدين المصطنع في الأمة.

وفصل من هذا الكتاب كان مخصصا للوقائع والمناقشات. حاولت كثيرا الاطلاع عليه لكن وبسبب الاهتراء وانتشار الحبر من مكان لمكان لم أستطع فهم العبارات جيدا. كل ما فهمت أن المصنف يشكو بشدة من استحباب الحكام الأيوبيين والزنكيين للإسلام. كان مكتوبا أن الحكام الأيوبيين والزنكيين قاموا بتنمية ثقافة القبور والزوايا. وهذه السياسة مغايرة تماما لروح الإسلام الجميلة السمحة.

وحسب قول المصنف إن موظفا للملك الظاهر ظن أن مقبرة في مكان موحش بحلب هي مقبرة قس بن ساعدة فماذا حدث لكي يتحول

هذا المكان في وقت قياسي إلي مزار والآن يتوافد إليه جمع غفير من الزائرين وتقام هناك حلقات الذكر والتلاوة باستمرار. إن عدم أهلية الحكام وعدم توفيق العلماء وضعف الخلافة كل هذا وذاك قام بمسخ الدين المبين. يا ليت لو وجد هناك أحد ممن يمنع هذا الوضع المزري.

الفصل الرابع عشر

ع م س

إن تصفح كتاب البدع قد جعلني في حالة عجيبة من الفرح والسرور. في ذخيرة المخطوطات هذه كانت هناك أيضا بعض الكتب غير المفهومة بالنسبة لي بسبب لغتها الأجنبية فإنني لم أكن علي معرفة بالكتابة الألمانية القديمة وكذلك اللاتينية فتأسفت علي قصر معرفتي. وفي الجانب الآخر من المكتب كانت بعض الأوراق مبعثرة أمام الكرسي الخالي وقعت عيني علي كتاب ذو جلد ذهبي. بدأت أقلبه ثم توقفت. يا إلهي! ما هذا؟ إنه كتاب المجموع. إنه الكتاب المعتمد والمعتبر للطائفة العلوية النصيرية. إن هذا الكتاب المزين بالخطوط الملونة كان نموذجا لفن الخط العربي وكانت قد بدأت السورة الأولي بهذه الكلمات: قد أفلح من أصبح بولاية الأجلح. تصفحت عدد من الصفحات علي عجل فوجدت علي رأس الصفحة التالية في خانة المحراب الجميل السورة الخامسة واسمها "الفتح" والتي كانت تبدأ هكذا "إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا. أشهد بأن مولاي أمير النحل علي خلق السيد محمد من نور ذاته وسماه اسمه ونفسه وعرشه وكرسيه و صفاته، متصل به ولا منفصل عنه ولا متصل به بحقيقة الاتصال، ولا منفصل عنه في مباعدة الانفصال، متصل به بالنور، منفصل عنه بمشاهدة الظهور."

إنني قد سمعت من قبل عن الباكورة السليمانية لسليمان أفندي لكنني لم أكن أعرف أن كتاب المجموع يكون مشابها إلي هذا الحد للكتب المجهولة للأوراد في الأسلوب واللهجة. في الأول تجد آية أو أيتين من القرآن الكريم ثم تبدأ عبارات عبارات مجهولة يميزها القافية والسجع والتي تنفي الدعوة الأساسية للوحي الرباني.

والحقيقة أن جميع التأليفات الضالة والمضلة كهذه صنفت علي سبيل الاستهزاء بالوحي الرباني. وهي تجعل المريدين السذج في التباس فكري ويحسبون باستمرار أنهم قد حصلوا علي وصفة مجربة أو عرفوا سرا من الأسرار. وعبارات سورة السلام توثق هذا الرأي.

"سجدت وسلمت ووجهت وجهي لفاطر السماوات والأرض حنيفا مسلما وما أنا من المشركين. بدا السلام من المعني القديم علي الاسم العظيم، وسلم الاسم العظيم، علي الباب الكريم، وسلم الباب الكريم، علي أركان الدنيا والدين..."

والسورة العاشرة وهي سورة العقد وهي وإن كانت مختصرة لكن عباراتها تتميز بقافية خاصة:

"أشهد أن الله حق وقوله حق وأن الحق المبين، علي ابن أبي طالب الأنزع البطين، والنار مسوي للكافرين، والجنة روضة للمؤمنين، والماء من تحت العرش يطوف، وفوق العرش رب العالمين، وحملة العرش الثمانية الكرام الذين هم إليه مقربون، عدتي في شدتي وعده كافة المؤمنين، سر عقده ع م س".

وبينما كنت أستمتع بقراءة كتاب المجموع سمعت صوت أقدام أحدهم في منتصف الليل. فمن هو يا تري القادم إلي مكتبة بورل الهادئة للاطلاع؟ ولمن هذه الكتب المبعثرة من دون ترتيب؟ كان هذا السؤال لغزا بالنسبة لي. فماذا رأيت؟! رأيت شخصا طويل القامة منير الوجه وذو

ملامح حادة يرتدي الجلباب يدخل المكتبة وفي يده بعض الكتب والأوراق. في سكون الليل أشعرني حضور هذا الشخص بشيء من الوحشة. من رأسه إلي أخمص قدميه جلباب فضفاض ومن ورائه طاقية مزركشة معلقة عند رقبته كأنه ممثل بإحدي القصص البوليسية كـ(أساسين). وعندما اقترب ظهر صوت السلام والتحية وبدماثة خلق وبشيء من الاستغراب قال: يا هذا حضرتك هنا، يا مرحبا يا مرحبا. وفي المرة الثالثة لكلمة الترحيب مد يده للمصافحة. كنت في حيرة واندهاش وكان يخالجني القلق أيضا فإن هذا الشخص مألوف لي إلي حد ما لكن لم أكن أتذكر أين قابلته. قال: فكرت لأكثر من مرة بأن أحظي بمقابلتك لكن الانشغال بالمطبخ حال دون ذلك.

حسنا فهذا هو الشخص الذي رأيته أكثر من مرة مرتديا البدلة والكرافتة وهو يمر بالمطبخ لكن هذه كانت أول مرة أراه فيها بملابس شرقية وهو يحمل الكتب ولذا كان التعرف عليه صعبا. بدأ يقول: إنني لا أجد الوقت للاطلاع علي الكتب إلا في الليل ولمدة قليلة ثم إن قاعة المطالعة هذه ببورل فيها هدوء تام. لا يأتي الزوار في العادة إلي مثل هذه الغرفة الكائنة علي السطح بسبب السلالم الخشبية التي تبدو في ظاهرها مخدوشة ولو مر في هذه الأثناء طائر من هذه الممرات فالزائر يصاب بالوحشة بسبب السلالم القديمة. لكن المتعة كل المتعة في كاسل تكمن في هذه الغرفة. مع هذا الكلام فتح الدرفة اليمني للنافذة الصغيرة وبدأ نسيم الهواء يدخل إلي الغرفة ليجعل القلب والروح في حالة انتعاش. قال لي: عندما تبدأ بالشعور بشيء من التعب أثناء المطالعة فعليك أن تفتح هذه النافذة لفترة وجيزة. إنها تجعلك نشيطا من جديد لمواصلة العمل. مع هذه النصيحة جلس علي الكرسي الذي كانت أمامه الكتب المبعثرة. إنني لم أكن قد وصلت إلي حل هذا اللغز وهو كيف لطاه بالنهار أن

يتحول إلي عالم في الليل. كنت بكل تأكيد سمعت عن القصص التي تحكي عن مجاهد بالنهار وعابد بالليل لكن هذه أول مرة أري فيها طاهيا مشغولا في مطالعة الكتب العلمية والدقيقة في مثل هذا الوقت من الليل. فهل الطهي أيضا نوع من الستار الذي يختبيء وراءه هذا الشخص.

والآن وبعدما جري الحديث بيننا عرفنا من خلاله أن اسمه "سليمان" وله مطعم كبير في ليوبليانا باسم "كوفي آند جريل" و مطعمه هذا هو الذي تولي مسئولية توفير الطعام والشراب هنا. يبلغ سليمان من العمر ما بين ستين وخمس و ستين سنة. وجهه منير وحديثه رزين وكلامه كله مزين بالثقة والوقار. وعندما تظهر علي وجهه الابتسامة بين الحين والآخر أثناء الكلام فيبدو أن في شخصيته مزيج بين الصرامة والعناد إلي حد قليل. وهو ليس من أولئك الذين يرفضون وجهة نظر أخري بالمرة. بدون مقدمة أو تمهيد أخرج من حقيبته كتابا وقدمه لي قائلا: من فضلك ألق نظرة سريعة عليه وقل لي رأيك بشأنه. ألقيت عليه نظرة سريعة وقلبت صفحاته. كان اسمه كتاب "الأقدس" لكنني لم أعرف لماذا يريد معرفى رأيي في هذا الكتاب. قال: في هذه الأيام دعوة الطائفة البهائية علي أشدها في ليوبليانا فما رأيك فيها؟ بعد نزول القرآن الكريم ما الموقف الذي يجب علينا أن نتخذه حول الوحي الجديد القادم. هل يدخل هؤلاء في حظيرة حاملي الكتاب أم أنهم بعملهم هذا خرجوا عن دائرة ملتنا و ذهبوا بعيدا عنا؟

هذا السؤال بكل تأكيد مهم لكن هل تسمح لي أن أسألك سؤالا آخر قبل الرد علي هذا السؤال؟

طبعا بكل تأكيد

من أين أحضرت تلك النسخة النادرة من كتاب المجموع أو بمعني آخر كيف وقعت في يدك؟

علي سؤالي هذا ابتسم في الأول ثم قهقه ووقف فجأة ولمعت عيناه ولا أدري فيم فكر ليجلس قريبا مني علي الكرسي الموجود هناك وأمسك بنسخة كتاب المجموع وعلي آخر الصفحة حيث كان مكتوبا تاريخ نسخه "أراني" وقال: انظر كم هي قديمة هذه النسخة. تاريخ نسخها ٩٣٠ه أي مرت عليها خمسة قرون من الزمان ومازال رونق وبهاء هذه المخطوطة باقيا إلي الآن. هناك قصص كثيرة مرتبطة بهذا الكتاب وبالنسبة لي فهو يعد أغلي متاع من الباقيات التي تركها آباؤنا وإنك بذكر كتاب المجموع فقد أيقظت في داخلي كثيرا من الذكريات النائمة. كم كانت الأيام جميلة عندما كنت أجلس في مجلس الشيوخ وأعد نفسي أيضا من الذين يملكون شيئا من العلم والمعرفة فالمشاركة في حلقة الخواص ومعرفة سر الأسرار والانهماك في مطالعة كتاب المجموع وكتاب المشايخ وكذلك كتاب الديانة النصيرية. لكن في يوم من الأيام حالفني الحظ والتحقت بالجامعة الأمريكية ببيروت.

ماذا تقصد؟ هل كنت في وقت ما تحت تأثير الطائفة النصيرية؟

قال: لم أكن تحت تأثيرهم بل الحقيقة أنني درست وتربيت في وسطهم وكانت تربيتي في مجالس شيوخهم لكن كنت متوجسا منذ البداية وكانت الغلبة للتعقل ولذلك لم أستقر في مكان ما. واليوم في منتصف الليل أجد نفسي في القلعة الأسطورية لكاسيل بورل. ولا أدري لماذا تتعقبني الأسئلة الجديدة. مع هذه الكلمة أخذ نفسا طويلا كأنه يواسي نفسه علي تحسسه لطلب العلم. ثم رجع إلي كرسيه الأساسي وأخرج من الحقيبة مذكرة قديمة وكانت صورته الفوتوغرافية ملتصقة في داخلها وعلي رأس الورق. قدم المذكرة إلي قائلا: انظر إلي صورتي في أيام الشباب فستفهم من خلالها أشياء كثيرة بنفسك.

لم تكن صورة عادية بل كانت عبارة عن صورة لخمسة عشر وعشرين من شيوخ الطواقي شبه العمائم وهم جالسون علي الكراسي في شكل نصف دائرة ولحاهم البيضاء كانت طويلة بشكل غير عادي. وفي مجلس الشيوخ هذا كان هناك شاب شكله منحني ممسكا بكوب من الماء ويحمل علي رأسه سلة كبيرة. قال: هذه صورتي في أيام الشباب وقت دخولي في حلقة الخواص. للوصول إلي هذه المرحلة يفني الناس جزءا كبيرا من حياتهم لكن بالنسبة لي كان هذا إعزاز ومفخرة في هذه السن الصغيرة. لو واصلت السير علي هذا الطريق لكنت أعد اليوم من كبار المشايخ ولكانت لي أهمية كبيرة علي الأقل في سياسة دمشق.

حديث سليمان هذا جعلني في حيرة شديدة. قدرت الآن أهمية الصحبة. هذا الشيخ الذي كنت أعرفه إلي الآن مسلما بلقانيا ظهر لي عضوا مهما للطائفة النصيرية. حدثتني نفسي أن هذا الرجل يقول علي نفسه مسلما وقبل قليل كان يريد معرفة رأيي عن كتاب الفرقة البهائية كتاب الأقدس بعد انقطاع الوحي. ففي حديثه لون من الصبغة العلمية وكذلك لديه شغف بالبحث العلمي. نفس الشيخ يُري وهو يتجول حول المطبخ كصاحب مطعم "كوفي آند جريل" مرتديا البدلة الغربية. إنها شخصية عجيبة وغريبة ذات طبقات ربما تتفتح مع مرور الوقت. ولذا سألته: إنك في يوم من الأيام كنت تؤم المسلمين في البوسنة. وهنا تظهر في الصورة بطلا جليلا للطائفة النصيرية والذي استحق أن يدخل بينهم رغم سنه الصغيرة.

بعد سماع هذا الكلام ضحك بصوت عال مرة أخري وقال: إنني ولد في وسط نصيري وتعلمت في الجو العلماني المتنوع الأفكار. وفي السنوات الثلاث التي كنت طالبا فيها للعلوم السياسية في الجامعة الأمريكية ببيروت ظللت أحارب الشخصية النصيرية التي كانت تتربي في

داخلي. إن مدينة بيروت عجيبة وغريبة ففيها الشرق والغرب والنصاري والمسلمون والنصيريون والدروز والشيعة والسنة والعلمانيون والمحافظون فكل هؤلاء وأولئك تذوب آراؤهم في هذه المدينة وربما لن تجد مثل هذا الذوبان في أي مكان آخر في العالم. وأفضل شيء هنا أن كل واحد منهم يتحمل الآخر بكل سرور وكذلك تتزين محافل الترف والأنشطة الثقافية برائحة البارود والحملات الإرهابية كأن أهل بيروت محترفون في عصر آخر قطرة للحياة.

لكن في لبنان نري أن الشيعة يعيشون علي ضفة من نهر بوعلي والسنة يعيشون علي الضفة الأخري فكيف يمكن أن تسميهم بأنهم يذوبون فيما بينهم. قال: كل هذه تقسيمات ظاهرية. إن روح بيروت الأصلية تعيش في المقاهي ومجالس العصف ففي هذه المجالس الخالية من أي كلفة تنضم إليها باستمرار كل هذه البيوت المصطنعة من اللون والعرق والفرقة والديانة واللسان والمواطنة. وفي مجالس كهذه بدا لي أنني لو سنحت لي الفرصة لرأيت جامعة الأزهر عن قرب لأن تاريخ أجدادنا مرتبط بهذه المؤسسة التعليمية والتي في بنائها يوجد عنصر الخلافة الإسماعيلية والنصيريون وإن كانوا يحسبون أنفسهم منفصلين عن عامة المسلمين لكن من ناحية الخليفة الحاكم يدعون علاقتهم بالماضي العتيد.

فهل النصيريون إلي الآن ينظرون إلي الأزهر من حيث الطائفة جزءا من ميراثهم؟ قال: لا تقل الميراث لكن في أذهاننا مازال هذا الأمر ماثلا إلي اليوم نحن النصيريون علي الهامش وبسبب التسلط السياسي للمعارضين نحن مجبرون علي كتمان إيماننا. لكن في نفس الوقت علينا أن ننسي العصر الذي كانت فيه الخلافة العباسية في بغداد والخلافة الأموية في الأندلس. كانا يفقدان زهوهما أمام مهابة وجلالة الخلافة الفاطمية. لكن رحلتي للقاهرة لم تكن للبحث عن جذورنا فقط فعندما خرجت من

اللاذقية وجئت من الجامعة الأمريكية ببيروت وسنحت لي الفرصة أن أقابل أناسا لكل منهم رأي يختلف عن الآخر ففي ذات الوقت تولدت في داخلي عملية الكتمان بشأن العقائد الدينية. إن طائفة النصيرية العلوية جزء صغير من الأمة الإسلامية. وفي بلاد الشام لا يتخطي عددهم ١٠ أو ١٢٪ لكن في تركيا أيضا هناك عدد كبير لهؤلاء.

علي تدخلي هذا اندهش في أول الأمر ثم ضحك بصوت عال وبدأ يقول لي: يا أخي إن العلويين الأتراك يختلفون تماما عن العلويين الشوام. إن العلويين الأتراك أصلا سلسلة من المريدين للولي الحاج بكتاش. وإن كانت هناك بعض الأشياء مشتركة بينهما بسبب علي.

فماذا حدث لك في القاهرة؟

قال: نعم إنني قادم إلي نفس الجزء من القصة. كنت أفكر كثيرا أثناء إقامتي في بيروت أنه مهما ادعي الشيوخ النصيريين عن إدراك سرية أسرار ورموز الكون لكنهم منذ قرون علي الهامش علي مستوي الحياة الدينية والاجتماعية وإنهم قد تعاملوا مع التقية والكتمان بحيث أن معتنقيهم ليس لديهم أي تقدير لأساسهم النظري لأنهم في هذا الزمن غير ممكن لأي شعب أن يعيش محاصرا بين الجبال. فقد كان في داخلي أيضا اضطراب نحو طائفتي. كنت أريد أن يؤدي النصيريون العلويون دورا علي المنصة المركزية للقيادة والرئاسة وهذه هي الدوافع التي ذهبت بي إلي جامعة الأزهر.

هل الباب مفتوح بالنسبة لأبناء النصيريين للالتحاق بجامعة الأزهر ؟

علي سؤالي البريء هذا تبسم وقال: إن مكانة التعرف المذهبي لدي النصيريين ما هو إلا مثل اللباس الظاهري لكن الأصل هو الجسم. مهما يكن اللباس الذي ترتديه فأنت كما أنت. ففي هذه اللحظة سواء

اخترت الهوية النصيرية أو السنية فلا فرق سيظهر بينهما لأن الفرق في كل الأحوال ضروري أليس كذلك؟

لو كانت حقيقة الهوية المذهبية هي فقط بهذا القدر فكيف يتعرف النصيريون علي إخوانهم؟

قال: إن النصيريين قد اخترعوا لهذا الغرض لغة أخري لا يعرفها إلا الخواص فنحن عندما نلتقي ببعضنا ونريد أن نعرف هل المخاطب ينتسب إلي مذهبنا أم لا فنسأله إن في مدينتك أو الحي الذي تقطنه يسكن قريب لنا فهل تعرفه؟ فهو يسأل بدوره ما اسمه؟ فيكون الجواب الحسين.

من الحسين؟ لو جاء في الجواب ابن الهمدان فالسائل يسأل مرة أخري وما تكملته؟ أي ماذا بعد؟ فلو جاء الرد الخصيمي فافهم أنه من ديانتك وقومك لكن لا يكفي هذا القدر من الاختبار حيث يكون هناك سؤال آخر وهو منذ متي وعمك مهاجر؟ فإن جاء الرد ستة عشر فاعلم أن هذا الشخص أيضا ممن يحتفظ بالأسرار. ولو كان السؤال: إن كان عمك عطشانا فماذا تفعل؟ يكون الرد: سأسقيه ماء المعرفة حتي يرتوي. وإن كانت قدمه بدأت تخصف في الرمال فإلي أي جهة ترشده؟ إلي ناحية ثعبان معاوية. وهناك أسئلة أخري كهذه تجعل وسط الخواص يتعرفوا علي إخوانهم.

وما سر عقد ع م س ؟ إنني أشرت إلي آخر آية من سورة العقد الخاصة بهم. إنه العهد الذي يتم من خلاله حلف اليمين علي ألا يكشف أحد منا السر عن التعليمات والتوجيهات والمراد من حرف العين علي ومن الميم محمد (ص) ومن حرف السين يشار إلي سلمان الفارسي.

إذن فسلمان الفارسي أيضا جزء من تكوين عقائد النصيرية.

نعم، يمكنك أن تفهم أن الحروف ع م س خلاصة العقيدة النصيرية فعلي هو ظاهرة الإله أو يمكنك أن تقول أنه هو الذي يتقلد

منصب الإله ومحمد يمثل الحجاب وسلمان هو الطريق. طريق البحث والفحص الذي بالسير عليه ينال المريد مراده. إن ع م س هي اختصار للشهادة الإيمانية للنصيريين. إما أن تقول ع م س أو تؤدي الكلمة هكذا

أشهد أن لا إله إلا	حيدرة الأنزع البطين
ولا حجاب عليه إلا	محمد الصادق الأمين
ولا طريق إليه إلا	سلمان ذو القوة المتين

وإن وضعت يدك علي يد نصيري وقلت له إني أحلفك بأمير المؤمنين أو أحلفك ب(ع م س) ففي هذه الحالة تقيته تنقضي ويصبح مجبرا علي صدق الكلام.

العجب كل العجب! إنك قد قلت كلاما مهما ومفيدا. نعم، وإن كنت تريد ألا يقول المُخاطب إلا الحق ففي تلك الحالة لو قمت بوضع إصبعك علي رقبته وخالطت الأصبع بلعاب فمك وقلت: إن كل ذنوبي ستنتقل إلي صحيفتك لو لم توف حق ع م س ولم تخبرني بصدق الأمور الفلانية.

كان حديث سليمان قد فتح لي عالما جديدا. كان أول لقاء لي مع شيخ محاط بالسرية من الطائفة النصيرية ولذلك قلت له بشيء من الفكاهة: والآن أظهر من فضلك سر عقد ع م س. ففي هذا الوقت الهوية النظرية التي تحملها للإسلام والتي بسببها ظللت تؤدي فرائض الإمامة لسنوات عديدة فهل كان هذا لباس التقية والكتمان؟

علي سؤالي هذا قفز سليمان من مكانه وبدأ يقهقه واضعا يده علي المكتب بشدة. قال: أني للنصيري أن يبتعد بهذه السهولة ثم فجأة أصبح جادا وهادئا إلي حد كبير. قال وصوته مختلط بالدموع: نعم إسلامي يبدو كزي أحيانا ويبدو أنني لم أستطع الدخول فيه بعد ثم إنني غيرت

أزياء كثيرة واخترت ملابس مختلفة ففي بيروت كنت ليبراليا وعلويا علمانيا واخترت في القاهرة الإسلام السني ثم السلفي وفي البوسنة ازدادت علاقاتي بأوساط أهل التشيع ومع كل هذا السفر الطويل يبدو لي أنني لم أتخلص بعد من الحلقات المصطنعة للإسلام المتوارث. يبدو لي أنني كلما أقترب من إمساك تجليات الوحي تفوتني.

حينما رأيت سليمان بهذه الحالة من تكدير الخاطر حاولت مؤازرته. قلت له: انظر إن رحلة البحث لا تنتهي أبدا. فمثل هذه الرحلة لا محطة لها أو علي الأقل لا هدف ولا غاية منشودة لها.

قال: لكن هذا السفر قد طال كثيرا وهو مؤلم أيضا. عندما كنت في بيروت أيام الدراسة كان يبدو لي كأن في كل لحظة تغشاني احتمالات التجليات وأبواب الطرق الحديثة تنفتح بقدر الإمكان.

أثناء إقامتي في بيروت كان محور تفكيري هو تجديد وإحياء الطائفة النصيرية وفي القاهرة تولدت في داخلي شبهات حول العقائد النصيرية. في بيروت ظللت أحارب مع فكر اللاذقية المحدود وضيق أفقها. لكن وأثناء الإقامة في القاهرة اتضح لي جليا أن العقائد النصيرية لن تستطيع أن تبقي معي كثيرا.

ما الذي حدث في القاهرة حتي تفقد توازنك النظري؟ أردت أن أعرف بصفة خاصة سر هذا التحول.

قال: لأول مرة تيسر لي في الأزهر الشريف وجود المصادر والمراجع لأهل السنة وذلك لدراستها بشكل منظم. ذات يوم وإذ كنت أتصفح الجرائد المصرية في المكتبة وجدت فتوي للشيخ شلتوت قال فيها بسعة قلب أن الشيعة هم المذهب الخامس ويمثلون الفقه الجعفري.

لكن هذه الفتوي لا تنطبق علي النصيريين أليس كذلك؟

كان مبعث اهتمامي هو أنه لا يصح لأهل الفكر والنظر أن يصبحوا مقيدين للأبد لتأويل معين ومخصوص للدين لأن الدراسة الجديدة تستطيع رد ورفض المناقشات القديمة فلماذا شيوخنا النصيريون مبتعدون عن تغيير تأويلاتهم الدينية نظرا للظروف الجديدة وإلي متي نخفي عقائدنا كالمجرمين ونهرب من أعين الناس. وكلما كنت أفكر في هذا الأمر كان إحساسي يزداد بشدة أن بسبب اختيار التقية والكتمان باستمرار تم مسخ هويتنا النصيرية. وفي هذه الأثناء كلما كنت آتي إلي وطننا اللاذقية في الأجازة كانت تدور بيني وبين المشايخ الكبار مناقشات حامية وكنت أطلب منهم أن يوضحوا هل لهم أي علاقة نظرية بالمسلمين أم لا؟ وكذلك في خطة النصيريين للمستقبل إلي أي مدي نستطيع نحن النصيريون ضم فرق الدروز والسنة والشيعة الاثني عشرية إلي خطتنا؟

فماذا كانت نتيجة هذه المناقشات؟ وما الوجهة التي اختارها الشيوخ الكبار نحو قلقك هذا؟

قال: شعرت بسرعة أن القيادة الدينية تعتقد أن أي حوار داخليا كان أو خارجيا بالنسبة لها سما قاتلا. وبدأت الحالة تسوء بعد ذلك إلي أن وصل الأمر أن بعض الشيوخ بدأوا يحسبونني منحرفا وضالا واحتمال العودة إلي اللاذقية والقيادة الدينية للطائفة النصيرية هناك ولي وتولي. بل بدأت أشعر في وقت من الأوقات أن نفسي معرضة للخطر ممن أحسبهم أقرباء لي.

يا للعجب! ألم يكن هذا شعور مفرط منك؟

لم يكن الشعور مبالغا فيه أبدا. إنك بكل تأكيد قد سمعت عن سليمان الأفندي الأدني وهو نفس الشخص الذي صنف الباكورة السليمانية وكشف لأول مرة أمام العالم عن عقائد النصيريين.

نعم كتاب لطيف جدا له.

قال: هل تعرف ماذا حدث له بعد إفشاء الأسرار؟ لقد دفع حياته عقابا علي هذه الجريمة.

فماذا فعلت أنت؟ هل تركت محاولة تجديد وإحياء مشروع النصيريين؟

قال: ليس من المناسب استخدام كلمة الترك أو الوداع لكن ما حدث بكل تأكيد هو أنه طرأ في عتبة النظرية الخاصة بي بعض التعديلات الأساسية. إن النصيريين في واقع الأمر يكرهون المسلمين السنة كرها شديدا والسنة والشيعة والدروز كل هؤلاء يكرهون النصيريين ثم كل هؤلاء يضمرون النفور والبغض والعناد لبعضهم البعض. وأثناء اطلاعي علي مصادر ومراجع السنة وكذلك من خلال دراسة الأدب الموروث للفرق الإسلامية في القاهرة اتضح لي أن النهضة الثانية من جديد لهذه الفرق والجماعات أمر مستحيل لأن خيوط تاريخها وتراثها متصلة ببعضها بشكل ما لم تقم معه كل هذه الفرق في وقت واحد بالاتحاد بمحض إرادتها ورضاها فلا يمكن أن يشرق عليها صبح جديد.

حديث سليمان لم يزل جاريا حتي سُمع صراخ شخص ما وضرب طائر بجناحيه وهو ما جعل الجو مرتبكا. تخيلت ربما لو أن شخصا قادما إلينا خاف من ضرب الطائر بجناحيه فماذا أري؟ أري أن شخصين في الدور الأول حيث يوجد السلم الخشبي القديم المؤدي لغرفة السطح واقفان هناك وفي يد أحدهم قنديل مضيء وبمجرد أن رآني في الدور العلوي قال: كنت قد خرجت بحثا عنك لأنني عندما لم أجدك في الغرفة رأيت أن الضوء ينبعث من هنا في الغرفة الكائنة علي السطح لكن هذه الطيور قد أخافتنا. ثم إن هذا السلم أيضا مخدوش وقديم جدا.

في منتصف الليل مجيء ياسر وعبد الحميد إلي قد جعلني قلقا. قلت: تفضلا إلي الأعلي في المكتبة بشيء من الحذر وهنا سأجعلكما

تقابلان الشيخ سليمان. بعدما هدأ الشابان شيئا ما ردا: معذرة لأنكما مشغولان في حديث مهم ونحن قد جئنا هنا لنخبرك عن حالة علي كودرا.

ماذا حدث له؟

قالا: الآن هو تحت إشراف ومراقبة الدكتورة بيا وقد استغرق في النوم أيضا. لقد كان يتصفح الجرائد في الصالة إذ بدأ يصرخ فجأة قائلا: ميسون ميسون. ثم جاءت علي لسانه بعض الكلمات الهذيانية وغير مترابطة مثل (اجعله يظهر – عجل عجل) وبعد ذلك فقد توازنه النفسي وبدا وكأنه يترنح. الحمد لله وجدنا علي الفور الدكتورة بيا وهو الآن تحت تأثير دواء مسكن كما يبدو.

شفاه الله. إن شاء الله سيسترد صحته سريعا. طمأن سليمان الاثنين ثم نظر إلي قائلا: قصة ميسون قصة مؤلمة. لقد نشرت هذه المأساة في جريدة الجارديان ربما تكون قد مرت عليك.

لم أرها.

قال: علي بعد اثني عشر ميلا في الشمال من مدينة دمشق توجد منطقة تسمي ادرنة التي تسيطر عليها جبهة النصرة الجهادية وهؤلاء عطشي لدماء العلويين. كانوا يفتشون الكومباوند وبأيديهم قائمة. كانت تعيش هناك أسرة علوية ظلت علي اتصال لآخر لحظة بأقربائها في حلب والجرائد قامت بنشر قصتها. إن السيدة ميسون كانت محاصرة في شقتها مع زوجها وطفليهما. قالت ميسون علي التيليفون لأخيها: إننا قمنا بتوفير القنابل اليدوية. لو دخل العدو في شقتنا لفجرنا أنفسنا بمساعدة تلك القنابل. أشار عليها أخوها في التيليفون أن تسعي للخروج مع الأطفال لعل وعسي يوفرون لها طريق الهروب بعد رؤية الأطفال. وبعد ثوان تم الاتصال بميسون مرة أخري. أخبرتهم أن العدو قد اتخذ مكانه علي

السطح وقد اقتحم الشقة الآن أيضا. سامحني لا أستطيع الآن التحدث أكثر من هذا. سقطت السماعة مع هذه الكلمة وفي نفس التو واللحظة سُمع صوت انفجار شديد. في اليوم التالي جاءت مكالمة لأخو ميسون من طرف قريب له مخبرا إياه أن زوج شقيقته نزار كان قد اتصل به وكان صوته مرتعدا بحيث لم يستطع سوي القول بأن بشر قد مات وميسون وكريم جريحان وفي حالة خطرة ثم وقعت السماعة من يده. في اليوم التالي حاول أخو ميسون الاتصال ببعض الجيران لأن المنطقة كانت محاصرة ولم يكن يستطيع الذهاب إليها وعرف من خلال الجيران فقط أن نزار وكريم وبشر قد ماتوا جميعا في الشقة أما ميسون فقد طارت إحدي ساقيها نتيجة الانفجار وأخذها الجهاديون معهم. وفيما بعد عُرف أن المرأة ذات الساق الواحدة التي كان يجرها الجهاديون خلف سيارتهم كانت هي ميسون. إن الحرب الأهلية في سوريا قد تخطت كل الأرقام القياسية في الوحشية. مع هذه الكلمة سكت سليمان والمجلس قد غشاه سكوت مؤلم وموحش. والآن عرفنا لماذا لم يستطع كودرا تحمل سماع هذا الخبر لعل مختلف الشخصيات الموجودة في داخله بدأت تتحارب مع بعضها البعض. إن ياسر وعبد الحميد كانت أعينهم تفيض من الدمع لكن لم يكونوا مدركين ما علاقة الحرب الأهلية بسوريا بسوء صحة علي كودرا؟

الفصل الخامس عشر

أقوال سليمانية

إن الهواء البارد القادم عبر النافذة كان قد ازدادت شدته الآن فتارة كان يظهر البرق في السماء وتارة يُسمع صوت الرعد وهو ما جعل الأمر مخيفا. إن ياسر الذي كان جالسا بجانب النافذة مباشرة سأل: لماذا تفتح حضرتك النافذة في هذه الأجواء السيئة؟ إن شئت فأغلقها وإن كانت تلك هي نافذة المكاشفة. نظر سليمان إلي ياسر بعد هذه الكلمة وكأنه يحاول جس نبضه ثم اتجه إلي قائلا: هل أخبرك بشيء؟ إن هذا الرعد الذي يُسمع الآن والذي يُفزع القلوب ونحن هنا في لحظات التجليات نفسها هو في الواقع صوت علي. وبعد ذلك قهقه.

ياسر كان مندهشا ولم يفهم شيئا. كان يضع يده علي يد الكرسي وكأنه يريد الذهاب من المجلس فقال: معذرة علي قطع الكلام. ائذن لي.

قلت: إن الحديث قد أوشك علي الانتهاء وهو كلام يهم الجميع. إذا أردت فاجلس. صديقنا سليمان ولد في بيت شيخ نصيري ثم ذهب إلي بيروت باحثا عن الحق وكذلك اتجه إلي القاهرة لنفس الغرض وتجول في بلاد كثيرة. إنه كان يتحدث الآن عن بعض الذكريات الجميلة التي ترجع لأيام دراسته.

بمجرد سماع كلمة نصيري تريث ياسر قليلا. تغير لون وجهه لكن نظرا لحساسية الموقف لعله أدرك في أن الخير كل الخير في الالتزام

بالصمت. وعبد الحميد كان مترقبا أيضا وجلس علي الكرسي بكل أريحية كأنه ينتظر شيئا وفي نفس الوقت كان متلهفا لسماع الجزء المتبقي من القصة. إن سليمان الذي كان قد تحول بالنسبة لنا بسبب أقواله وفرامينه إلي الشيخ سليمان بدأ يتذكر أيام إقامته في القاهرة. قال: إن فتوي الشيخ شلتوت قد هزت أساس نصيريتي وإن كانت هذه الفتوي تخص الشيعة الاثني عشرية وهي الفرقة الشيعية التي قام بتكفيرها وأفتي بضلالتها المتقدمون من العلماء وهم مجمعون علي هذه الفتوي وجاء الشيخ شلتوت (شيخ الأزهر الأسبق) وأسقطها بجرة قلم بعد الإجماع الذي استمر قرونا. فكرت مرارا وتكرارا أن مختلف الفرق والطوائف لأهل الحق التي كفرت كل واحدة منها الأخري واتهمتها بالشرك والانحراف والزندقة إلي جانب اتهامات أخري مثلها وهو الأمر الذي تسبب في اتساع فجوة النفور والعناد فيما بيننا. هي جميعها محاكمات بشرية وجدل بشري ولا تعدو كونها مجرد آراء. ثم أن هذه الأحكام والقرارات تتغير وتتبدل حسب المصالح السياسية. فعلي سبيل المثال الفرقة العلوية النصيرية خارجة عن دائرة الإسلام لدي جمهور المسلمين لكن في عام ١٩٣٦م أصدر المفتي السني الحاج أمين الحسيني فتوي جعلهم بموجبها جزءا من المسلمين. وفي عام ١٩٧٣م قام العالم الشيعي باقر الصدر بتوثيق هذه الفتوي. إن أهل السنة يطلقون علي الشيعة مصطلح الروافض والشيعة الاثني عشرية يعدون النصيريين والدروز من الغلاة أما النصيريون فهم يحسبون الشيعة الاثني عشرية مقصرين. فكما نري أن الاتهامات المتبادلة بين الفرق لا يمكن بأي حال من الأحوال تسميتها فهما للدين. ولو سميناها بهذا الاسم فسيكون عملا ظالما لا يمت بصلة للعدل والإنصاف. إن فتوي الشيخ شلتوت قد جعلتني أشعر لأول مرة في حياتي بأن فهم الإنسان للدين ليس حتميا بل هو قابل للتغيير والتعديل. ففي هذه الحالة

لا يصح أبدا أن الفرقة النصيرية التي تطلق علي نفسها شيعة الحق و شيعة الهدي أن تستمر في نظرها ضيق أفقها والانغلاق العقلي والفكري.

معذرة علي أنني أقطع تسلسل كلامكم لكنني أريد أن أعرف هل النصيريون حقا يقولون علي أنفسهم شيعة الحق أي خطوة متقدمة عن الاثني عشرية؟ أظهر عبد الحميد دهشته.

نعم، والدروز الذين نحسبهم خارجين عن الدين يدعون أنهم أهل التوحيد الحقيقي.

الدروز أهل توحيد؟

ما هذا الذي تقول؟ فهؤلاء لا علاقة لهم حتي بالصلاة والصوم. قالها عبد الحميد محتجا علي هذا الكلام.

نعم في الظاهر هذا ما يبدو وهي طائفة ضالة ومضلة لا علاقة لهم بالإسلام لا من قريب ولا من بعيد لكن لو سألت عن عقالهم (حكمائهم) فسيقولون أن فهم التوحيد اختص بهم فقط.

العقال؟

نعم ففي أوساط الدروز يطلق علي حكمائهم وشيوخهم وصف العقال. وعامة الناس الذين لا يفهمون شيئا من رموز الدين يطلق عليهم مصطلح (الجهال). فكنت أقول أن الطائفة الدرزية التي لا تسمح لأحد أن يضعها علي الهامش تعد أهل السنة أهل الظاهر والشيعة والاسماعيلية حاصلتان لديها علي درجة أعلي فتسميهما أهل الباطن في حين تحسب نفسها أعلي وأكبر فهي طائفة أهل التوحيد. إن للسنة خمسة أركان للدين وللشيعة والخوارج سبعة أركان. تقول طائفة الدروز عن هذه الأركان: يجب العمل عليها لمن يعرفون المعني الظاهري للقرآن والشرع أما الدروز فقد رفع عنهم تكليف أداء أركان الدين فعليهم فقط أن يكونوا قائمين وثابتين علي أصول التوحيد السبعة.

إذن فإنهم قد قاموا بنسخ الشريعة كلها فلا صلاة ولا صوم ولا حج ولا زكاة فما ذا بقي من الإسلام؟

اعترض ياسر مرة أخري.

فهل لديهم كتاب آخر غير القرآن الكريم ومن خلاله تجري شئون حياتهم الدينية؟ سأل عبد الحميد.

قال: انظر إن السبب الرئيسي لتكوين الفرق هو أن أهل الإيمان عندما يحسبون كتابا آخر مفتاحا للمعرفة ويسلمون شيخا أو داعية أو عالما زمام الاختيار المطلق للتعبير والتأويل غير رسول الله صلي الله عليه وسلم فهؤلاء كلهم سواء كانوا نصيريين أو دروز أو اسماعيليون أو اثني عشرية أو طوائف أخري للشيعة أو حتي في أهل السنة والجماعة السلاسل المختلفة للأئمة الفقهاء والأئمة المتصوفون. ففي بناء وتأسيس كل هذه الفرق والطوائف يسري الأدب المعبر عن إبداع و صنع الإنسان.

لكن الدروز والنصيريون قد تفوقوا علي الجميع فقد ألغوا الشريعة نفسها ولا تستطيع أن تقول هذا بشأن أهل السنة. اعترض ياسر.

انظر. ليس الغرض إيذاء أحد أو الطعن فيه لكن الحق والحقيقة هي أن جرح مركزية القرآن الكريم ومنح مكانة لغير نبي الله تجعل من جميع أهل القبلة مذنبون بدرجات متفاوتة. فإن كان لدي الأحناف الهداية فلدي النصيريين كتاب الهداية الكبري الذي ينال قبولا عاما لديهم. وكتاب النصيريين هذا وكذلك كتاب المعارف ينبههم كما نقل الحسن العسكري أن الله لا يطلب من عباده العبادة ولكنه يطالب منهم معرفته فقط والمعرفة هي العبادة. "وما أراد منهم إلا المعرفة وهي العبادة" ففي هذه الحالة لو أفلت حبل الله المتين من أيدي النصيريين وابتعد عامتهم عن تجليات الوحي الرباني فالمسئول الأول عن هذا هم الشراع الذين أعدوا

ذخيرة كبيرة من الكتب الدينية من بعد القرآن الكريم. ولذلك أقول أن جميع الطوائف والفرق شركاء في هذه الجريمة.

لكن كيف تستطيع أن تقول هذا الكلام في حق أهل السنة؟ إن السيد ياسر الذي كان قد رفع راية الدفاع عن أهل السنة قد قالها نقدا لهذا الكلام.

قال: طالما تواصل رؤية الأشياء بنظارة فرقتك فلن تستطيع تقدير حقيقة الأمر. دع جانبا رداء الحنفية السنية واعمل حسب الآية الكريمة "كونوا ربانيين" ثم ستري بنفسك كيف أنك قد بدأت تشعر بهزات الوحي الرباني في داخلك. وإنني قد مررت بنفسي بتلك المرحلة ذلك لأنني طالما كنت مرتديا زي النصيرية كنت أري كل من حولي ضالا مضلا ولكن ما أن خرجت من العباءة النصيرية بدأ القالب السني للتأويلات يكشف لي هذه الحقائق التي لا يمكن أن يطلع عليها أصحاب العباءات النصيرية والدرزية والاثني عشرية ما لم يكن هناك اطلاع علي مختلف وجهات النظر لفهم الدين والأدب التعبيري والاجتماعي لأهل القبلة فلن يمكن التعرف علي حقيقة الأمر.

إن حديث الشيخ سليمان كان قد جعل ياسر وعبد الحميد مضطربين وقد ظلا ينظران إلي مرة تلو الأخري بعين الأمل لعل وعسي أستطيع أن أنقُد تحليل الشيخ سليمان الجارح.

قالا: ما رأيك أنت؟ فالشيخ يقول أنه لم يعد أحد يعتصم بحبل الله المتين فهل نحن أهل السنة أيضا نزلنا إلي مستوي الدروز والنصيريين؟

قلت لهما أن الشيخ سليمان ظل يتجول في مختلف الوديان فقد رأي الدين مرة بنظرة النصيريين ومرة أخري صار يبحث عن المصادر والمراجع السنية وكذلك وقع أحيانا تحت تأثير السلفيين وفي أحيان أخري اتصل وأقام علاقات مع الإثني عشرية من الشيعة ففي هذه الحالة ما

عليكما إلا أن تسمعا مناقشاته لأن مثل هذه المناقشات والتحليلات لا تجتمع في مكان ما بسهولة ولكن لي سؤال إلي الشيخ سليمان بجاه سر عقد ع م س. من فضلك أخبرني بصراحة ووضوح أين تجد نفسك الآن بعد كل هذه الأسفار النظرية التي قطعتها. انتُزعت منك عباءة النصيرية ولم توافق مزاجك السنية وكذلك لم تقتنع بالاثني عشرية الشيعية.

علي سؤالي هذا ابتسم الشيخ سليمان أولا ثم حرك رقبته إلي الوراء قليلا لينطفيء بعدها فجأة كأنه توقف عن الكلام الذي كاد أن يقوله وأخيرا تحدث بعد ذلك بلهجة حادة إلي حد ما قائلا: يمكنك أن تفهم فقط أن الأشياء قد بدأت تظهر علي حقيقتها لكن من يدري أن تكون هذه خدعة المعرفة فقط. ولذلك أكون دائما مشغولا في البحث والدراسة. انظر إلي هذا، فهذا كتاب الأقدس يدعي وحيا جديدا غير الوحي. إنه لشبكة جديدة بل أن هناك شبكات كثيرة غير مرئية. انظر كيف أن بسبب كتاب الأقدس خرج صاحبه وهو بهاء الله عن دائرة الإسلام لكن الآيات المنزلة بجواهر العشاق لم تستطع عزل عبد القادر الجيلاني من منصبه. إن النصيريين والدروز والإسماعيلية ظلت تخفي كتبها ولعل هذا هو سبب عدم تقدير عامة المسلمين لدعاويهم الإلهامية لكن من الذي يكون بريئا من دعاوي الكشف والمعرفة علي أية حال؟

إن أهل السنة مهما كانوا ضالين لكن لا يصح أبدا وضعهم علي مستوي الدروز والنصيريين. انظر كيف أن الشريعة معطلة لديهم إلي يومنا هذا.

قال: إنه فارق النظر فقط فلو رأيت من جانب هذه القمة الجبلية حيث يري الدروز الطوائف والفرق الأخري فأنت تعرف حينئذ أن الموحدين هم الدروز فقط.

ما هذا الهراء الذي تقوله؟ من أين يكون هؤلاء موحدين؟ لأنهم يحسبون الحاكم بأمر الله إلههم وكذلك يقولون أن الله جاء في صورة جعفر الصادق. اعترض عبد الحميد.

من الجانب الآخر للقمة الجبلية يُري مثلما تقول. أراد الشيخ سليمان إفهامه وقال: اقرأ رسائل الحكمة وهو الذي يعد لدي الدروز أفضل كتاب للتأويلات القرآنية. فحسب تلك الرسائل فإن الله (اللاهوت) يتجلي في صورة إنسان (الناسوت) مثل انعكاس الشيء الذي يقع علي المرآة فالأصل لا يدخل في المرآة والرائي يري الانعكاس فقط كذلك الإله لا يتحلل في الإنسان بل من خلال ذلك الشخص تظهر تجلياته لكي يستمتع عباده بمعرفته.

ففي مختلف عصور التاريخ كان من لبوا تجليات الإله هذه هم الموحدون الحقيقيون حسب رسائل الحكمة. لكن ما الدليل القرآني لتفسير وتأويل التوحيد هذا؟

هذا هو مربط الفرس الذي لا بد من فهمه وإدراكه. إن علماء الدروز يطالبون بضرورة فهم العبودية الحقة المحببة بدلا من التأويل الباطني الذي هو شعار الإسماعيلية فلا يستطيع فهم ماهية وحقيقة التنزيل أهل الظاهر ولا أهل التأويل أما مذهب أهل التوحيد فهو الدين الوسط بين الظاهر والباطن كما هو مكتوب في الرسالة التاسعة من رسائل الحكمة أن الإسلام الظاهر هو في الأصل باطن فهو باب الإيمان والهدف الأساسي من الإيمان هو الحصول علي التوحيد فإن رأينا الأمور بهذا المقياس فإن أهل السنة بسبب كونهم أهل الظاهر يعيشون في المستوي السفلي للحياة الروحية وفي المستوي الأكبر من هؤلاء أهل الباطن أي الشيعة والإسماعيلية والمستوي الأعلي من كل هؤلاء هو مستوي الدروز وذلك بسبب أنهم أهل التوحيد والموحدون وعلي أن

هؤلاء علي معرفة بغاية الدين وأهدافه فلذلك رفعت عنهم أركان التكاليف أي الصلاة والصوم والحج والزكاة وبدلا من هذه الأركان تمت تو صيتهم بالتمسك بسبعة أ سس.

ما هي الأ سس السبعة؟ سأله عبد الحميد.

قال: في المصطلح الديني للدروز تسمي هذه الأسس الو صايا السبعة وهي كالآتي: صدق اللسان – حفظ الإخوان – ترك عبا دة العدم والبهتان – البراءة من الأبالسة والطغيان – التوحيد لمولانا في كل عصر وزمان – الرضا بفعل مولانا كيفما كان – التسليم لأمر مولانا في السر والحدثان. إن هذه القوافي تبدو مثل الحديث النبوي "كلمتان خفيفتان علي اللسان". قالها يا سر متعجبا ومستغربا.

قال: نعم، إن العبارات التي تحتوي علي السجع والقوافي كثيرا ما يتم ا ستخدامها في المصا در والمراجع التي تدعي وجو د الرموز والحكم خارج القرآن الكريم.

هل ر سائل الحكمة هذه متوفرة في السوق ويمكن الحصول عليها بسهولة؟ أرا د يا سر المعرفة.

قال: نعم ففي لبنان تستطيع الحصول عليها بسهولة ويسر. هي جميعها مائة وإحدي عشر ر سالة.

أليست هذه ر سائل إخوان الصفا؟ سأل عبد الحميد

قال: لا، أما ر سائل إخوان الصفا فمجموعها اثنان و خمسون ر سالة وإن كان في الأ صل مسلك التأويل نفسه ساريا فيها.

إنني فكرت أن الشيخ سليمان يقول الحق لأن من يشاهد منظر الوا دي من قمة الجبل لا ينكشف لمن هم يسكنون في الوا دي نفسه نفس المنظر. إن الدروز يدعون أنهم أهل التوحيد لكنهم غير مقدرين كم أبعدتهم عملية النسخ والتأويل من المرجع الأ صلي للدين. إنهم يقولون:

إن الشريعة نوعان، شريعة تنزيل و شريعة تأويل ولديهم شريعة التأويل أدني من شريعة التنزيل وكان هذا هو سبب بعدهم عن مرجع ومأخذ الوحي وترك الوحي الإلهي الحقيقي مهجورا لكن مجرمو التأويل ليسوا فقط الدروز والنصيريون لكن جميع فرق وطوائف المسلمين ارتكبت هذه الجريمة والفرق بينها في النسبة فقط فطائفة نسبتها في ارتكاب هذه الجريمة أعلي وفرقة أخري نسبتها قليلة. أهل التصوف يدعون معرفة الدين ورابعة العدوية (ت ١٨٥ه) وأبو القاسم الجنيد (ت٢٩٨ه) وبايزيد البسطامي (ت ٢٦١ه) وحسين منصور الحلاج (ت٣٠٩ه) فهؤلاء وأمثالهم لهم مكانة كبيرة لدي المتصوفين وفي تلك الحالة لا يكون الأمر صعبا علي أهل الحل والعقد فهم وجود اللحمة لا شعوريا بين الدروز والنصيريين والإسماعيلية والصوفية والجشتية والنقشبندية.

جال بخاطري أن الشيخ سليمان قد تربي علي فن التأويل في الأوساط الخاصة للنصيريين وهو علي بينة من أسرار ورموز المذهب الدرزي والقمة الجبلية التي يستوي عليها من السهل له أن يخبرنا من هناك عن مشاهد ومناظر الجانب الآخر كيف تبدو هذه المشاهد. إنني سألته قائلا: إن الدروز والنصيريين يعيشون في قلب العالم الإسلامي حيث مظاهر أداء العبادات مثل الصلاة والصوم والحج والزكاة تمارس بصفة عامة ففي هذه البيئة ألا يحس هؤلاء الدروز أنهم مقطوعون عن التيار الرئيسي؟ كيف يثبت هؤلاء ادعاءاتهم للتوحيد؟

قال: إن الدروز الذين يطلقون عليهم الدروز الموحدون يعتقدون أن القرآن الكريم نزل علي سبعة صنوف فجزء منه ناسخ والآخر منسوخ وقراءاته أيضا سبعة. "قريء علي سبعة أحرف".

هذه البحوث أيضا مدار ومحور علوم القرآن لدي أهل السنة. صرخ ياسر متحيرا ومستغربا.

فهؤلاء الدروز أيضا لم ينزلوا من السماء. هي نفس مناقشات التأويل والتعبير التي جعلت جميع فرق المسلمين في وقت من الأوقات متشابكين في مثل هذا الفكر الملوث والمناقشات الجدلية. عندما يخطر ببال أحد أن الآية الفلانية منسوخة أو يتعرض السالك لالتباس فكري بأن الوحي يمكنه أن يُقرأ علي سبعة أحرف ففي هذه الحالة تنفتح جميع أبواب التحريف المعنوي.

لكن في أوساط أهل السنة هذا الرأي شائع أن الدروز والنصيريين بل الشيعة الاثني عشرية أنفسهم يدعون بالتحريف. فمن أقوالهم أن القرآن الكريم الموجود بيننا ما هو إلا الثلث من القرآن الأصلي والقرآن الأصلي ذهب به إمامهم الغائب معه وسيأتي به وقت ظهوره. ففي رأيي أن المشكلة ليست في التأويل بل يوجد هناك مشكلة في موضوع المتن نفسه.

علي دليل ياسر هذا تبسم الشيخ سليمان كأنه وصل إلي لب الموضوع. وقف علي الكرسي ثم قال في أسلوب المناظر: من نجا من جريمة تحريف القرآن؟ ومن من الفرق التي لا تؤمن بالروايات التي تقوم بجرح عصمة القرآن الكريم؟ فلماذا يتم الطعن علي الدروز والنصيريين فقط؟ ففي القرون الأولي من انحطاط الخلافة حينما بدأ الناس البحث عن مراجع ومصادر أخري غير القرآن الكريم للحصول علي الحكمة فهؤلاء قاموا بزرع غابة لا نهاية لها من التعبير والتأويل ووقعت آثارها علي جميع فرق المسلمين ووقتئذ لم تكن معرفة هذه الفرق واضحة ومحكمة لهذا الحد. خذ علي سبيل المثال حسين الخضيبي الذي يعد مؤسسا للطائفة النصيرية فقد كان يعد من الثقات في عصره لدي الشيعة الاثني عشرية بل كان يُحسب لديهم من الرواة وباقر المجلسي (أو المجلس الباقري) روي عنه عددا من الأحاديث ويعتبر كتابه الهداية الكبري لدي

الشيعة الاثني عشر أيضا. إذن فكل ما تسمع عن الناسخ والمنسوخ والخاص والعام والسبعة أحرف والقراءات العشرة ونزلت هكذا بشأن علوم القرآن فكل هذه الأمور ترجع إلي التلوث الفكري لذاك العهد ورذا ذاته التي قد وقعت علي جميع فرق المسلمين بدرجات متفاوتة.

فهل الدروز والنصيريون يحسبون القرآن الكريم محورهم ومصدرهم مثل عامة المسلمين؟ أراد ياسر أن يوضح سؤاله.

قال: لا أحد يحسبه المصدر والمحور. نعم الدروز والنصيريون أيضا يدعون هذا. لو تصفحت رسائل الحكمة ستري بكل وضوح أن البحث جار هنا أيضا عن أسرار ورموز القرآن الكريم. الجميع يتحدث عن الأسرار والرموز لكن لا أحد يتحدث عن المعاني الواضحة الصريحة للقرآن الكريم. وهذه الحالة موجودة لدي كل الفرق بصورة متأرجحة بين الكثير والقليل. أما الحديث عن نقص القرآن الكريم فمثل هذه الروايات التي لا سند لها وردت في كتب الشيعة والسنة علي السواء فمن جانب يخبرنا فصل الخطاب للطبرسي أن للقرآن الكريم اسمان الأول معلوم والثاني مخفي وأن صورة الولاية موجودة في هذا القرآن المجهول ففيه نزلت هذه الآية بشأن ولاية سيدنا علي رضي الله عنه "يا أيها الذين آمنوا بالنبي والولي اللذين بعثهما يهديانكم إلي الصراط المستقيم" وفي هذا القرآن المجهول أيضا وبالتحديد في سورة ألم نشرح ورد "وجعلنا عليا صهرك". وفي الجانب الآخر هناك روايات وأحاديث كثيرة في المصادر والمراجع لأهل السنة. علي سبيل المثال انظر إلي الرواية التي تنسب إلي أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها والتي تقول "لقد نزلت آية الرجم ورضاعة الكبير عشرا ولقد كان في صحيفة تحت سريري فلما مات رسول الله (ص) وتشاغلنا بموته دخل داجن فأكله."

لو آمنت بهذه الرواية التي رواها ابن ماجة فالدعاوي السنية عن عصمة القرآن الكريم تفقد مصداقيتها. كان هذا عن متن القرآن الكريم أما التحريف والنسخ المعنوي فحدث ولا حرج. يشترك في هذه الجريمة النصيريون والدروز والزيديون واليزيديون والإسماعيلية والاثني عشرية والبهائيون والقاديانيون وأهل الحق بإيران وأهل العدل والاستقامة بسلطنة عمان والطوائف الأخري لأهل السنة. أما الفقهاء فتفوقوا علي الجميع فتركوا المتون الأصلية للقرآن الكريم وخرجوا باحثين عن القراءات الشاذة والخلافية وأصبحت هذه القراءات الخلافية أساس التفقه.

بعد هذا الكلام تنفس الشيخ سليمان الصعداء وقال: نحن قد ابتعدنا كثيرا عن أصلنا.

الفصل السادس عشر

الشيخ حسن الفولادي

إن حديث الشيخ سليمان قد جعل المجلس حزينا وأصاب المجلس كله باليأس. كانت الساعة قد دقت الواحدة والنصف صباحا. ودعت المجلس وفي الخارج كان قد بدأ هطول المطر بعد العاصفة الهوائية ووقت النزول من سلالم غرفة السطح أضاء البرق الشديد السلالم للحظة وو صلت إلي غرفتي متجنبا قطرات المطر ووقت الذهاب إلي سرير النوم بدأت أتذكر كلمة الشيخ بشدة "إننا قد ابتعدنا كثيرا عن أصلنا" فهل حقا لم نستطع التمسك بحبل الله المتين وأفلت من أيدينا؟ وجال بخاطري أن أمثال طوائف الدروز والنصيريين من هذه القمة الجبلية تبدو من أهل التوحيد والمعرفة ومن نفس القمة تبدو الطوائف الأخري من أهل الإيمان أصحاب أهل الظاهر وأهل الباطن والمستوي الأضعف من المسلمين. كل فرقة تحسب الفرقة الأخري ضالة وكافرة والحق أنه لا أحد يقدر حقيقة الأمر. إن هؤلاء يرون انحراف الآخرين لكنهم ليسوا علي علم بضلالتهم. كم هي عجيبة وغريبة أحوالنا. إننا نري القشة في عين الفريق الآخر بكل وضوح لكن لا نري العمود الذي في أعيننا. ولكي نبدأ بداية جديدة أو نبدأ الحديث من جديد ونحاول الإفهام والتفهيم فطريقها مسدود من جانب الفتاوي التي تنسب إلي كبار المحدثين والمتكلمين. واليوم يصعب علينا أن نقدر تقديرا صحيحا أن الغزالي حينما كان يكتب

"فضائح الباطنية" فهو وقتئذ كان مأمورا للدفاع عن الخلافة العباسية ببغداد في مقابل الخلافة الفاطمية. ففي القرون الأولي للإسلام اشتبكت الفرق المختلفة مع بعض في حرب التعبير والتأويل بسبب الحركات السياسية حتي أصبح طعن الآخر بالكفر والزندقة شعارا عاما. إن كبار علماء السنة وبسبب عقيدة تحريف القرآن قرروا أن الشيعة هم الروافض وافتري أهل التشيع علي أهل السنة بالنواصب وأن الغزالي كتب بشأن النصيريين أنه يجب قتلهم بسبب الردة وقرر ابن تيمية أن النصيريين أشد كفرا وشركا بالله من اليهود والنصاري. والأشعري قال عن الدروز أنهم يبيحون اللواط وكذلك يباح لديهم إقامة العلاقات الجنسية مع المحارم. كذلك كان مشهورا في أوساط السنة أن الدروز يستخدمون زوجات الآخرين برضا كامل بل يقال عن العلويين أنهم في الاحتفالات الدينية الخاصة بهم يبيحون إقامة العلاقات الجنسية المشتركة. وفي الكتب مثل "تهذيب الأحكام" ذُكر أن النكاح بين الشيعة والسنة محرم بسبب كفر أهل السنة بل قيل عن الإمام الباقر ألا تنكحوا أهل السنة ولا تأكلوا ذبيحتهم ولا تقيموا معهم العلاقات. في عصر أزمة اضمحلال الخلافة كانت هناك مسابقة بينية بين خلفاء الفاطميين بالقاهرة والخلفاء العباسيين ببغداد وخلفاء الأندلس الأمويين واحتدت هذه المباراة والمنافسة حيث أصبح الجدل الوقتي الفقهي والآراء والأفكار الشخصية بمثابة الفهم المعتمد للدين المتين. هذه الخلافات الجائرة وكذلك غاصبو أهل البيت الذين ظهروا في مختلف العصور من أوساط أهل البيت كل هؤلاء وأولئك رحلوا عن الدنيا لكن الفتاوي التكفيرية المنفرة مازالت تتعقبنا. لو نظر إلي هذه الفتاوي من حيث أنها مستندات اجتماعية وسياسية ففيها عظة وعبرة لنا لكن لو نظر إليها علي أساس التعبير المستند للدين المبين ففي هذه الحالة نجد باب البداية الجديدة والفهم الجديد مغلقا علينا.

حقا نحن ابتعدنا كثيرا عن أصلنا. اليوم جاء وجه حسن الفولادي في مخيلتي. كنت قد قابلته لأول مرة في مؤتمر الشيعة والسنة الذي انعقد في لندن وكانت تلك الأيام هي التي دخلت فيها الجيوش الأمريكية في العراق و صدام حسين كان قد تم إبعاده عن السلطة وكانت العديد من مدن العراق تتعرض لاشتباكات شيعية سنية وكذلك لانفجارات مخيفة. وللخروج من هذه الحالة الحرجة كان قد تم انعقاد مؤتمر كبير في مدينة لندن بإيعاز من آية الله السيستاني وذلك للوصول لتفاهم مشترك بين الشيعة والسنة وكانت الحيرة تزداد عندما نسمع في الجلسات الرسمية للمؤتمر كلمات الخطباء. كم كان هؤلاء معتدلون ويمثلون خطباء الجانبين في الفكر السليم. فلماذا يزداد صدي الانفجارات والعداوة البينية علي أرض العراق؟

والشيخ حسن يكاد يكون في عمر الستينات وهو صاحب قامة متوسطة ولحية مهذبة جميلة علي وجه منير وهو مستقيم من الرأس إلي أخمص القدمين ويبدو في أحسن صورة وكأنه خرج للتو مغتسلا. أينما كان يجلس الشيخ حسان كان يثير المناقشات الجدلية. كان يحفظ أسماء مئات من المصادر والمراجع لأمهات الكتب سواء كانت شيعية أو سنية. كنت أغتبط من قوة حفظه وفي الحديث كان كشلال الماء. كان يجيد العربية والفارسية والإنجليزية أما الأوردية فطبعا كانت لغته الأم لأنه كان من أهل كشمير وكان قد درس في جامعات أمريكا وأوروبا وكذلك درس في الحوزة العلمية بالنجف وقم. لا شك في أنه كان قد درس كثيرا لكن كلما جلست معه أحسست أنه غير قادر علي احتواء أو سيطرة ما درس. وكانت المعلومات التاريخية ومصادر الأدب التراثي مشوشة عند تلفظ لسانه المبارك بها في الأبحاث النزاعية والموضوعات الشائكة.

مساء اليوم كان مخصصا للنزهة علي نهر التايمز لمن حضر المؤتمر وكان العشاء أيضا علي السفينة هناك. إن الخروج للنزهة وقت حلول المساء علي نهر التايمز يبعث السرور علي النفس لأن الحياة السريعة والفوضي الميكانيكية التي تضج بها مدينة لندن وتسبب الازعاج طوال النهار. كنت جالسا في المركب وأستمتع بالمناظر الطبيعية إذ دخل علينا الشيخ فولادي مع جماعة من أعوانه. استأذن أولا للجلوس بعدما رأي المقاعد الأمامية شاغرة. إنني أبديت سروري وتشرفت بجلوس الشيخ فولاذي قريبا من طاولتي. أولا ألقي نظرة خاطفة علي أهل المجلس ثم قال بصوت عال: صلوا علي رسول الله اللهم صل علي محمد وآل محمد. ومع هذه الصلاة والسلام علي رسول الله وضع يده علي صدره وبعد وقفة قصيرة قال مع ابتسامة لئيمة: لعنات كثيرة علي أعداء المولي علي. وعلي مقربة مني كان يجلس الشيخ حسن الحذيفي وهو عالم أزهري معروف ومحام بارع في الدفاع عن مواقف أهل السنة في مجال الكتابة والخطابة وضد الروافض وسيف الله المسلول في كل لحظة والآن عرفت إلي من كانت إشارة الشيخ الفولادي في إرسال اللعنات. ابتسم الحذيفي وقال: آمين.

لكن أين أعداء المولي علي الآن؟

إن مساجد أهل السنة تدوي بتفضيل علي. أردت إحداث تخفيف في حدة الكلام.

قال: إنهم مجبرون علي هذا لأنهم بغير المولي علي عراة. ثم أنه لا تكفي المناقب والفضائل ما لم تترسخ إمامة علي في القلوب وما لم نحس غضبا شديدا وهما كبيرا علي غاصبي الإمامة.

الشيخ الحذيفي الأزهري أراد في البداية الإعراض عن هذا الكلام بابتسامة لكن لا أدري ماذا حدث له فيما بعد إذ قال: انظر كل هذا

النزاع بشأن الخلافة بدون فصل بسبب العقيدة وإنه لأمر كبير لا يمكن الاعتماد عليه فقط من خلال الروايات إذ لا بد من وجود دليل قاطع من القرآن الكريم.

نعم توجد في القرآن عشرات من الأدلة والآيات الواضحة والصريحة.

نعم! لكن إلي الآن لم تر عيني شيئا من هذا القبيل. قالها الشيخ الحذيفي مستغربا.

قال: أنا عندي. والواقع إنكم لم تواجهوا إلي الآن عالما يكون لديه نظرة ثاقبة في التأويل والتنزيل والتأريخ والآثار في وقت واحد. إنني قمت بمناظرة ومناقشة كبار علماء أهل السنة في الشرق والغرب وكلهم انهزموا أمامي هزيمة منكرة. ما ذا أقول؟ إن أهل السنة ليسوا علي علم تام بكتبهم.

إنني خشيت أن يحول الشيخ الفولادي بحديثه هذا تلك الأمسية المنعشة علي نهر التايمز إلي مجلس مناظرة لذلك قمت بالطبطبة علي منكب الشيخ الحذيفي واقترحت لم لا نحدد موعدا مع الشيخ لتبادل الآراء غير الرسمية وبذلك نجد طريقا للاستفادة منه.

قال: نعم في أي وقت فالعبد لله مستعد. لكن ما ذا أفعل عندما لا أجد لديكم أي دليل ضد إمامة المولي علي. إنكم في مأزق فالواقع أنكم لا تعترفون بأفضليته لكن في نفس الوقت غير قادرين علي رفضه بشكل واضح.

الشيخ الحذيفي الذي ظل إلي الآن يتحمل هجوم الشيخ الفولادي بابتساماته لم يستطع السكوت عليه أكثر من هذا. يا أخي من يستطيع المبارزة مع فحول العلماء. وفي نفس الوقت لست من رجال المناظرة ولكن في نفس الوقت أريد فقط أن أضيف إلي معلوماتي أنه يوجد لديكم دليل من القرآن الكريم بشأن إمامة علي فتفضلوا بتقديمه مشكورين.

نعم نعم ولم لا

فقط آية واحدة لا أكثر ولا أقل هي التي تثبت إمامة علي ولا بد أن تكون هذه الآية واضحة و صريحة.

الشيخ الفولادي قام بتعديل عمامته وحرك جسمه قليلا إلي الأمام قائلا: لاحظوا أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. الآية القرآنية هي "وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالي عما يشركون" ففي هذه الآية الإشارة منصوصة إلي الإمامة.

عجبا! هذه الإشارة لا يفهمها إلا أنت وعلي مثل هذه القضية الهامة يكتفي الله فقط بالإشارة ولا يفهم هذه الإشارة الدقيقة إلا أنت وأمثالك. إنه لشيء عجيب. يا أخي إن هذه القضية من أعمدة الدين بل تعتبر لديكم عمودا أساسيا من أعمدة الدين ولذا كان ولا بد أن يكون واضحا كل الوضوح.

قال: نعم صريحة وواضحة.

لكنك كنت تتحدث قبل قليل عن الإشارة.

قال: لا تمسك في الكلمات بل حاول أن تفهم.

أخرج الشيخ الحذيفي من جعبته روشتة أخري وقال: سأرشدك إلي آية لا تقر الإمامة أمرا منصوصا وهذه الآية من سورة الفرقان وبكل تأكيد أنت علي دراية بها "وعباد الرحمن يمشون....والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما" في هذه الآية دعاء من الله أن يجعلنا إماما للمتقين فإن كانت الإمامة منصوصة هنا فما معني هذا الدعاء؟

بدت علي وجه الشيخ الفولادي ابتسامة كابتسامة الفاتح والمنتصر. قال: لعلك تحسب أنك بهذا السؤال قمت بتفجير كبير لكن رده موجود لدي وإنه لأمر سهل ويسير فقد ذكر حاكم الحسكاني عن أبي سعيد أن

المرا د في هذه الآية من الأزواج السيدة خديجة ومن الذرية السيدة فاطمة والمرا د من قرة أعين الحسن والحسين والمرا د من وجعلنا للمتقين إماما سيدنا علي.

إنك عجيب يا رجل. إنني أطلب منك بإلحاح دليلا من القرآن الكريم وإنك تتجول بي في الروايات والحكايات والقصص.

قال: يا أخي إن شواهد التنزيل من كتب أهل السنة وحاكم الحسكاني من محدثي المذهب الحنفي وإنني إلي الآن لم أقدم أي رواية من المذهب الشيعي.

اترك هذه الأمور. إنني قد طلبت منك منذ البداية أنه لا بد أن يكون الدليل من القرآن الكريم لكنك بدلا من أن تتكلم عن النص القرآني الصريح تتحدث عن الروايات من هنا وهناك.

قال: الدليل من القرآن وأنتم؟ ليس لكم الحق أن تطلبوا الدليل من القرآن الكريم فمنذ متي وأنتم تعترفون بالقرآن؟ لأن لديكم القرآن ناقص ومحرف وعدد كبير من الآيات لم ينضم إليه. كذلك ضاعت آيات كثيرة وما دام القرآن لم يكتمل عندكم فما معني أن تطلب مني الدليل من القرآن الكريم؟

قال: انظر كان الحديث يدور حول هذه الآية لكنك تركت الموضوع وبدأت تدخل في موضوعات أخري.

قال: هذه المناقشات لها علاقة عميقة بهذه الآية. ألا تؤمن أن البخاري قد كتب أن القرآن كان قد نزل علي سبعة أحرف والأحرف الستة ليست في حوزتكم ثم أن هناك روايات كثيرة تشير إلي أن هناك جزءا كبيرا من القرآن الكريم قد ضاع.

انظر تحدث في صميم الموضوع فنحن الآن لا نتحدث عن قضية التحريف في القرآن الكريم. أرا د الشيخ الحذيفي أن ينقده.

قال: الذين لا يؤمنون بعصمة القرآن الكريم مطلقا والذين نجد في كتبهم أن الآية القرآنية الفلانية كانت قد نزلت هكذا والآن تُقرأ هكذا. إنك بكل تأكيد علي دراية بكتاب المصاحف لابن أبي داود وما فيه. وفي كتاب الإتقان رواية عن عائشة أن سورة التوبة كانت تحتوي علي مائتي آية لكن في قرآنكم الآن توجد ثلاث وسبعون آية فقط. وماذا تقول في قول ابن عمر. إنني درست القرآن كله لكن جزءا كبيرا منه قد ضاع.

نفس الخلط واللف والدوران؟ لماذا لا تدخل في الموضوع مباشرة؟

أنا قادم إلي نفس النقطة لكنك كل مرة تصر علي تقديم الدليل من القرآن الكريم ولذلك لا بد أن أعرفك أنك بنفسك معترف أن القرآن الذي لديك غير كامل بل هو ناقص فعلي أي أساس تطلب مني الدليل من القرآن الكريم.

ظهر في أسلوب الشيخ الحذيفي الاستنكار الشديد وقال: سامحني إن العقيدة الفاسدة المنتقصة من القرآن الكريم أنتم أساسها وليس نحن وعقيدتكم هي أن الإمام الغائب قد ذهب بأصل القرآن معه وسيأتي به وقت ظهوره. حاولت التدخل حينما رأيت أن الجدال بدأ يحتدم. قلت إن هذه مسائل عميقة لا يمكن حلها علي سفرة الطعام. لم لا نؤجلها لوقت آخر.

"وأنا أيضا لم أكن أريد إثارة هذه المسائل لأنني كل ما طلبت منه هو تحديد آية واحدة فقط في موضوع إمامة علي" أراد الشيخ الحذيفي احتواء الموقف.

لكن من أني للشيخ الفولادي أن يهدأ. قال: ما دمت قد أثرت القضية فلتسمع الرد أيضا. الحقيقة أن أكثر علماء أهل السنة ليسوا علي معرفة جيدة بكتبهم فذكر حاكم الحسكاني غير مقبول لديك ورواية سبعة

أحرف للبخاري لا تستطيع مناقشتها ولا تملك أي رد لحديث رضاعة الكبير الموجود في صحيح مسلم. في الأول كانت قد نزلت آية عشر رضعات والآن بقيت آية رضعات فقل لي أين هذه الآية في القرآن الكريم يا سيدي.

إنك حقا شخص غريب. لم لا تتحدث عن هذه الآية.

نعم نعم لم لا إنني آت لهذا الموضوع لكن قل لي قبل ذلك إنك من أهل العلم وعلي معرفة بالتأكيد بقضايا اختلاف القراءات. إن الآية "واجعلنا للمتقين إماما" سئل في شأنها الإمام جعفر الصادق. اسمعه بتركيز شديد لأنني أقدم هذا البحث بتأويل "آيات الباهرة" وهو كتاب مستند ومعتبر. إن قراءة هذه الآية لدي الإمام جعفر الصادق هكذا "واجعل لنا من المتقين إماما".

ما هذا الذي تقول. إنك لإثبات موقفك تجرأت وقمت بتحريف نص القرآن نفسه.

سيدي ليس هذا تحريفا بل إنها من أمور اختلاف القراءات. قل لي هل تعترف باختلاف القراءات أم لا. إن كتاب النشر في القراءات العشر كتاب معروف للجذري....

قاطعه الشيخ الحذيفي قائلا: انظر يا هذا إنك قد بدأت تتحدث بكلام مغاير تماما من هنا وهناك فهل لديك قرآن آخر؟ هل لديك مصحف فاطمة وفيه بدلا من "واجعلنا للمتقين إماما" "واجعل لنا من المتقين إماما"؟

قال: إنك تتكلم كلام الجهال ولا يليق هذا الكلام بعالم مثلك. إن لدي العلماء يوجد اختلاف في القراءة. ولا يقال لمن يرجح قراءة علي قراءة منكرا للقرآن الكريم واسمع أيضا وإن كنت لا تسمع الحديث

بالكامل. عندما سأل الإمام جعفر الصادق عن أبي البصير بشأن هذه الآية رد: لقد سألت عظيما. إنما هي إيانا أنا بذلك.

أخي حينما أطلب الدليل من القرآن الكريم يكون المراد منه هو القرآن الكريم الذي نتلوه وتتلوه وليس قرآن القراءات المختلفة أما أبو بصير هذا الذي تقدمه فلا يعتبر راويا موثوقا فيه.

حسنا. أبو بصير أصبح غير ذي ثقة لكن قراءة حفص عن عاصم بن بهدلة أبي النجو والكوفي تقبلون قراءته بكل حب وتقدير غير أنه أيضا من الآحاد. ولديكم راو مجروح. حسنا اترك أبا بصير ولا تعتمد علي الرواة الشيعة لكنك لا تستطيع أن تنكر أن السيوطي قد ذكر في الدر المنثور برواية ابن مسعود أن الآية "بلغ ما أنزل إليك من ربك" كان ملحقا بها أيضا "إن عليا مولي المؤمنين". ستنكر من ومن؟ في كتبكم أنفسكم هناك دلائل كثيرة تثبت إمامة علي ولو أخرجت هذه الكتب من تعبيرات الشيعة والأدب الموروثي فلن يبقي لديكم شيء.

"فلنترك هذا الموضوع لأنه لا يمكن حسمه علي مائدة الطعام" أردت تغيير الموضوع وسألته في نفس الوقت سؤالا غير متصل بالموضوع وقلت له: لو وجدت لديك شيئا من الوقت فعليك أن تفكر في هذه الرواية لرسول الله (ص): "تركت فيكم ثقلين أي كتاب الله وعترتي وأهل بيتي" فإن كان الكتاب الأصل محفوظ لدي الإمام الغائب فعلي أي كتاب تعتمد إلي أن يظهر.

في الأول اندهش الشيخ الفولادي من هذا السؤال ثم قال: إنني فهمت إلي أي جهة تريد أن تذهب بي. يا أخي إن لدي إجابة لكل هذه الأسئلة. لكن قبل أن يقول شيئا بدأ يرن مكبر المركب وكان يطلب من السادة الحضور أن يتوجهوا إلي الدور العلوي حيث الباربيكيو في انتظارهم.

في الدور العلوي كانت الطاولات جاهزة هنا وهناك ومع العشاء كانت توجيهات المرشد السياحي مستمرة أيضا. هذا البرج اسمه كذا وتاريخه يرجع إلي كذا وتلك عمارة فلانية وفيها مكتب البنك الفلاني العالمي. لم تكن هذه المعلومات جديدة بالنسبة لي ولذلك اتخذت مكانا بعيدا في ركن من أركان السفينة. وبعد قليل انتهت توجيهات المرشد السياحي وأخذت مكانه الموسيقي الهادئة المنعشة. والآن كانت سفينتي تسبح فوق موجات نهر التايمز وعلي ضفتي النهر كانت هناك مبان شاهقة مضيئة والهواء البارد في الفضاء المفتوح كان يمنح الجسم والروح حياة جديدة مليئة بالانتعاش. وكانت فوقنا السماء المفتوحة وتحتها ينعكس الضوء علي تموجات النهر. كان حقا منظرا بهيجا فكرت كم كان الجو خانقا في الدور السفلي للمركب. نفس المجادلات والمناقشات حول من كان أحق بالخلافة ومن كان غاصبا ومن المقصود بالرواية الفلانية وفي حق من وردت رواية الفضيلة والإمامة حق أهل البيت أم هي تابعة للأمر الإلهي "وأمرهم شوري بينهم". وإن جئنا إلي الحق والصدق فإن سيادة أقوام العالم منذ ما يقرب من ثلاثمائة عام بأيدي الغرب ولذا فعن أي إمامة نتحدث و إلي أين قد أوصلنا هذا البحث ولإثبات أحقية موقفنا استعنا بالروايات المنكرة التي تمس عصمة القرآن الكريم مباشرة. ويقولون أن هذه الروايات بعدما مرت بعدة مراحل نقل أصبحت ذات استفاضة وسواء أكانوا الشيعة أم السنة يحسبون جميعا أنفسهم عاجزين أمام هذه الروايات. إن علماء السنة لا يستطيعون الاستغناء عن هذه الروايات التي وردت في صحيحي البخاري ومسلم والتي تدل صراحة علي نقص القرآن وليس بإمكان الشيعة أن يرفضوا رواية الصافي والتي جاء فيها أن القرآن الذي كان قد جاء به جبريل عليه السلام إلي رسول الله (ص) كانت توجد فيه سبعة آلاف ومائة آية. غير أن القرآن الموجود بيننا الآن لا

يوجد فيه إلا ستة آلاف و ستمائة و ست عشرة آية فقط كأن أربعمائة وأربع وثمانين آية قد ضاعت.

كنت مستغرقا في مثل هذه الأفكار والرحلة علي المركب مستمرة في نهر التايمز إذ انفتحت درفة من شباك الغرفة بعاصفة من الهواء البارد وسقطت لوحة فرس بارسي فال من علي الجدران علي الكنبة وتحولت الغرفة للحظات وكأن زلزالا قد وقع. أغلقت النافذة بطريقة ما ووضعت اللوحة علي الطاولة بحذر. ووقت النظر إلي هذه اللوحة تذكرت أكثر من مرة ذو الجناح وهو أيضا نوع من الاستعارة عاد إلي بيته دون الجواد ومنذ ذلك الوقت ظهر ذو الجناح الحالي منتظرا للجواد الذي يقوم بتوصيل الهدف الناقص لنصرة الحق إلي مصيره المنطقي.

ذات يوم سألت البروفيسور مهدي زادة أن هذه الشبهات التي تصدر منكم والأعلام التي تخرج وراءها والناس يقبلون ذا الجناح بحب شديد وعقيدة بالغة أفلا يبدو لك أننا من كأمة أسري للماضي؟

إن السيد مهدي زادة وهو أستاذ التاريخ كان قد جاء للاشتراك في مؤتمر لندن هذا. يقال أن كتاب إصلاح الشيعة للعلامة موسوي الذي يباع في الأسواق كان قد قام بضربة موجعة لفكر الشيعة التقليدي في الواقع هو مؤلفة. قابلته ذات يوم في البحر. قال: إن في هذه العلامات تختبيء ثورة وهي ثورة نائمة وثورة إيران مرهونة بهذه العلامات لكن في نفس الوقت هناك حقيقة أخري قاسية وهي أن الثورة الإيرانية أصبحت أسيرة لهذه العلامات الشيعية.

لكن الثورة قائمة ومنذ خمس وثلاثين سنة مضت نهضت إيران كبلد قوي ومحكم. حاولت الاستدلال.

قال: إن هذه العلامات الشيعية تحولت إلي سلاسل حديدية لأرجل الثوريين وفي عالم أهل السنة وجدت هذه العلامات كنوع من

المقاومة النفسية فالعلاقات في الواقع تكون كتجارب. يمكنك أن تحسبها رأس المال الذي تم ادخاره لقرون وتصرفه القيادة الحكيمة في لحظات الأزمة. قام الخميني بهذا العمل بغاية الحكمة. ولكن هذه العلامات لها أيضا قيود فلو وقعت مرة في شباكها فلن تستطيع الفكاك منها أو تكسيرها بسهولة. مجالس عاشوراء هذه ومسيرات الأربعين والخروج بالشبيهات هذه كلها في الواقع تمثيل روحاني ففي مثل هذا العصر تنتهي إمكانية قول كلمة حق عند سلطان جائر. إن مجالس عاشوراء والأربعينيات علامات رمزية والاستعارة فن الاحتجاج ولكن علي المستوي الشعبي يزداد باستمرار التباحث حول الجزئيات والفرعيات لشهر محرم. وما وصلنا إليه في هذا السفر الطويل أصبح لنا جميعا تحديا كبيرا ولم يعد في وسع أحد رفض كل ذلك أو توقيفه بالمرة لأننا لم نستطع إلي الآن وقف التاريخ الموضوع الذي رواه رواة غير ذي ثقة ورواياتهم متعارضة فيما بينها وناقلوها مجهولون. منذ قرون يتم تحليل ودراسة حادثة قتل عثمان وكربلاء لكن البيانات المضللة الملطخة بالشبهات لم تترك تعقبنا فكيف يتم الخلاص من الرموز والعلامات بالسهولة التي وضعناها نحن عقيدة وغلوا.

الفصل السابع عشر

الزوجات الروبوتية

نهضت صباح اليوم وأحسست وكأن قواي قد خارت بسبب تعب السنين فحديث الشيخ سليمان ومناظر نهر التايمز وأنباء القتال القادمة من جبهة القتال بسوريا جعلتي أتخبط لا أدري كيف كيف بدا لي في عالم الأحلام وكأن شخصا ما ظل يهمس في أذني طوال الليل ويشير لي إلي جهات مختلفة. وعقلي كأنه ظل مشغولا حتي وهو نائم وكأن المشاغل والأعمال المختلفة جعلته معلقا. تذكرت نصوص "كتاب البدع" ثم تراءي لي كأني عدت إلي حالة النوم واليقظة حينما يختلط الواقع والحلم ببعضهما البعض. عندما تتلألأ أدق موضوعات الكتب التي قرأتها في عالم الأحلام يكون الشعور بالتعب شديدا بعد اليقظة كأنني قد عدت من مهمة شاقة وطويلة. وللحصول علي الهواء الطازج فتحت النافذة فرأيت أن سلسلة الأشجار الكثيفة في الضفة الأخري لنهر دراوا تصل إلي الأفق وكانت تبدو وكأنها نارا تشتعل لمسافات بعيدة. وبعدما دققت النظر عرفت أن هذه الحرارة المشتعلة هي في الواقع أشعة الشمس التي ضلت الطريق بين الأشجار الوارفة. بُهت للحظات حينما رأيت منظر النار المشتعلة في الأدغال إذ كان يبدو كأنه منظر تجليات الطور وهو يبحث عن موسي جديد. لمدة ربع أو ثلث الساعة ظل نهر هذا النور جاريا إلي

أن و صلت أ شعة الشمس الحارقة تدق علي نافذتنا وإنني تهت في تلك المناظر المتغيرة بشكل ذهب معه إحساس التعب بعيدا.

في القاعة الليلية بالدور الأرضي كانت الجلسة الافتتاحية مستمرة و شخص ما كان يخطب باللغة الإنجليزية بلهجة ألمانية وكان من أقواله أن الحياة الإنسانية لا معني لها دون الفنون الجميلة. إن التجارة والصناعة والحرفة تستطيع خلق هيكل الحضارة لكن ليس في ا ستطاعتها نفخ الروح فيها لأن هذا العمل يرجع إلي الدين والفنون الجميلة. ا ستمر يقول في خطابه أن المجتمع الخالي من الروح قد فر فرار المجنون إ ذ خرجت منه الإنسانية أولا والآن حضرة الإنسان نفسه أو شك علي الو دا ع. مع هذه الكلمة رفع إ صبعه في الهواء ثم طاف حول الحضور قائلا: لعلك لن تؤمن أن مجتمعا ما بعد الإنسان قد بدأ يدق علي أبوابنا بل يمكنك أن تقول أنه دخل بالفعل. إنني لا أتحدث عن خيال علمي بل أريد لفت انتباهكم لمسائل حقيقية. إن الروبوتات لم تعد قصة بل أ صبحت جزءا من شخصيتنا. إن هذا الهاتف الذكي الذي في جيوبكم قد جعل إنسان اليوم عبارة عن (إنسان+هاتف). إن أرقام آلاف الهواتف الجوالة وآلاف الصفحات ومختلف المستندات التي كانت في يوم ما جزءا من ذاكرتك لم تعد الآن تلك المعلومات في ذهنك بل أ صبحت محفوظة في هاتفك الذكي. تأمل معي قليلا حينما أر سلت نا سا رائدها الفضائي إلي القمر ففي ذلك الوقت مجموع ما كان محفوظا في ذاكرة نا سا يوجد الآن أكثر منها في هاتفك الذكي. وفي عام ١٩٩٧م كمبيوتر آي بي إم الذي يستوعب مساحة عمارة كاملة فهاتفك الذكي الذي يوجد الآن في جيبك أقوي بكثير من ذاك الكمبيوتر. إن التكنولوجيا قد بدأت تصغر كل عشر سنين من ناحية الأحجام بمقدار المائة في المائة وكذلك فخلال كل سنتين تتضاعف التكنولوجيا. في عام ١٩٩٣م كتب ويرنور ونجي مقالا وكان قد تنبأ

فيه بعصر ما بعد الإنسان و ذلك خلال ثلاثين سنة فتنبؤاته هذه حدثت بالفعل إلي حد كبير. إن ثورة النانو تكنولوجي الآن قد مهدت الطريق للتعديل والإصلاح في خلايا الإنسان ففي الأيام القادمة ستكون هواتفكم الذكية هذه إما ملتصقة بأجسامكم في شكل شريحة أو ستستعمل كحلي. مثلما يجعل الأندرويد أو الهاتف الذكي نفسه متسقا في بيئته بعشرات من الأجهزة كذلك في الأيام القادمة ستكون مرتبطا بحوالي خمسين بليون جهاز. ومثلما نجد اليوم الموجات الإذاعية (جي بي إس) تحدد مكانك كذلك تجعلك هذه الأجهزة جزءا من هذا النظام شئت أم أبيت. ولإزالة الآلام والأذي من جسم الإنسان سيجري التدخل في الخلايا الإنسانية لكي لا يدرك حالة الألم الحقيقي وهو من خلال شاشة جوجل يظل يشاهد مناظر الدنيا الخلابة. كذلك سيتم الإضافة إلي الذاكرة من خلال الدماغ أو عن طريق الأجهزة الجديدة المتصلة به وبعد أن يصبح نقل المعلومات ممكنا سيتغير تماما أسلوب التعليم والتعلم التقليدي. لقد تمت بنجاح تجربة الزرع هذه علي الصم وأصبح كثير من الصم قادرين علي السمع من خلال الأجهزة المزروعة. وستكون المحطة القادمة لذاكرة جوجل هي أنك تستطيع رفع دماغك أو تحميله حسب هواك. وبسبب إصلاح وترميم الخلايا يصبح ممكنا أن يُري المسن الذي بلغ مائة عام من عمره شابا في سن خمسة وعشرين عاما. والجانب المروع والشنيع لهذه الخلفية كلها أن العواطف الجميلة مثل الفرح والحزن والاكتئاب ستبقي في الكتب فقط لأن الإنسان الحقيقي بعدما يتصل بالأجهزة الصناعية فلا يري إلا ما تقدم له تلك الأجهزة ولا يشعر إلا بما يأتي من خلالها. إنها حالة خطرة ومتفاقمة جدا ولا نستطيع أن نتركها تحت رحمة و شفقة الأكاديميين.

الصناع الكبار علي معرفة بهذا الأمر المروع والمخيف لكنهم لا يريدون أن يقوموا بأية مبادرة مؤثرة. يقولون أنه يجب علينا أن نسلك طريق المثالية المستدامة بدلا من المثالية أي علينا أن نذهب فقط إلي المكان الذي يكون سببا لنمو تجارتنا الرابحة. إن المؤتمر هذا بفن التجارة حيث يجتمع كبار المفكرين من العالم فكرا وعقلا يدعوكم للوصول إلي حل شاف من خلال تبادل الآراء حول هذه الحالة. وفي هذا الجو البهيج لبورل نحن نستقبلكم من أعماق قلوبنا لتبحثوا هذه الأسئلة العميقة.

وقت الخروج من قاعة المؤتمر وقع نظري علي الدكتورة بيا. كانت مشغولة علي الهاتف مع شخص ما وبدأت تقول: إنني في انتظار علي كودرا كي أعطيه هذا الدواء. لقد رأيت كودرا بشوشا علي خلاف العادة. أخذ علبة الدواء وألقي عليها النظر لثوان معدودة ثم بدأ يقول: إن هذا الدواء المخدر الذي تريدين أن نعتمد عليه ألم تسمعي بأن هذا العلاج يقوم بمسخنا من الداخل فهل تريدين أن نعيش في هذا المستوي الذي هو ليس بمستوانا الفطري بالمرة.

هي نفسها تتجول وشعورها وذاكرتها منفصلة عن شخصيتها فمرة تكون في يدها ومرة في حافظتها وإن فقدت هذه المحفظة تقع في أزمة كبيرة. قالها باسم مشيرا إلي هاتفها الذكي. قالت: أبدا لو فقدته فأنا أستطيع تحميله عن طريق "آي كلاود".

وفي هذه الأثناء كان قد أحضر عبد الحميد لنا القهوة وعلي المصطبة الحجرية في الجزء الخلفي لبستان القلعة حيث لم يكن هناك ازدحام الضيوف أخذ كل منا مكانا لجلوسه.

كان مشهد المستقبل هذا ساحرا وخلابا. ما رأيك هل نحن بالفعل مقدمون علي مجتمع حيث يصبح الإنسان تابعا مهملا لاختراعاته وتقنياته؟ أردت معرفة انطباعات كودرا.

نعم، وهل هناك دليل أكبر من هذا؟ قالها كودرا مشيرا إلي دوائه. إنني لا أعترف بالأدوية السحرية هذه لكن لو لم آخذها في اللحظات الحرجة لليأس تتحول الحياة إلي عذاب فهي أيضا نوع من التعديل والنسخ حيث ينسخ ويرمم الإنسان نفسه.

ربما لا يكون مناسبا أن تسميه ترميم ونسخ الذات لأن هذه الأدوية لا تتعرض لخلاياك ثم إنها اختراعات قديمة لكن في الوقت الحاضر الاختراعات الجديدة (النانو تكنولوجي – الهندسة الوراثية – هندسة الروبوتات) قد جاءت إلي حيز الوجود لتجعل الإنسان عمليا ومؤثرا أكثر. وهنا بدأ يتولد الخوف من أن يتغيب الإنسان بالتدريج. ويمكنك أن تعلم فقط أن المستقبل ليس في حاجة لأناس بسطاء أمثالنا. قبل عدة سنوات كان قد نُشر مقال علمي لافت للنظر لديفيد ليفي وكان من أقواله أننا قد دخلنا في عصر حيث ليس الروبوت بل الآلات الروحية مثل الإنسان تتحرك حولنا وتكون في أحاسيسها وعواطفها مثل الإنسان لكن عمليا تتفوق عليه بل وصل الأمر إلي أن قال "ليفي" أنه سيتم التزاوج بين الإنسان والروبوت.

سيكون شيئا ممتعا. تدخل عبد الحميد.

ليست هذه متعة بل هي شيء مخيف لأنك ستعرف فيما بعد أن التي وقعت في حبها وأصبحت فريسة لها ظهر في نهاية الأمر أنها روبوت.

لكنها ستكون مطيعة لأنها مبرمجة. قهقه كودرا.

نعم طاعة الرجال وتسليم النفس إليهم كل هذه الأعمال ستتحقق. قالت بيا.

ألا يبدو لك أن كل هذه الأحاديث من الخيال العلمي أكثر من أن تكون مبنية علي حقائق أو تكون مبالغة من المحاضر؟ سأل باسم.

قالت: نحن جميعا في حقيقة الأمر نتقدم نحو مستقبل واحد. قبل أيام ظهر كتاب لكيفن فونج باسم "اكستريمز". قدم فيه المؤلف بالتفصيل الكامل أن فسيولوجيا الإنسان الذي يتعرض الآن لأنواع من التدخلات علي سبيل المثال إدخاله في حالة التجمد قبل الجراحة لكي لا يتأثر الدماغ لو استغرقت عملية الجراحة فترة طويلة وبمثل هذه التقنية أصبح ممكنا لنا أن نوقف حركة قلبه ويتوقف الإنسان عن التنفس تماما أي بمعني آخر يتحول هذا الإنسان إلي جثة هامدة لكن وبعد ذلك وبالتكنولوجيا الجديدة وبأسلوب خاص وبعد إيصال الحرارة الكافية إليه يمكن إيقاظه مرة أخري كأنه كان في نوم عميق. قبل عدة عشرات من السنين حينما كان نبض الإنسان البارد قد غرق وتكون النفس متوقفة ففي هذه الحالة كنا نقرر علي الفور أنه مات لكن الآن بعد سلب الحياة لمدة ساعة إلا ربع أو نصف ساعة نعيد إليه الحياة ونحسبه إنجازا جيدا لمهنة الطب. الحديث هنا عن طول العمر لكن الواقع أن الحصول علي الأبدية في أجندتنا. وضحت بيا.

فما الحل للقضية؟ عبد الحميد الذي كان مستمتعا قبل ثوان بتخيل العروس الروبوتك سأل هذا السؤال بكل جدية قائلا: هل هناك احتمال بالفعل أن الإنسان الأصلي والفطري يحسب نفسه علي هامش الحضارة في مقابل الروبوت الذي صنعه هو نفسه بسبب إنجازات قليلة وناقصة. هل يحدث هذا حقا أن الخطط التي وضعناها للمستقبل ليست فيها سعة كبيرة لأناس أمثالنا.

قال باسم: نعم، وإن كان يبدو هذا خيالا علميا لكن الحالات تتجه إلي هذا الجانب. قبل أيام كنت في أبوظبي وتجولت في مختلف مناطق المدينة واستغربت إذ سمعت الآذان في مختلف المساجد بنغمة واحدة وصوت واحد وعرفت فيما بعد أن وزارة الشئون الإسلامية قد جعلت

آ ذانا موحدا في جميع مساجد المدينة وهكذا يدوي آ ذان واحد في وقت واحد تحت نظام مركزي ولا يتصادم آ ذان مسجد بآ ذان مسجد آخر كأنه آلة أخذت علي عاتقها مسئولية تأدية الآ ذان في مساجدنا.

عجبا! لم أكن علي علم بهذا. هل يحدث هذا فعلا؟ في أول الأمر غابت المآ ذن ثم اتخذت المآ ذن شكليات وبعد اختراع مكبر الصوت بدأ المؤ ذنون أداء الآ ذان من حجراتهم والآن قد عرفنا بأن المؤ ذن نفسه قد غاب. هذا هو ما يطلق عليه مجتمع ما بعد الإنسان. لدغ كودرا.

لكن ألم يعترض الناس علي آ ذان بدون مؤ ذن؟

من يعترض؟ معظم الناس لا علم لديهم بأن هذا الصوت الجميل بسبب الآلة البحتة ثم أن الدول الغنية حيث تسيطر الحكومات علي المنابر ولا مكان للحديث المفتوح والتحليل والنقد فهي تستورد التقنية معتمدة علي الأموال والطبقة الحاكمة فرحة بأنها تستطيع شراء أحسن تكنولوجيا ولكنها لا تعلم إلي أين يذهب بنا هذا الفعل. وضح باسم الموقف.

ودعنا المؤ ذن وانظر متي سيأتي دور الإمام. لو فهم هؤلاء العرب أن روبوتا مسلما يستطيع أن يتلو القرآن في صوت المقريء عبد الباسط أو الشيخ السديس فلعلهم يستغنون عن خدمات الأئمة الهنود والباكستانيين ثم إن الروبوت سيكون من مذهبهم ويخطب نفس الخطب التي ترغب فيها هذه الحكومات.

كان الحديث جاريا إذ رن هاتف بيا فجأة. كان عليها أن تذهب لإنجاز بعض الأمور الإدارية. أعطت بعض التوجيهات لكودرا بشأن الأدوية واستأذنت وقامت للذهاب بعد أن تركت الموضوع في منتصفه. عبد الحميد أحضر كوبا من الماء وتناول كودرا الدواء بعد إلحاح شديد.

كيف تشعر حضرتك الآن؟ وإن كنت تبدو اليوم منشرحا عن ذي قبل بحمد الله. قالها عبد الحميد تشجيعا له. وقال: إنني ذهبت البارحة إلي غرفتك لكن يبدو وكأنك كنت قد نمت.

قال: الحمد لله أشعر اليوم بشيء من الراحة ربما يكون للجو دخل فيه. اليوم كان الصباح غير عادي فقليلا ما يتسني لنا مشاهدة مناظر كهذه. انظر هناك ماذا يحدث في فتحة حديقة الحصن من أشعة الشمس كأنها ليست من أشعة الشمس بل أنهار من النور تتدفق.

نعم إنه منظر غير عادي. نحن نري أحيانا مثل هذا المشهد علي قمم الجبال ببيدجام وقت طلوع الشمس.

لعلني من تأثير هذا الجو اللطيف أشعر بداخلي طاقة كبيرة.

لكن هل لي أن أسأل سؤالا لو أذنت لي. قالها عبد الحميد ناظرا إلي كودرا.

نعم نعم لم لا بكل تأكيد.

أمس عندما كنت في عالم شبه فاقد للوعي كنت تتلفظ بكلمات صفين ونهروان مرة تلو الأخري. إنني أيضا علي علاقة بالمؤمنين ولذلك فكرت إن سنحت لي الفرصة فسأسألك بهذا الشأن.

بعد سماع هذا الكلام أصبحت عينا كودرا مفتوحتين لثوان ورمقني بنظرة استفهامية كأنه يريد أن يسند نفسه بنفسه ثم قال: إنها قصة مؤلمة فلنؤجلها لوقت آخر.

فكرت أن ذكري صفين ونهروان لعلهما يعرضان كودرا للنوبة من جديد ولتجنب هذه الحالة قلت أن كودرا باحث الأديان والتاريخ كان مرتبطا بمدارس المدينة المنورة وقم وله علاقات كبيرة مع علماء السنة والشيعة والأهم من كل هذا ظل طوال حياته يسعي للتضامن الإسلامي.

حقا! كان يبدو لي أيضا أنه شخصية غير عادية. حفظك الله. وقام عبد الحميد علي الفور وقبل يدي كودرا داعيا أن يجعل الله مساعيه موفقة.

إن باسم الذي كان يُري مترقبا شيئا ما بعد أن انكشفت علامات شيعية لعبد الحميد فقد أمن أيضا علي دعاء عبد الحميد. إن التضامن الإسلامي ضرورة الوقت الحاضر لكن كيف يتم هذا العمل؟ فالذين حرموا عليا من الخلافة والذين آذوا ذرية النبي (ص) فمن المحتمل أن يتم الوصول إلي تفاهم استراتيجي معهم لكن كيف يمكن أن يتم اتحاد نظري أو إقامة علاقات أخوة أو محبة معهم. إنني أفهم أنه لدي الشيعة التباس كبير في هذا الموضوع. التباس؟ لا إنها كلمة صغيرة جدا يمكنك أن تسميه التعذيب الذهني أو التعذيب الفكري وإن كانت الكلمة الصحيحة لهذه الحالة هي الفطنة لكن بسبب كثرة استخدام هذه الكلمة خفت وطئتها. إن طبائعنا الصالحة تريد الاتحاد والتضامن البيني لكن تاريخنا الطائفي والحكايات المصطنعة والروايات المكذوبة لا تسمح لنا بأن نصبح جسدا واحدا. قلت ذلك.

وربما لا تسمح بل لن تسمح بهذا التضامن والاتحاد أبدا. كان يبدو من لهجة كودرا الغضب الشديد. فهل هناك طريق للخروج من هذا العذاب أم لا؟ ما رأيك؟ سأل عبد الحميد ناظرا إلي.

الطريق موجود لكن لا يريد أهل السنة أن يسلكوه ولا الشيعة أن يقبلوه لأن الطائفتين أسيرتان للحكايات والروايات ولا تريدان التحرر منها.

لماذا بالآخر؟ بكل تأكيد تكون قد حللت هذه القضية بعمق.

العافية كل العافية في قبول "كل حزب بما لديهم فرحون". ماذا تعني؟ إنني لم أفهم.

انظر الأمر واضح كل الوضوح. إن لدي الطائفتين تاريخ مختلف عن الآخر. والتاريخان فيما بينهما متزاحمان ومتحاربان والاثنان يشتملان علي القصص والحكايات والأباطيل والآن إن قمنا بتحليلهما في ضوء العقل والوحي فسيسقط الواحد تلو الآخر ويفقدان اعتبارهما ثم إن موت رواة الحكايات في الواقع هو موت الفرق والطوائف ثم أن الذين يعز عليهم فرقهم وطائفتهم أكثر من الدين كيف يستطيع هؤلاء أن يستعدوا لهذا العمل.

لن يستعدوا أبدا. قال كودرا قاطعا الكلام بلهجة قاطعة. ثم أسند ظهره إلي الحجر وبدأ يمحلق في الجو كأنه يحاول أن يتذكر نقطة هامة.

لكن في الوقت الحاضر وبسبب إيران هناك غليان في دنيا الشيعة ففي رأيي أن القضية سياسية أكثر من كونها نظرية. أراد باسم محاولة تخفيف حدة الموقف.

السياسة في مكانها لكن لا شك في أن هناك شيئا ما يستخدمه الساسة لأغراضهم. انظر إنه في كل عام يعقد مؤتمر إسلامي للتضامن علي مستوي عال جدا. إنني عاجز عن التفكير بأن الذين اغتصبوا حق علي وبمجرد أن أغمض الرسول عيناه كيف بدأوا في إيذاء البتول وجاءوا لإشعال النار في بيتها وخلال هذا الشغب وقع باب البيت علي بطن السيدة فاطمة الذي تسبب في إسقاط حملها ولم تستطع البقاء في هذه الدنيا كثيرا. والذين قاموا بربط عنق علي بالحبل ثم جابوا به أحياء المدينة فإن أقيمت مع هؤلاء علاقة المؤاخاة نظرا للمصلحة الوقتية فالنار تظل تشتعل في داخل القلوب أليس كذلك؟ إن علماء الشيعة لا يردون علي هذا السؤال. شكا عبد الحميد.

إنهم لا يستطيعون الرد علي هذا لأنهم يؤمنون بكتب هي مليئة بالروايات المسمومة والحكايات كلها ضد العقل والمنطق وتوجد فيها

الخرافات والأباطيل لكن بمرور الوقت حصلت هذه الكتب علي القداسة. إن عقلاء هؤلاء الناس يشعرون بضرورة التحليل النقدي لهذه الكتب لكنهم لا يجدون في أنفسهم الجرأة الكافية لهذا العمل.

لكن مثل هذه الروايات أيضا توجد في كتب أهل السنة.

يا أخي إن أهل السنة أيضا أسري لمثل هذه الروايات وهم أيضا سجناء التاريخ المصطنع وكتبهم أيضا لا تخلو من الغث والسمين. قلت.

ثم إن أهل السنة ليس لهم كتاب يختص بهم. تدخل كودرا وقال: إن البخاري ومسلم أو المجموعات الأخري من الصحاح الستة أو مسند أحمد فإن قررنا أن هذه المجموعات للروايات تختص بأهل السنة فسيكون هذا الإقرار خلافا للأمر الواقع لأن هذه الكتب تم وضعها وترتيبها في الوقت الذي لم يكن هناك وجود للشيعة والسنة كفرق ولذلك نجد في هذه الكتب روايات للفرقتين. علي سبيل المثال جاء في البخاري أكثر من مرة أن رسول الله (ص) كان يريد كتابة الوصية وقت اللحاق بالرفيق الأعلي لكن سيدنا عمر رضي الله عنه قال: حسبنا كتاب الله. وهكذا لم يقدر للوصية أن تكتب. وفي صحيح مسلم رواية عن المتعة وكذلك رواية الخمر عن الصلاة وفي مسند أحمد توجد هذه الرواية "من كنت مولاه فهذا علي مولاه". فالكتب التي تحسبها اليوم كتبا لأهل السنة في الواقع هي رأس مالنا المشترك.

لكن لطائفة الشيعة كتبهم الخاصة مثل كتاب الكافي ومن لا يحضره الفقيه والاستبصار وتهذيب الأحكام وغيرها من الكتب. قام عبد الحميد بالتوضيح.

نعم الكتب الأربعة للشيعة قد وضعت فيما بعد في فترة إمارة آل بويه وحينما صنفت الشيعة كتبا خاصة لهم للرواية فلم تعد لهم حاجة لرأس

المال المشترك هذا وبعد مرور الأيام بدأت تحسب هذه الكتب المشتركة كمجموعات سنية بدلا من أنها رأس المال المشترك للطائفتين.

إذن فهذا هو سبب وجود بعض الروايات المؤيدة لموقف الشيعة في كتب أحاديث أهل السنة من موضع لآخر. باسم الذي كان في حالة اندهاش علي هذا الكشف قال: لم لم يرتب أهل السنة كتبا علي حدة لأنفسهم؟

ابتسم كودرا وقال: هؤلاء نالوا كل شيء جاهزا ومرتبا فلماذا يجتهدوا من جديد؟ يا أخي عندما تنفصل عن فرقة كبيرة أخري صغيرة فهذه الفرقة لا تجعل لنفسها هوية جديدة بل تمنحها الفرقة الكبيرة هوية مختلفة سواء شاءت أم أبت. لو لم تكن طائفة الشيعة قد رتبت كتبها ولو لم تكن وضعت أصولا محددة لقبول الرواية والتأويل والمتن ولم تقم كذلك بتحديد مظاهر اجتماعية لحب أهل البيت فلم يكن هناك وجود لمعرفة هوية الفرقة السنية.

عجبا! حسنا أن الشيعة كونوا لأنفسهم فرقة وقاموا بفصل كتبهم واخترعوا العادات والتقاليد لكن لو كانت السنة بريئة وبعيدة كل البعد عن التفرق فلماذا لا تسير شئونهم بدون هذه المجموعات السنية؟

كيف تسير فهذه الكتب أصبحت معلقة بأعناقهم وهم مجبرون علي قبولها علي أساس أنها كتبهم وإلا ففي الوقت الذي كان يتم ترتيب وتأليف هذه الكتب وكان يتم تدوين الروايات النزاعية والأخبار المضادة المتحاربة لم يخطر ببال أحد أن هذه الكتب ستحصل علي كل هذه القداسة فيما بعد وتلقب بالصحاح الستة.

كأن مصطلح الصحاح الستة قد تم اختراعه فيما بعد في رأيك؟ سأل باسم

نعم بعد فترة طويلة ظهر هذا المصطلح والآن بعدما مر علي هذا العمل قرون لا ندري ما هي الكتب الستة بالتحديد فالبعض يدخل ابن ماجة من بين الكتب الستة والبعض الآخر يحسب المؤتي من بين هذه الكتب الستة لكن المصيبة أن دين الشيعة الآن تابع للكتب الأربعة وإسلام أهل السنة يتغذي من الصحاح الستة فلو قامت الفرقتان بدراسة متأنية يقظة لكتبهما واستطاعت بشيء من الجرأة تحليل هذه الكتب في ضوء العقل والوحي فستشعر كل من هاتين الفرقتين أن مبني إسلامهما المصطنع يكاد ينهار. إن الشيء الذي يحسبه الناس دينا منذ مدة طويلة لا يقتنعون أبدا بتركه لأن قوة التاريخ المقدس شديدة. خذ علي سبيل المثال هذا الأمر حسب رواية البخاري أن عمر رضي الله عنه منع رسول الله (ص) والعياذ بالله من إملاء الوصية رغم رغبته صلي الله عليه وسلم الشديدة وظل يردد هتاف "حسبنا كتاب الله" وكذلك أصيبت السيدة فاطمة بأذي من جانب أبي بكر رضي الله عنه حتي وصل الأمر إلي أنها لم تتكلم مع أبا بكر طوال حياتها. إن أهل السنة حينما يقرأون هذه الأحداث فكيف تتوقع أن تبقي في قلوبهم صورة شفافة دون بقع فهم يقولون أن أبا بكر وعمر كانا مطيعين للرسول (ص) ولا غبار علي هذه الطاعة ثم بعد ذلك لا نجدهم مستعدين لرفض هذه الأحداث الشنيعة الموجودة في كتب الروايات ثم لا يبقي أي حل إلا أن يعيشوا طوال حياتهم معرضين للتعذيب الذهني والتشتت الفكري.

فهل تحسب أن جميع الوقائع المروية في كتب أهل السنة عن عدم طاعة أوامر الرسول (ص) وتعذيب وأذية البتول خاطئة؟

طبعا! إنها ضد عظمة وجلالة كبار الصحابة رضي الله عنهم ولا تقدم صورة صحيحة لعهد الرسول. إن رسول الوقت الذي كانت الأمة بأسرها رهن إشارته كيف يمكن لأي عمر أمام رغبته أن يمنع الرسول من

كتابة الو صية. لكن التاريخ يحكي أنه بمجر د أن أغمض الر سول عينيه أنهم صرفوا النظر عنه.

يا أخي إنني أقول أن التاريخ سواء كان في شكل الروايات أو علي مستوي الآثار الذي قام بتدوينه المحدثون أو يكون في شكل الأحداث والوقائع التي رتبها المؤرخون لا بد من نقده وتعديله لأنه مليء بالرطب واليابس. قل لي من فضلك كم هي مسمومة هذه الرواية التي تقول أن عليا كان رافضا لقبول بيعة أبي بكر وعمر رضي الله عنه جاء لإشعال النار في بيته. وقد مر وقت عصيب علي بنت ر سول الله (ص) حتي ذهبت إلي قبر أبيها لتشتكي. من الذي لا يقطر قلبه دما علي مثل هذه الرواية.

يا الله! كيف أقوم بالشرح والتوضيح. إنني أقول إنها ليست تاريخا بالمرة بل إنه سم قاتل. إنها خرافات وخزعبلات بل أكاذيب مائة في المائة.

يمكنك أن تقول أن فيها شيء من المبالغة لكن هناك شيء من الحقيقة أيضا ففي مجالس محرم الحرام تروي هذه الروايات بكثرة. من الممكن جدا أن يكون هناك تدخل من واعظين لكن لا بد أن تكون هناك بعض الحقائق أيضا وإلا لما راجت وا شتهرت لهذا الحد هذه الروايات.

وتدخل كو درا قائلا: إنه يوجد هناك كتاب لسليم ابن قيس الهلالي وهو المرجع الوحيد لهذه الرواية وعلماء الشيعة أنفسهم لا يعتبرونه راويا ذو ثقة ثم أن ا سم مصنفه قد و صل إلينا بطريقة مريبة ومشكوكة. إن من أ صحاب علي كان هناك شخص ا سمه "آبان" يقال أن سليم هذا أعطاه مسو دة هذا الكتاب وقت وفاته قائلا: إنها أمانة. فلو أبعدت هذا الراوي المجهول والكتاب الذي ينسب إليه فسيزول من التاريخ الإسلامي هذه الرواية الكاذبة والمكذوبة وليس هناك مرجع آخر يتحدث عن رواية إشعال النار في بيت علي لكن بما أن هذه القصص تغذي الواعظين

وتنشط الذاكرين فهم يستولون بهذه الحكايات علي قلوب المستمعين غير مبالين أنهم بذلك يروجون الأكا ذيب ويفترون علي الله ور سوله.

وما ذا تقول عن قضية الفدك وعدم رضاها بل غضبت السيدة فاطمة والرواية موجو دة في البخاري.

نعم، فهذه الرواية أيضا ليست أقل من مثيلاتها. إن حكاية عدم رضا السيدة فاطمة قد جاءت علي لسان أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها والراوي هو شهاب الزهري وكما تعلمون أن السيدة عائشة مطعونة لدي حماة البتول لكنهم قبلوا تلك القصة المفترضة التي تصور عجز السيدة فاطمة وليس هناك راو آخر لمثل هذه الروايات غير شهاب الزهري فإن ا ستبعدت سليم ابن قيس و شهاب الزهري فستذهب وتزول هذه الروايات المفتراة الكا ذبة في لمح البصر. إن ثمانين بالمائة من الافتراءات ترجع إلي روايات هذين الشخصين واحد منهما مجهول وثانيهما غير ذي ثقة فلا يصح بأي حال من الأحوال أن نسمح لهما بأن يختطفا تاريخنا الاجتماعي.

لكن لو تم رفض تاريخ الآثار بهذه الصورة فما ذا سيبقي لدينا؟ انظر إلي سلسلة المظالم التي لم تتوقف ضد أهل البيت. إن الحسين قد ا ستشهد في كربلاء مظلوما. كل هذا من أبواب التاريخ الحقيقي. وضح عبد الحميد موقفه.

معذرة علي قطع الكلام. قالها كو درا. إن مصطلح أهل البيت الذي ا ستعملته أيضا في حاجة إلي الفهم من جديد. بمن تقصد بأهل البيت.

هل هذا يحتاج إلي كلام؟

لا قل لي حقا. أ صر كو درا علي سؤاله.

من يكون غير الخمسة الذين طهرهم الله تطهيرا من كل أنواع الرجس. قال عبد الحميد مشيرا إلي الآية لدعم موقفه "ويطهركم تطهيرا".

"إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا". قام با سم بإكمال الآية.

نعم من فضلك اقرأ الآية كاملة لأن الآية الكريمة لا تشير إلي الخمسة حتي ولو من بعيد.

"وقرن في بيوتكن..."

لا بل من أول الآية.

"يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا (٣٢) وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولي وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا (٣٢)." الأحزاب.

الخطاب في هذه الآية والآيات التي قبلها موجه إلي أمهات المؤمنين فعليهن أن يقدمن أعلي وأرفع مستوي من الأخلاق لأن بيوتهن ليست من البيوت العامة. هنا تنزل آيات الله بأن عليهن أن يكن مستقرات في بيوتهم والله يريد أن يبعد عنهن الرجس. والآن كل من يكون خالي الذهن ويقرأ هذه الآيات فلن يفهم المرا د منها إلا الأزواج المطهرات وهن أمهات المؤمنين.

لكن نحن أهل السنة نعتقد أيضا أن أهل فاطمة داخلون في أهل البيت أيضا فحسب حديث الكساء حينما نزلت هذه الآية أخذ الرسول (ص) عليا وفاطمة والحسن والحسين في رداء ودعا قائلا: اللهم هؤلاء أهل بيتي وعترتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. ففي رأيي أن السنة والشيعة كلاهما يعتقدان أن المراد من أهل البيت السيدة فاطمة وأولادها. قالها با سم موضحا وجهة نظر أهل السنة.

يا أخي إنني أقول أن الشيعة والسنة الاثنان أسيران للروايات فهما لا يريدون قراءة القرآن بصبغته الأصلية ونسقه الصحيح والنتيجة هي أن أمرا مباشرا تحول إلي نزاع بشكل تغير معه المفهوم الصحيح الأصل. إن الشيعة يرفضون إدخال أزواج النبي (ص) في زمرة أهل البيت وأهل السنة توسعوا في تصور أهل البيت فبالإضافة إلي أزواج النبي (ص) أدخلوا فيه آل فاطمة أيضا. وفي صحيح مسلم رواية لزيد ابن أرقم وهي: إنني أترك فيكم الثقلين كتاب الله وعترة أهل بيتي. وحينما سُئل زيد ابن أرقم إذا ما كانت أمهات المؤمنين تدخل في ضمنهم أجاب بنعم لكن هنا المراد هم الذين حرمت عليهم الصدقة بعد النبي (ص) مثل آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس. وانظر الآن إلي أين قد أوصلت هذه الروايات القضية وفيما بعد وبسببها أصبح حب أهل البيت جزءا من الإيمان. ورُوي عن أبي سعيد الخدري عكس ما جاء في القرآن الكريم تماما وهو بشأن آية التطهير إذ روي أبو سعيد الخدري أنها نزلت في خمسة: في رسول الله وعلي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم. والآن قل لي بحق رب الكعبة ماذا يفعل الباحث العام في وسط هذه البيانات المتضاربة للتأويل والآثار. قالها كودرا في أسلوب حزين.

لكن هناك إجماع علماء الإسلام علي شمولية آل فاطمة فالشيعة والسنة الاثنان لديهم روايات كثيرة بهذا الصدد لا يمكن رفضها بالمرة.

إنني أقول نفس الكلام وهو أن الطائفتين أسيرتان للروايات ولا تريدان الخلاص منها. إن هاتين الفرقتين قد قامتا علي أساس هذه الروايات وتغيير المفاهيم الصحيحة الصادقة لآيات القرآن الكريم بحيث أصبحت المفاهيم الصحيحة معطلة. فهاتان الطائفتان تنطبق عليهما جريمة التحريف "يحرفون الكلم عن مواضعه". الاثتنان قامتا بتحريف المعني القرآني لأهل البيت حسب أهوائهما ثم جاءوا بروايات لا حصر

لها وأصبح تقدير واحترام آل علي وكذلك ذرية آل عباس جزءا من الدين. إن القرآن الذي حمل شعار "إن أكرمكم عند الله أتقاكم" فقد لعبت به ريح الربيع بسبب هذه الروايات علي أبناء آل علي وآل عباس المزعومين من حاملي هذا القرآن.

كانت قد تولدت في حديث كودرا حالة من الاندفاع شبيهة بالشلال وبدا وكأنه لن يتوقف بأي حال من الأحوال. وعبد الحميد كان في حيرة واندهاش إذ أنه لو تم إخراج الأسماء الخمسة من آل البيت فماذا سيبقي من الدين؟ وفي الجانب الآخر كان باسم قلقا علي أن إبطال ورفض إجماع مئات السنين ليس من شيمة أهل العلم ولم يستطع إخفاء قلقه أكثر من هذا وقال: معذرة لو أننا رفضنا إجماع الأمة بهذه الطريقة فماذا سيبقي لدينا؟ سينقلب ويتغير كل شيء.

قال: هذا هو ما نحتاج إليه. لمَ لا نعطي الفرصة للقرآن الكريم كي يتكلم؟ لماذا لا نقبل أن يكون بيانه حجة لنا؟ إن أسس نزاع الشيعة والسنة هي تلك الروايات ففي أيام الفتنة ازدادت هذه الروايات المصطنعة إذ اضطر محدث واحد أن يرفض مئات الآلاف من الروايات. فحينما لم ينتقص شيء من الإسلام بعد رفض كل هذه الآلاف المؤلفة من الروايات ففي هذه الحالة إن تم إسقاط الأحاديث المتبقية من مكانة القداسة وبدأنا من جديد في جعل البيانات القرآنية المضيئة حكما بدلا من تأويلات عن فهم وتاريخ القدماء فحينها فقط سيمكننا الخروج من جو القصص المصطنعة ويصبح الأمر سهلا للسير علي الطريق المستقيم في ضوء الوحي.

كان يبدو أن عبد الحميد قد أصبح متوترا من حديث كودرا. قال: إنك قد أقمت في قم وجالست المؤمنين. كم نحن نحب مولي علي والحسين هو منتهي عبوديتنا والبكاء عليه هو سبب النجاة. "من أنشد في

الحسين شعرا فتباكي فله الجنة". والآن بعدما تخرج الحسين من خانة آل البيت فمن أين تأتي العيون التي تبكي للحسين المظلوم؟ أراد عبد الحميد رفع قضية آل البيت إلي كودرا.

أخي العزيز إن الحسين ليس بحاجة إلي عيون تبكي عليه ولا أيدٍ تضرب علي الصدور لكنه بحاجة إلي أناس يعيدوا دين جده إلي أساسه المتين. لو حدث هذا فنحن بدلا من إقامة سرادق العزاء نقيم احتفالا لإظهار الفرح والسرور. نحن في الواقع إلي حاجة لنشر رسالة الحسين لأن البكاء والتأوه لن يأتي بأي نتيجة. إن الرواة قد قاموا بجمع كم هائل من القصص والأباطيل التي لا أساس لها من الصحة وسردوا كل جزئياتها وتفاصيلها. ومع مرور الوقت تزداد هذه الذخيرة بالشعر والكلام الخصب والمواعظ البركانية من الواعظين والذاكرين. إنها بمثابة وحي لأنك لو وقعت فيه مرة لن تستطيع الخروج منه مهما رغبت في ذلك.

حسنا نقبل أن هناك فسادا قد وقع في تأويل وتفسير الآيات لكن شهادة الحسين المظلوم حادث حقيقي وتاريخي لا نستطيع رفضه أليس كذلك؟ مع هذا القول ابتسم عبد الحميد ابتسامة الفاتح وكأن المجلس يكاد يرفع الهتاف الحيدري.

قال: من ينكر شهادة الحسين المظلوم وهو الذي كان قد خرج من البيت لإصلاح الأحوال وكانت مغادرته إلي الكوفة بدعوة من الصحابي سليمان ابن صرد وهذا أمر آخر أن سعيه لم يكتب له النجاح لكن سرد استشهاد الحسين بالأسلوب الذي وصل إلينا يشعل العواطف والمشاعر تحتد وتشتعل بصورة مروعة ثم بعد ذلك الروايات التي تجعل البكاء علي الحسين وإقامة المآتم ومجالس العزاء له جزءا من الدين فمثل هذه الروايات مشكوك في أصلها وأساسها.

تستطيع أن تقول أن أحباء الحسين قد سجلوا الحادث لحظة بلحظة ثم أن كل ما مر علي أهل البيت الأطهار قد سجله المؤرخون. لقد تحمل الأئمة المعصومون مصائب جمة.

انظر كيف أنه لا يستطيع أحد أن ينكر ما وقع للحسين و سلام وتعظيم للحسين علي جرأته وعزيمته لكن وقائع كربلاء التي و صلت إلينا والتي أ صبحت علي ألسنة عامة الناس ومنها علي سبيل المثال أن الحسين ومن كانوا معه ظلوا عطشي لمدة ثلاثة أيام وجيش معارضيه كان مكونا من مئات الآلاف وجلوس شمر علي صدر الحسين وفصل رأ سه من جسده وانتزاع الأردية من نساء أهل البيت. كل هذا و ذاك مبالغ فيه وقصص تميل إليها طبائع النفوس.

تفضل! قد بدأت الآن رفض التاريخ أيضا. احتج عبد الحميد.

قال: إنني لا أرفضه ولكن المصادر التاريخية لا توثقها ولا تصدقها بالمرة. انظر عليك أن تعلم أولا أنه لم يتم ترتيبه أو وضعه في كتاب تاريخي حتي بعد ا ستشهاد الحسين بمائة وخمسين أو مائتي سنة وجميع المؤرخين الذين سجلوا وقائع وحوادث القرن الأول من الهجرة هؤلاء كانوا في القرن الثالث الهجري. خذ علي سبيل المثال صاحب كتاب البحر أباجعفر حبيب فقد توفي عام ٢٤٥ه ومؤلف كتاب المعارف مسلم بن قتيبة توفي عام ٢٧٦ه ومصنف أنساب الأ شراف أحمد بن يحيي البلاذري فقد توفي في عام ٢٧٩ه ومصنف أخبار الطوال أبو حنيفة الدينوري توفي عام ٢٨٢ه ومؤلف تاريخ ابن واضح أبو العباس ابن واضح اليعقوبي توفي عام ٢٨٨ه ومصنف كتاب تاريخ الأمم والملوك ابن جرير الطبري توفي ٣١٠ه ومصنف مروج الذهب وتنبيه الأ شراف المسعودي فقد توفي ٣٤٦ه. فكما تري أن كل هذه الكتب تم وضعها بعد وقوع حادث كربلاء بمائتين

وثلاثمائة سنة ثم إن مصادر هؤلاء المؤرخين ورواة الأخبار من أهل الكوفة وفي كتاب الطبري جميع الروايات عن عثمان بن عفان رضي الله عنه مروية من السري بن اسماعيل الكوفي وروايات عصر معاوية مروية عن محمد بن السائب الكلبي الكوفي وأبي مخنف وهشام الكلبي. وقد قال عن كل هؤلاء الإمام الذهبي وآخرون من أئمة الرجال أنهم كذابون ولو تم تكرار قال أبو المخنف وقال أبو هشام من تاريخ الطبري فسينهار قصر القصة المبالغ فيها عن كربلاء. ورسالة أبو المخنف في عهده كانت تعد كلاما مختلفا عن الرواة القصاصين. وحصلت هذه الرسالة علي كونها مصدرا تاريخيا بعد قرون من النقل والأخذ منها. وكانت نتيجة هذه الحكايات والروايات أننا لا نعرف إلي الآن بصورة قطعية متي وفي أي سنة وفي أي شهر وأين وقعت شهادة الحسين فالبعض يقول أنها وقعت في كربلاء وهناك من يحدد ويقول أنها حدثت في نينوي وكذلك هناك من يحدد شهر محرم وهناك قائل أنها حدثت في شهر صفر وحسب صاحب ناسخ التواريخ هناك اختلاف في الزمن أيضا إذا ما حدثت هذه الحادثة في عام ٦٠ أم ٦١ه.

إن الجميع متفق علي يوم عاشوراء. قام عبد الحميد بالتعليق علي هذا الموضوع.

قال: ماذا يفعل الجمهور المسكين؟ ففي تاريخ الطبري كل أنواع الروايات والناس قد اختاروا تاريخ العاشر من محرم الحرام نظرا لسهولته وإلا فإن الشخص الذي روي واقعة كربلاء من الألف إلي الياء وهو أبو مخنف لوط بن يحيي الأزدي هو نفسه قد ولد بعد عدة سنوات من هذه الحادثة الموجعة وكل ما كتبه هذا الرجل هو عبارة عن ما سمعه من هنا وهناك والطريف أن هناك نسخا عديدة لكتاب مقتل الحسين وكل

نسخة منها تختلف عن الأخري أي لا توجد هناك رواية واحدة موثوقة لشخص واحد قام بترتيب قصة مقتل الحسين.

علي كل حال اترك جانبا أبا مخنف لأن كتاب مقتل الحسين غير معتبر لكن هل تقبل رواية أم سلمي أم لا؟ قال عبد الحميد محتجا.

هل تتحدث عن حديث الكساء؟ سأل كودرا.

قال: أم سلمي نفسها بقيت خارج هذا الرداء لكن هناك رواية أخري للسيدة عائشة ورواية ثالثة وضعها مؤيدو آل عباس وقالوا فيها أن رسول الله (ص) قد دعا قائلا: يا رب هذا عمي و صنواني وهؤلاء هم أهل بيتي....

لا، بل إنني أذكر رواية أم سلمة التي جاء فيها أنها رأت الرسول (ص) في المنام وكان رأسه وكذلك لحيته ملبدتان بالغبار وعند السؤال رد قائلا: إنني قادم من مقتل الحسين.

نعم، هناك رواية لأم سلمة في كتب الروايات بل هناك رواية أخري تنسب إليها أنها رأت الجن وهم يتباكون علي مقتل الحسين وكذلك سمعتهم وهم يقرأون المراثي لكن الغريب أن استشهاد الحسين قد حدث في عام ٦١ه وأم سلمة قد توفيت في عام ٥٩ه.

حقا؟ لم يكن لدي أي تقدير لهذا. عبد الحميد كان في دهشة. قال: فلِمَ لا ينظر الدارسون إلي هذه الأمور عندنا لأننا منذ الطفولة نسمع في مجالس العزاء بيانات وحكايات مردها أن ابن عباس رأي في المنام في وقت الظهر أن الرسول (ص) يحمل في يده آنية من الزجاج وهي ممتلئة عن آخرها بالدم وعند السؤال قال: هذا دم الحسين وأصحابه. ويقال أيضا أن الشمس أصابها الكسوف علي مقتل الحسين ولم تطلع لعدة أيام وساد الظلام وبدأت النجوم تلمع ونزل من السماء مطر عبارة عن دم فكلما رفعت حجرا كان يخرج من تحته الدم.

نعم يا سيدي هذا هو الجانب المؤلم لهذه الحادثة. ألم يكن استشهاد الحسين كافيا كي يُشن الهجوم تلو الآخر علي هذا الشهيد المظلوم من قبل الرواة الوضيعين والأفاقين عن طريق حكايات وقصص لا سند لها. في نظري هذا الطعن أشد وأنكي من الطعن اليزيدي لأنه قام بمسخ صورة وشكل الحادثة المروعة. فمن أجل الحفاظ علي الدين الذي قدم من أجله الحسين روحه وأرواح أهل بيته نذرا لله سبحانه وتعالي. قام واضعو الروايات بأكاذيبهم وإفكهم ومحبو الحسين الذين غالوا في حبه بتشويه الصورة الحقيقية لاستشهاده وما بقي من التقصير في هذا الشأن فقد أتمه الواعظون والذاكرون بحكاياتهم. وحكايات هؤلاء في هذا الشأن محيرة للعقول ولا ينقطع تسلسلها وكذلك لأغراض سياسية تم وضع أحاديث بكثرة حتي أصبح من الصعب فصل القصص عن أصل الواقعة. تأمل معي أن الإمام البخاري لم يجد من ستمائة ألف حديث إلا ألفين وسبعمائة وواحد وستين حديثا ليعتد بها والإمام مسلم لم ينتخب إلا أربعة آلاف حديث من ثلاثمائة ألف حديث. هناك أسس وأصول محددة لقبول الرواية في كتب الحديث. لكن كتب التاريخ ممتلئة بروايات معوجة وسقيمة فكانت النتيجة أنه قد أصبح صعبا للأجيال القادمة العبور فوق هذا السد السكندري من الروايات الوضعية الملفقة.

إن عبد الحميد الذي كان يسمع حديث كودرا بكل تركيز واندهاش من أني له أن يقبل الهزيمة بتلك السهولة. قال: كلامك له وزن لكن هؤلاء الذاكرون والواعظون هم من عصرنا. نحن لا نستطيع أن نصدق كل كلامهم لكن حب الإمام علي قديم وليس مرهونا بهؤلاء الواعظين.

قال: يا أخي ألم يكن من قبل أيضا هناك واعظون بأشكال مختلفة. فما تسمعه من أن الشمس عادت من أجل أداء علي للصلاة وعندما فرغ

علي من أدائها غربت الشمس مرة أخري فمن كان هؤلاء الرواة إن لم يكن الواعظون والذاكرون في وقتهم.

لكن مثل هذا الكلام لا يعتد به العلماء ذو الثقة. قام باسم بالتعليق.

قلت: ماذا تقصد بالعلماء الثقة. فصاحب حجة الله البالغة ولي الله الدهلوي يعتبر هذه الرواية صحيحة.

المحدث ولي الله الدهلوي؟

نعم يا سيدي. إن الدهلوي ذكر معجزة عودة الشمس بعد غروبها بكل اهتمام. يقول أنه سمع هذا الحديث في المدينة المنورة من شيخه ابراهيم بن الحسن الكردي عام ١١٤٤ه.

نعم إنها قصة مشهورة لدي الرواة ويستدلون بها علي عظمة علي رضي الله عنه. والمعين كاشاني نظم بشأنها قصيدة يتغني بها المنشدون بكل حيوية وهم يتمايلون يمينا وشمالا. تدخل كودرا قائلا: يقال أنه حينما عادت الشمس إلي مكانها سلم عليها علي وردت عليه الشمس قائلة: يا علي أنت الأول وأنت الآخر. قصيدة كاشاني فيها سحر من نوع غريب.

علي كل حال ليس من الغريب أن يحدث كل هذا من كاشاني لكن ما لم يكن في الحسبان أن ولي الله الدهلوي يذكر ويؤيد مثل هذه الواقعة. دافع باسم مرة أخري عن ولي الله الدهلوي.

قلت أن ولي الله الدهلوي لم يكتف بهذا بل قام بنقل مزيد من الغث والسمين. فعلي سبيل المثال لا الحصر ذكر أن السيدة فاطمة رضي الله عنها حينما علمت أنها ستتزوج من علي فشكت إلي رسول الله (ص) قائلة: يا رسول الله زوجتني من علي ابن أبي طالب وهو فقير لا مال له. فرد عليها رسول الله: يا فاطمة إن الله اختار من أهل الأرض شخصين أحدهما أبوك والآخر زوجك.

وقد ورد في الأحاديث أن زواج فاطمة قد تقرر بأمر من الله. كثير من الناس قد تقدموا للزواج منها لكن الرسول (ص) ظل ساكتا حتي أتي أمر الله بزواجهما من علي. قالها باسم.

حسنا فهذه هي خلفية هذه الأنشودة التي تغني بها المنشدون في الأيام الماضية علي قنوات التليفزيون بكل حماس وحيوية.

قال عبد الحميد فرحا: وهناك أبيات أخري مثلها. قلت: نعم يا سيدي، إن هؤلاء المنشدين قد أقاموا بين الله ورسوله علاقة نسب و صهر والعياذ بالله. وانظر إلي الخصبة التخيلية وأفاعيلها.

قال: إن الدين حينما يتحول إلي قالب الشعر واللحن فاعلم أن الرصاصة قد خرجت من البندقية ولم يعد في مقدورك فعل شيء. ففي انحطاط أي نظرية يكون الدخل الكبير في ذلك لأقوال عامة الناس والألحان الشعبية والشعر الرفيع والفنون الجميلة لأن العصبية الطائفية والتحزب النظري لو لم يتغذي بالشعر واللحن فإن كل نوع من أنواع هذه التجارة تتوقف وتصاب بالكساد. فالطوائف المختلفة لأهل القبلة ورطب ألسنة الواعظين والبيان المعجز للذاكرين باقية وقائمة علي أساس الشعر والنغمة. قالها كودرا في لهجة مليئة بالشجن.

كلامك صحيح فالشعر له سحر وخاصة لو كان بمثل هذه الأبيات والألحان التي تتصف بموهبة إيقاظ التاريخ النائم وهو التاريخ الذي يختبيء بين جنباته شرر النزاع والفتن ثم تحويل هذا الشرر إلي شعل متوهجة لا يستغرق كثيرا من الوقت. أيده باسم قائلا: في العام الماضي وفي يوم عاشوراء بالتحديد كان الزحام بالملايين في لبنان وكانت اللافتات الكبيرة التي تحمل عبارة هيهات منا الذلة في كل مكان. وهذه اللافتات كانت تحمل أيضا صورة حسن نصر الله وكان المنشد يشدو قائلا "يا حبيبي يا علي نبض قلبي يا علي". وعلي الشاشات الكبيرة كان

يتم عرض صور حسن نصر الله بالإضافة إلي لقطات عديدة للعرض العسكري لحزب الله. وفي الخلفية كان المغني يشدو:

فجعت أرض الطفوف بالحسين ابن علي
يا دموع العين طوفي اروي العطشي انزلي
يا حبيبي يا علي نبض قلبي يا علي
إنه الشمر يا حيدر العن أثيم اليدين
طال بيديه المنحر وحز رأس الحسين
يا حبيبي يا علي نبض قلبي يا علي

كانت هناك حالة عجيبة من العاطفة وكانت كلمات نبض قلبي يا علي، نور عيني يا حسين علي الألسنة وكان يبدو أن هذه النغمة قد أحكمت سيطرتها وقبضتها علي مئات الآلاف من الناس. وعندما شدا المنشد هذه الأبيات:

يا أبا الحسن أدركنا بالسهم مات الرضيع
يا علي فلا تتركنا رأس الحسين قطيع
يا حبيبي يا علي نبض قلبي يا علي
يا علي العباس زينب تنعيه في ماجري
تصرخ بقلب معذب هذا شبل حيدري
يا حبيبي يا علي نبض قلبي يا علي

بدأ حشد كبير من الناس يدخلون في حالة بكاء هيستيري كأننا و صلنا إلي نفس الأيام التي وقعت فيها معركة كربلاء رغم أنها ترجع إلي قرون بعيدة واحتاج آل فاطمة لشيعتهم بشدة والمغني كان يشدو:

أدرك قلبي يا إمامي أدركني يا أبا الحسن

هذا الحسين أمامي لا غسل ولا كفن
أدرك قلبي يا إمامي أدركني يا أبا الحسن
هذا الحسين أمامي لا غسل ولا كفن
يا حبيبي يا علي نبض قلبي يا علي

مئات الآلاف من هذه الحشود كانوا علي أهبة الاستعداد للتضحية بالغالي والنفيس بإشارة من ابن علي (حسن نصر الله). وفي هذه الأثناء بدأت تتغير صور حسن نصر الله المعمم بالعمامة السوداء والجدير بالذكر هنا أنه سواء كان حسن نصر الله أو الخامنئي فعمامتهما السوداء تشير بوضوح أنهما من أسرة الحسين بن علي. وإلي يومنا هذا كل هؤلاء مشغولون بكل نشاط ليل نهار لإكمال هدف أبناء علي الحسيني. وأثناء هذا الطرب من الشعر واللحن الساحر لم يكن شيعة الحسين يدرون أنهم لم يكونوا يبارزون الآن شمر ولا جيش ابن زياد ولم تعد في بلاد الشام حكومة يزيد. فليس هناك أي داع بالمرة اليوم أن نصرف كل مساعينا وننهك قوانا ضد الأعداء المفترضين بدلا من أن نحدد الأعداء الحقيقيين للأهداف الحسينية الذين استولوا علي سيادة وإمامة الدنيا اليوم.

قال: كلامك صحيح. إنك تستطيع السيطرة علي رصاصات البندقية وعلي بارود الدبابة لأن آثارها في حدود الزمان والمكان الأربعة لكن السيطرة علي سحر الشعر والطرب ليس في استطاعتك فتلميح واحد يستطيع إحياء تاريخ بالكامل، وهو التاريخ الخامد المسموم. انظر الآن ماذا يحدث في سوريا وتجمعات شبابية من إيران والعراق ومن مختلف مناطق العالم الإسلامي تتوجه صوب دمشق للحفاظ علي مقام السيدة زينب. إن لهذه النغمات والأبيات الساحرة دور كبير في إعطاء دفعة لهذه المهمة بأسرها. كم من السحر في هذه النغمات وما بالك أيضا حينما تكون باللغة الفارسية لأنها أصلا لغة الطرب. إنني كلما جلست في

مجالس العزاء لم أستطع السيطرة علي قلبي. مع هذه الكلمة سكت كودرا برهة كأنه يتذكر شيئا ما ثم بدأ يدندن أبيات باللغة الفارسية.

إن سحر الألوان والنغمات قد سلب قوة فكرنا. ففي هذا الوقت نجد أنفسنا كأمة في أيام العام الواحد والستين من الهجرة حيث يتبارز أحباء زينب مع أعدائها. العالم الإسلامي بأسره ملطخ بالدماء والجثث بدأت تتجمع هنا وهناك وتحولت المدن العامرة بالسعادة والسرور إلي أطلال. وقد مات إلي الآن حوالي خمسة ملايين نسمة من أهل القبلة لكن صوت هذه النغمات عطلت حواسنا بشكل لا يريد معه أنه يتوقف مسلسل القتل والدم المتدفق. مع هذه الكلمة دمع كودرا.

ثم ما هو حل هذه المعضلة؟ كيف يتوقف سفك الدماء هذا؟ سأل عبد الحميد.

بعد سماع هذا السؤال بدأ وجه كودرا يتغير فجأة وبدأ يمحلق في الفضاء لثوان ثم وقف بعدها فجأة وأخذ شنطته وبعد أن علقها علي ظهره قال دون أي اهتمام: مستحيل أن يحدث شيء فهؤلاء سيظلون يتقاتلون فيما بينهم "فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم" لأن مساعي الصلح ووقف الاشتباك تكون بين أناس موجودين في الحدود الأربعة للزمان والمكان أما الذين تعلموا فن القتال من أجل الماضي فإنك لا تستطيع إيقافهم لأنك تسيطر علي الحاضر أما الماضي فهو تابع للتاريخ المصطنع وما لم تتخلص من هذا التاريخ فإنك لن تستطيع تقرير مصيرك بشيء من العدل والإنصاف. إن قصاصي الماضي قد وضعوا حراسة علي مستقبلنا. لقد تم مسخ التاريخ وكُسر القلم ولا يمكن الآن أن يحدث شيء... مع هذه الكلمة ألقي كودرا علي المجلس نظرة عابرة وانطلق.

ومع ذهاب كودرا ذهبت روح المجلس. إن قولك صحيح أن الماء عميق. سأل باسم ناظرا إلي: كيف نستطيع أن نخرج في النهاية من معركة صفين ونهروان؟

نعم، لا بد من البحث عن حلول لإيقاف هذه الحرب فقد وصل الأمر إلي ذروته. أربعة عشر قرن من الزمان ليست بقليل. قالها عبد الحميد في لهجة مليئة بالألم. اضطراب هذين الشابين كان جديرا بالنظر إليه لإصلاح الأحوال.

لا تيأس. إن الظروف من الممكن أن تتغير. أعطيتهما نوعا من الطمأنينة. قلت لهما إن استمرار انحراف ما لقرون ليس معناه أنه ليس بالإمكان كسر هذه الهيكلة. كل ما نحتاجه هو المبادرة الجريئة لأن هيكلة التاريخ الموضوع التي تقيدنا بسلاسلها منذ قرون ليست قابلة للكسر.

هل كانت هناك مساع كهذه من قبل؟ سأل عبد الحميد.

قلت: لم لا وإن كانت هناك طائفة أرادت إفناء طائفة أخري بقوة الدعاية. فهذه الأحداث التي تقرأها في كتب التاريخ من تخريب الكتب وراءها أيضا دواع لتحجيم التاريخ المصطنع سواء كانت المكتبة الإسماعيلية باسم قلعة الموت أو كانت المكتبة الاثني عشرية لابن عباد أو مكتبات أهل السنة في بغداد العباسية أيام سقوط بغداد. ففي القضاء علي هذه الكتب كانت الكتب التاريخية المعارضة وكتب الأدب التأويلي مستهدفة. طائفة أرادت إتلاف الدعاية التاريخية والالتباسات التأويلية فهؤلاء وأولئك لم يكونوا مقدرين بالكامل لهذه البيانات التاريخية والالتباسات التعبيرية المسمومة لأن الهياكل الفكرية لا تنكسر بحد السيف فهي تحتاج منا كأمة أن تكون هناك دوافع حقيقية للخروج من هذا السراب التاريخي.

فهل تري أنه من الممكن في زمننا هذا؟ سأل عبد الحميد.

نعم، بكل تأكيد. إنني أفهم أنه لم يتم بذل مساع جادة ومنظمة حتي الآن لرفض التاريخ المصطنع وإلي يومنا هذا ظل اعتمادنا علي نقد الراوي والحال أن الراوي الذي نجده لدي شخص ذو ثقة هو نفسه مطعون لدي الآخر. علي سبيل المثال خذ الراوي الشيعي أبا بصير الذي أدانه جعفر الصادق وله أقوال في إدانته لكن لدي علماء الشيعة لا اعتبار لهذه الأقوال التي تدينه أشد الإدانة بل تطعن في ذمته. لكن علماء الشيعة يقولون أن هدف جعفر الصادق من هذه الإهانة كان التستر علي هوية أبي بصير الشيعية حتي يكون في مأمن من بطش الموظفين الحكوميين. ثم في الغابة اللامتناهية للرجال لو وجدت بيانات متضادة نحو راو ما فيوجد حينها احتمال أن تعتبر من تشاء ذو ثقة وتتهم من تشاء بالكذب والافتراء. جعلنا هذا المنهج الدراسي منذ قرون في دائرة مستمرة من الصراع الذهني.

هل هذه الحالة موجودة لدي الطائفتين؟ هل علماء الشيعة والسنة أسري لهذا المنهج؟ سأل باسم.

نعم إلي حد كبير. ففي نهج البلاغة يوجد ذكر لرسالة من معاوية إلي علي يستدل الأمير معاوية علي خلافته فيها قائلا: إن من قاموا ببيعة أبي بكر وعمر وعثمان هم أنفسهم من قاموا ببيعتي علي الخلافة. إن هذا الدليل العلوي علي قيام الخلافة ضد موقف الشيعة والذي يجعل الخلافة أمرا منصوصا. وفي تلك الحالة لم يبق لدي علماء الشيعة إلا أن يقوموا بإضعاف رواية نهج البلاغة هذه. كذلك توجد في البخاري ومسلم عشرات من الروايات التي تقوم بدحض وإبطال موقف أهل السنة للخلافة لتصبح صورة الشيخين معيبة. لكن الفرقتين وبدلا من أن تقوم بمحاكمة مثل هذه الروايات محاكمة عادلة وجريئة ترجحان منهج وطريقة التأويل والتطبيق. والنتيجة أن الروايات الكاذبة والوقائع الموضوعة لا تفارقنا. فالكتب التي

جعلتها الفرقتان قريبة منهما منذ فترة طويلة ليست منزلة من عند الله. إنها من تأليف وتصنيف الناس. فلو نُظر إليها كميراث علمي واجتماعي بدلا من كونها سنية الأصل أو شيعية الأصل وكنا علي استعداد لدراستها وتحليلها ونقدها كطلبة علم لا كعلماء فحينها فقط من الممكن جدا أن تنكسر هذه الأصنام النظرية وبعد ذلك يصبح من المحتمل أن نقبل ما هو قريبا من الوحي والعقل ونرفض ما يكون عكس ذلك.

وقت تناول القهوة كان قد انتهي منذ فترة والمشاركين في المؤتمر كانوا قد عادوا إلي القاعة. واستأذنت من عبد الحميد وباسم ورجعت إلي الغرفة. وفي هذا الوقت تراءي لي أن في قاعة المؤتمر تدور الآن المناقشات حول موضوعات مهمة ومتخصصة لكن كنت أحس بشيء من القلق والاضطراب ففتحت النافذة كي يدخل الهواء المنعش وألقيت نفسي علي الكنبة. لا أدري أي نوع من الاضطراب كنت أشعر به وكانت النفس ترغب في أن تسمع عن التوقعات المستقبلية للدنيا من الخبراء لكن العقل كان يشتبك مرة تلو الأخري بصور الحرب الأهلية الدائرة في أمتنا وبدأت أتذكر قول كودرا أن الذين تعلموا فن الحرب بالذهاب إلي الماضي من المستحيل أن تمنعهم وتبعدهم عن الحرب. واليوم ولأول مرة أحسست بشدة كيف أننا نحن المسلمون أهل الفكر والرأي مجبرين علي الحياة في عالمين مختلفين في وقت واحد، فهناك عالم جديد للدراسة والتحقيق ونريد أن ننهض بعلمنا من جديد في هذه الدنيا ونريد أن يكون دورنا سياديا في بناء المستقبل الجديد. لكن وعلي الجانب الآخر استولت علينا الأمور النزاعية البينية بشكل جعل معه لا مكان لأي مشروع نحو سيادة العالم حيث مجالس العلماء التقليديين ومدارس العلوم الدينية مشغولة ليل نهار في تزيين التاريخ المصطنع وتلميع منهج التأويل النزاعي.

الفصل الثامن عشر

ترزي الجنة

وقت العودة مساء اليوم خرجت إلي الممر الذي يمر من مكان المعسكرات ويو صلك إلي بورل إ ذ كان قد أقيم هناك مخيم كبير من بين المخيمات الصغيرة وكانت أعلام جامعة ليوبليانا التي تحمل شعار الجامعة معلقة هنا وهناك وأمامها علي مكتب الاستقبال كانت تجلس هناك فتاة تقدم كتيبات التعارف والدعاية للناس. وعلي الجانب الآخر من مكتب الاستقبال كان هناك بعض الشباب جالسين علي المنضدة المستديرة. الكل غارق في دنياه فواحد سلك الموبايل متصل بأذنه والآخر مشغول بمكالمة ما. لم أكن قد درجت خطوات حتي رأيت أمامي عبد الحميد وقد كان قادما نحوي وبمجرد أن رآني قال: كيف و صلت حضرتك إلي هنا؟ وما دمت قد جئت إلي هنا فمن الضروري أن تشرف مخيمنا ولو لدقيقتين. إنني سعيد بقدومك هنا ولكن حذار أن تمتنع عن تناول القهوة الكشميرية.

وهل هي أيضا متوفرة هنا؟

رد قائلا: إنه ليس مخيم فحسب بل يتوفر هنا كل شيء. داخل المخيم كانت توجد بعض الكراسي وجاء عبد الحميد بإبريق القهوة والأكواب وقال لي: انتظر من فضلك دقيقة. وذهب إلي الجزء الخلفي من المخيم وأحضر الحاسوب الخاص به وبدأ يقول: إنني أريد أن

أ سمعك نشيدا وهو أحد الأنا شيد المحببة إلي. ربما يعجبك أيضا. لكن الآن بدأ يتضح لي ما هو بين سطور هذا النشيد أكثر من النشيد نفسه. إنه لإحساس جديد لم أكن علي معرفة به من قبل. مع هذه الكلمة ضغط عبد الحميد علي زر الحاسوب والمنشد كان معروفا بالمناقب مشحونا بالحماس والعاطفة ويحظي بالتقدير والاحترام وكان يرفع صوت "يا مهدي" بشكل وكأنه علي يقين تام أن وقت ظهوره قد اقترب. وحينما خف صوت اللحن قليلا عرفت أن الأغنية هي "عندما يأتي المهدي" وهي منقبة الثناء والمدح المعروفة بشأن المهدي المنتظر.

قلت نعم، لا خير لأعداء علي قلتها وأنا مبتسم. لكن عبد الحميد كان في عالم آخر. لم يطرأ عليه أي تغيير في طبعه الرزين. وقال: من فضلك ا سمع بعض الأبيات الأخري. وقام بتشغيل الفيديو الآخر "اللهم عجل لوليك الفرج". وبدأ يرتفع صوته الكئيب وفي الخلفية كان يشاهد موكب في طريق النجف إلي كربلاء حيث كانت طائفة كبيرة من المنشدين والمبتهلين تشدو هذه الأغنية.

وكل من يشك في عدل الله وإنصافه ويشك في منصب النبوة وفي عصمة السيدة وفي نيابة المرتضي لأحمد وكذلك من يشك في الاثني عشر وفي غياب الإمام الثاني عشر سيقتلون جميعا عندما يظهر ويأتي الإمام.

عبد الحميد أغلق الفيديو وقال: إنها منقبة مؤثرة جدا لكن من لا ينتظر القائم. مع هذه الكلمة ذهب بيده اليمني إلي الجبين وبدا وكأنه يريد القيام احتراما وتقديرا وقال: اللهم عجل لوليك الفرج. ثم وبعدما سكت لثوان بدأ يقول: عندما أري هذه المشاهد وأ سمع الألحان والأنا شيد في الظروف التي يمر بها الإ سلام فيبدو لي كأن نار الحرب المذهبية كامنة في هذه السطور. وكان كلام كودرا صحيحا أن التاريخ ببياناته المختلفة قد

قام بتقسيمنا في معسكرات متعارضة. عباس زينب وعمارها يحاربون ويشتبكون مع أعداء أهل البيت في سوريا والعراق ولبنان واليمن.

نعم إنك قد أدركت الحقيقة فإن كانت العين مفتوحة ولو لم يكن القلب والعقل ملبدان بغبار التعصب فلن يستغرق وقت كبير قبل إدراك حقيقة أن الحكايات التاريخية قد جعلت قوة فكرنا وعملنا مشلولة والحال هو في الواقع توسعة للتاريخ المصطنع المسموم ونجد أنفسنا بعد مرور أربعة عشر قرن من الزمان في ميدان كربلاء. والآن وبعد أن أصبحت المبارزة بين الحسينيين واليزيديين الذي يقولون لا إله إلا الله ولذلك تحولت الصراعات بين الحق والباطل جميعها إلي مناقشة جدلية بل سمها مقاتلة ومحاربة. أما أعداء الخارج وبصفة خاصة أولئك الذين اغتصبوا منصب سيادتنا مستغلين حربنا الأهلية فلم تلتفت إليهم أنظارنا ولم يشغلوا أي حيز من اهتمامنا.

إن هذه المناقب والمراثي والأناشيد تقوم في الواقع بإيقاظ التاريخ المسموم. لم أكن مقدرا لهذا مطلقا. ذات مرة وبينما كنت أسمع منقبة من فرقة هاشم وأخواتها ووصلت إلي هذا البيت الذي يقول: "بعض الناس يموتون حزنا علي أن باب هذا البيت ينفتح علي فناء المسجد."

أحسست لثوان أن الأمر قد أخذ منحي آخر لكن فيما بعد لم ألاحظ هذا الشيء علي أساس أنه نوع من الفكاهة والمزاح والإثارة. لكن في هذه الأيام المراثي والنواح الذي يلقي قبولا عاما فيه حدة موجهة إلي المعارضين. أبدي عبد الحميد قلقه من هذا الأسلوب.

في بلاد الشام والعراق يستخدم كل من هاتين الطائفتين الشعر والتنغيم في مناقشاتهما الجدلية فمؤخرا كان قد أصدر حزب الله نشيدا رجزيا بسبب فتحه في بيرود مطلعه "احسم نصرك في بيرود". وفي وقت قصير أصبحت لهذه القصيدة المذهبية الرجزية شهرة واسعة في أوساط

التوا صل الاجتماعي حتي أ صدرت الطائفة السنية علي نفس البحر والوزن مع الرعد والبرق عدة قصائد من نوع الرجز وا شتهر منها أكثر ما ا شتهر هذه القصيدة:

احفر قبرك في بيرو د   احنا اللي بالدم نجو د
حلمك نصرك في بيرو د   أوهامك يا حزب الله
أعدنا لكم الأكفان   بأيدي رجال القلمون
يا حزب الشيطان كفانا   لن نتراجع مهما يكون

الطائفتان تعتقدان كما لو أن الواجب عليهما القضاء علي الأخري والنتيجة أن كثيرا من الناس الذين كانوا مشغولين في أعمالهم قد قفزوا في هذه الحرب التي أ شعلها الشعر واللحن.

هل حد ث هذا أيضا؟

نعم بكل تأكيد قد سمعت ا سم فضل شاكر المطرب المعروف بلبنان. ا ستقيظت حميته السنية بشكل لم يستخدم فنه لخدمة الإ سلام السني فحسب بل خرج مع الشيخ الأ سير ضد أهل التشيع حاملا البندقية.

فهل المطرب الشبابي أيضا قد وقع أيضا في سحر الأنا شيد والنغم؟ أبدي عبد الحميد دهشته وا ستغرابه.

نعم، فحتي المغني لم ينج من جراح النغمة. لكن هذه النغمات وتلك المناقب واللطميات تجعلك متيقظا أيضا وبدونها يخبو المزاج. إنك بالتأكيد سمعت عن المنقبة الشهيرة باللغة الفار سية والتي تقول في مطلعها "علي علي أكبر علي مثل النبي علي علي...الخ"

حينما رأيت عبد الحميد وهو ينشد هذه القصيدة باللغة الفار سية الفصحي ا ستغربت و سألته: هل أنت علي معرفة باللغة الفار سية؟

قال: نعم أفهمها إلي حد ما.

أين درست الفارسية؟

لم أدرسها بانتظام لكنها من نفحات ولادتي في بيت المجتهد.

فهل والدك عالم دين؟

قال: نعم، ربما تكون قد سمعت أيضا اسمه.

ما اسمه؟

قال: الشيخ حسن فولادي.

فوجئت بسماع اسم حسن فولادي فعمامته البيضاء وعيناه المرتعبتان اللتان تطلان من نظارته دارت فجأة في مخيلتي.

حسنا، فأنت نجل الشيخ حسن فولادي. قلت: ما شاء الله واضعا يدي علي منكب عبد الحميد. يا أخي لم لم تخبرني بهذه المعلومة من قبل؟ والآن كانت قد تغيرت المناقشة بالكامل. أين هو في هذه الأيام؟ وكيف هي صحته؟ سألته.

قال: في هذه الأيام هو في زيارة لأوروبا وفي ختام الزيارة سيأتي إن شاء الله إلي ليوبليانا.

حسنا، بلغه سلامي.

بكل تأكيد إن شاء الله سأبلغ السيد الوالد تحياتك. والآن بدأت تظهر ملامح البنوة في أسلوب ولهجة عبد الحميد أكثر من التواضع والعجز. استأذنته وبدأت الصعود علي نفس الممر إذ وصلت إلي البوابة المركزية لكاسيل. كان الجو لطيفا. فكرت لمَ لا أسند للحظات علي الألواح الحجرية كي أتنفس الصعداء وكذلك بدأت أفكر ما هذه الصدفة. بعد عشر سنوات تتسني لي مقابلة نجل الشيخ حسن فولادي لكن كم من التفاوت في الطباع بين الأب وأبيه فعبد الحميد في سن الشباب ومعتدل المزاج وعلي الرغم من أنه مولود في بيت مجتهد إلا أنه لم يرتوي عطشه للبحث وبالإضافة إلي ذلك هو مطلع علي نقد الشعر

والنغم وهو أيضا مهموم بما تمر به الأمة. وأين الشيخ حسن فولادي من هذا الابن الذي يفكر كل لحظة كيف يقوم بتسوية حصن المعارض بالأرض وتذكرت مكتب آية الله السيستاني الموجود في لندن. كان هناك اجتماع مشترك لعلماء الشيعة والسنة وبدأ الكلام علي المظاهر الرائجة والعادات والتقاليد السائدة للمآتم والحداد علي الحسين. قال أحد من المشاركين: هنا في مدينة لندن تظاهرات الحداد بالسلاسل الحديدة لا تعطي انطباعا صائبا عن الإسلام فيجب علي العلماء أن يحاولوا منع تلك التظاهرات.

هنا تحرك الشيخ فولادي علي الفور وقال: هل رأيت عالما يشارك في مثل هذه التظاهرة بمناسبة الحداد بالسلاسل الحديدية؟

لكن لمَ لا تدينونها علي الملأ؟ اعترض شاب سني كان يجلس قريبا منه.

وكان هذا الاعتراض كافيا لإثارة الشيخ حسن حيث بدأ يقول: إن هموم الحسين المظلوم كانت أيضا شديدة لكن لا يمكن لا يمكن فهم المأساة بهذه الشدة لأولئك الذين لم يكونوا جزءا منها. يا أخي إن علاقة هذه الأمور تكمن في الحالة النفسية للمؤمنين.

لكن نحن أيضا من محبي الحسين ونحب أهل البيت. تدخل عالم سني.

قال: من أني لأولئك الذين لا تصح صلاتهم ولا يستقيم صومهم أن يعلموا آلام الحسين بل هؤلاء يعادون طريقة وضوء النبي لله في الله. أني لهم أن يكونوا مطلعين علي غايات وأهداف الدين؟

ماذا تعني بهذا الكلام؟ أراد المسلم السني توضيحا.

قال: إن علماءكم من أهل السنة قد ابتدعوا طريقة للوضوء بأنفسهم بل إنكم ابتدعتم الصلاة التي منعها الرسول (ص) أن تقام بالجماعة. فمنذ

متي تسمعون وتطيعون أوامر الله ورسوله لكي تشعروا بآلام وأحزان الحسين المظلوم. مع إكمال هذه الكلمة ألقي الشيخ فولادي نظرة منتصر علي المجلس وكان تقديره صحيحا إذ كان الناس مجبرين علي حسن الإنصات إليه. والشيخ الحذيفي الذي كان مشغولا إلي الآن في كتابة رسالة علي الهاتف أصبح الآن أيضا يختلس النظر ليري ماذا يحدث من مناقشات. قال: أخبرني أنت هل تُقبل صلاة من لا يتوضأون متعمدين علي الطريقة التي بينها الله ورسوله؟ ما رأيك يا سيدي؟ سأل موجها السؤال للشيخ الحذيفي.

أبدا. رد الشيخ الحذيفي.

فلماذا لا يبين علماء السنة لعامتهم طريقة وضوء النبي (ص).

أخبرني أنت عن أي طريقة نبوية تتحدث؟ أراد الشيخ الحذيفي التوضيح.

قال: ماذا أقول؟ فقد جاء في القرآن الكريم بكل وضوح "فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلي المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلي الكعبين" أي في الوضوء غسلتان ومسحتان.

انظر إن في هذه القضية اختلاف فقهي بين الشيعة والسنة. أراد الشيخ الحذيفي السيطرة علي القضية المثارة هنا.

لا يا أخي ليس هناك اختلاف فقهي بل هناك عناد من علماء أهل السنة وإلا ففي مثل هذا الأمر الواضح لا مكان للاختلاف.

هذه قضية انتشار الضمير. وضح الشيخ الحذيفي. فنحن نقول أن عطف أرجلكم يأتي علي فاغسلوا وبسبب عطف الواو وقع الاختلاف. ثم أن هناك احتمال بدرجة كبيرة أن تكون النجاسة قد تعلقت بالأرجل ولذا نحسب غسلها ضروريا.

لكن كيف يمكن أن يصبح ما لم يوجبه الله سبحانه وتعالي واجبا. ألا يعلم الله أن هناك احتمالا كبيرا بأن تصاب الأرجل بالنجاسة؟ حسنا والآن أخبرني عن انتشار الضمير الذي تحدثت عنه فهل في قواعد النحو العربية أن يلحق الضمير بالأقرب فالأقرب أم من المستحسن أن يلحق بالأبعد فالأبعد. علماء النحو يرجحون الأقرب.

فلماذا تصرون علي غسل الأرجل؟

لا بد وأن ننظر إلي الأحاديث والآثار أيضا. قال الشيخ الحذيفي حينما رأي أن الموضوع قد بدأ يخرج عن سيطرته.

ماذا؟ أنتم تتحدثون عن الأحاديث والآثار؟! ابتسم الشيخ فولادي ابتسامة منتصر. قال: إذن ستفشل في الأحاديث أكثر فهنا نقدم ونؤخر واو العطف لكن هناك لن تجد مكانا لهذا التقديم والتأخير. كتاب ابن ماجة كتاب سني أليس كذلك؟ جاء في هذا الكتاب أن النبي (ص) قال: "إنما لا تتم صلاة لأحد حتي يسبغ الوضوء كما أمره الله تعالي بغسل وجهه ويديه إلي المرفقين ويمسح رأسه ورجليه إلي الكعبين" فماذا تقول في هذا ولا يوجد هنا موضوع انتشار الضمير؟

ابتسم الشيخ فولادي ونظر إلي أهل المجلس نظرة منتصر ثم قال: هيا بنا لأسمعك حديثا آخر كي تنتهي تماما معضلة الضمير. يا أخي لديكم ضمير أليس كذلك؟ فاسمع ما هو مكتوب في أبي الداوود: "إنما لا تتم صلاتكم حتي يسبغ الوضوء كما أمر الله عز وجل فيغسل وجهه ويديه إلي المرفقين ويمسح برأسه ورجليه إلي الكعبين". ونفس الرواية وردت في النسائي والكتب الثلاثة هذه تخص مذهبكم أليس كذلك؟ فلماذا لا تحدثون أتباعكم أن الوضوء الذي أمرنا الله به فيه غسلتان ومسحتان وغسل الرجلين ضد أمر الله سبحانه وتعالي.

كان هذا بشأن الوضوء. وماذا كنت تقول عن الصلاة؟ سأل شاب كان موجودا في المجلس.

ظهرت علي وجه الشيخ الفولادي مرة أخري ابتسامة الفاتح المنتصر وقال: هنا أيضا انتشار الضمائر. إن هؤلاء قد قاموا بخلق بدع لا حول لها ولا قوة.

بدع؟ ماذا تقول؟ إنك لا تطلق علي الحداد وعزاء الحسين بدعة وتتهم الآخرين بخلق البدع؟ اعترض عليه أحد الشباب.

قال: كيف يعترض هؤلاء الذين أحدثوا عبادات مصطنعة في دين الله علي الحداد والنواح ؟

إنك تشير هنا إلي صلاة التراويح أليس كذلك؟ أنا أفهم قصدك جيدا لكن عليك أن ترد أولا بشأن موضوع الحداد. طلب الشيخ الحذيفي.

هناك روايات لأئمة أهل البيت للحداد والبكاء علي الحسين.

فهناك روايات وأحاديث أيضا علي صحة صلاة التراويح.

غير موجودة. هذا ما أقوله. فهي غير واجبة حتي من خلال كتب أهل السنة. بل هناك روايات في البخاري تتحدث عن بطلانها ويوجد وعيد شديد إذ منع الرسول (ص) من أداء صلاة التراويح بالجماعة لأن أداء الصلاة النافلة في جماعة منهي عنها بشدة. لكن منذ متي تؤمنون بأوامر الرسول (ص). لقد جعلتموها وبكل جرأة سنة مؤكدة. هل من العدل أن تتحول البدعة الصريحة إلي سنة مؤكدة؟ اتق الله يا أخي.

ما هو تعريف البدعة عندكم؟ سأل الشيخ الحذيفي.

هو نفس ما عندكم. تعال نتحدث عن ابن تيمية الذي قام بتعريف البدعة في كتاب الاستقامة. يقول: "فمن دان دينا لم يأمر الله ورسوله فهو مبتدع". وفي هذه الآية إشارة إلي هذا الأمر "أولهم شركاء شرعوا

لهم من الدين ما لم يأذن به الله" سورة الشوري آية ۲۱. انظر إلي تعريف ابن تيمية للبدعة بهذه الشدة. مع هذه الكلمة ابتسم الشيخ فولادي ثم قال: والآن أصبح الطريق ضيقا جدا بالنسبة لكم. وقل لي الآن هل الذين ابتدعوا في الدين صلاة التراويح في جماعة مبتدعون أم لا؟ و هل ينزل علي هؤلاء غضب الله أم يستحقون الرحمة؟

لكن التراويح ثابتة عن رسول الله (ص). أصر الشاب الذي كان جالسا بالقرب منه.

ثابتة؟ ابتسم الشيخ فولادي وقال: يا أخي هذه دعاية أهل السنة. فكلمة التراويح لم ترد لا في القرآن ولا في السنة ولم يتحدد إلي يومنا هذا عدد ركعات صلاة التراويح هذه. فواحد يقول هي ثمانية ركعات والآخر يدعي أنها عشرين ركعة والثالث يقول هي ستة وثلاثون ركعة. كل شخص يقول ما يحلو له.

إنني لم أسمع عن ستة وثلاثين ولكن يوجد هناك اختلاف ما بين ثمانية ركعات وعشرين ركعة.

قال: هناك اختلافات أخري فسفيان الثوري وأبو حنيفة بشأن العشرين والإمام مالك يري أن أهل المدينة يؤدون ستة وثلاثين ركعة وجاء في المؤتي أيضا أن الناس كانوا يؤدون في زمن عمر ثلاث وعشرين ركعة. وكتب المروزي بشأن قيام الليل أن الناس كانوا في زمن عمر ابن عبد العزيز يسلمون ثلاثين مرة فبلغ عدد الركعات ستين ركعة لكن عمر ابن عبد العزيز لم يكن يشاركهم.

عمر ابن عبد العزيز يعد من الخلفاء الصالحين الذين كانوا يخافون الله.

قال: هذه هي النكتة فعمر ابن الخطاب لم يصل التراويح أيضا ويقال عنه أنه قام بجمع الناس علي عشرين ركعة. لم يصل لا عمر ولا

عثمان ولا علي صلاة التراويح أما أبوبكر فالحمد لله لم يكن قد حدثت في زمنه هذه البدعة.

إن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قرر أنها أيضا بدعة لكنه قال عنها بدعة حسنة وبهذه المناسبة فالناس علي الأقل يختمون القرآن مرة في رمضان. أراد الشيخ الحذيفي الدفاع عن وجهة نظر أهل السنة.

قال: العمل الصالح مهما يكون حسنا لكن لو كان هذا يعد إضافة للدين يطلق عليه بدعة وهذه أيضا دعاية سنية محضة أن ختم القرآن في الصلاة سنة. فقد جاء في كتاب مشهور للأحناف وهو "الاختيار لتعليل المختار" أن ختم القرآن في رمضان مرة سنة لكن هذه الدعوة باطلة. إنك لا تستطيع تقديم أي حديث أو أثر بهذا الشأن ففي كتب السنة ورد هذا الأمر بكثرة أن ختم القرآن في صلاة التراويح ليس بسنة ومادامت التراويح نفسها ليست بسنة فمن أين تأتي أصلا مسألة ختم القرآن. لقد جاء في المدونة الكبري لمالك ابن أنس بكل وضوح أن ختم القرآن في رمضان ليس بسنة والقرطبي في جامع الأحكام والقرطوشي في كتاب الحوادث والبدع أبدوا نفس الرأي. كل هذه المصادر والمراجع لأهل السنة أليس كذلك؟ الشيخ فولادي ألقي نظرة علي المجلس ثم واصل كلامه قائلا: إن في كتب أهل السنة نفسها شهادات عدة علي بطلان صلاة التراويح لو قرأها أهل السنة بأعين مفتوحة فسيتضح لهم سقم وضعف موقفهم.

يا أخي هذا ما يقال أيضا عن مرويات شيعية فالنقص والتناقض موجودان في كل مكان.

لكن سقم وعيب أحدهم لا يبيح للآخر أن يأتي بنفس العيب. فقد جاء في البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنه (ص) لم يكن يزيد عن إحدي عشرة ركعة بالليل سواء كانت في رمضان أو غير رمضان. وفي

البخاري ومسلم جاء عن زيد ابن ثابت رواية مفصلة في هذا الشأن وهي تحكي أنه كيف كان (ص) قد خصص لنفسه مكانا لأداء الصلوات النافلة إذ حدث ذات ليلة أن رآه الناس يصلي بمفرده فجاءوا وبدأوا يصلون خلفه وحينما حدث نفس الشيء في اليوم التالي لم يعجب الرسول (ص) هذا الفعل. وفي الليلة الثالثة لم يخرج إليهم فرفع الناس أصواتهم وسحبوا الباب فخرج إليهم متجهما وقال: مازال بكم صنيعكم إني خائف أن تفرض عليكم فالأنسب لكم أن تؤدوها في بيوتكم.

إن الصلاة النافلة التي نهي الرسول (ص) عن أدائها في جماعة وطلب أن يؤدوها في البيت فكيف نصر أن نؤديها في جماعة مخالفين أمر رسول الله (ص) ونحسبها سببا للنجاة. يا أخي إن هذا العمل مبعث غضب.

حسنا ولنفرض أن صلاة التراويح بدعة وضلالة. عليك الآن أن تحدثنا وتطربنا بكلامك المهيب بشأن مجالس العزاء والحداد علي آل البيت. قال ذلك الشيخ الحذيفي بعد أن رأي أن مجال المناقشة بدأ يفلت زمامه من بين يديه.

قال: ألك اعتراض علي الحداد علي سيد الشهداء ويشق عليك ذكر مصائب وآلام أهل البيت؟

حاول الشيخ فولادي الهجوم من جديد.

حاشا وكلا. إن سؤالي ينحصر فقط علي أنه مادامت صلاة التراويح بدعة وحضراتكم لا تتحملون أية إضافة جديدة في الدين فإن عادات وتقاليد مجالس العزاء ومسيرات المحرم والضرب علي الصدور والحرق والخروج بالأعلام والشعارات وتكريم ذي الجناح فماذا عن كل هذا وذاك؟ معظم علماء الشيعة يحسبون كل هذه الأعمال مستحبة بدلا

من أن يحسبوها بدعة. ألم تروا حضراتكم آية القرآن الكريم هذه "فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به".

إذن فأنت تحسبها وثنية ولا تري أي فرق بين أوثان المشركين وأعلام العباس. هاجم الشيخ فولادي مرة أخري وبدأ يقول: كيف يكون المسلم غيورا علي دينه وهو لا يحزن قلبه علي شهادة الحسين المظلوم. البكاء و سيلان الدموع علي ذكري شهدائهم عمل طبيعي وفطري تقتضيه المواساة الإنسانية والمحبة.

لا أنكر هذا لكن القرآن قد أعطانا التوجيهات لمثل هذه المناسبات. قال الشيخ الحذيفي: حينما استشهد عم الرسول (ص) سيدنا حمزة مع سبعين من أصحابه لقنه الله الصبر وقال"فاصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم". فإلي يومنا هذا عندما يتوفي عزيز لنا فإننا نقول "إنا لله وإنا إليه راجعون" ونرضي بقضاء الله وقدره وذلك لأننا نؤمن إيمانا كاملا بالوعد القرآني "وبشر الصابرين". ألا تشعرون حضراتكم حقا أنكم باسم الحداد علي الحسين قد ابتدعتم أشياء وقمتم بترويجها حتي تشوه وجه الإسلام الصحيح فيما بعد. إن مجالس العزاء ومسيرات عاشوراء والأربعينيات والشعارات وأشياء كثيرة أخري مما أحدثتم وزيارة قبور الأولياء وهجوم ملايين الناس من النجف حتي كربلاء ووصول الغلو إلي حد أن يحسب الناس أن السير علي الأقدام لمقبرة الحسين سبب لنيل الأجر والثواب بل أن هناك من يذهبون إليه زحفا مثل الصراصير ويحسبون أنهم سينالون الأجر والثواب بعملهم هذا فلو كانت تلك هي صورة الإسلام فليس هذا قطعا هو دين جد الحسين ولربما لا نجد أي نوع من تلك الأشياء في قرابة الثلاث قرون الأولي من الهجرة. فكيف قمتم بإخفاء هذه الانحرافات الغليظة تحت ستار المستحبات؟ لماذا لا تفتحون أفواهكم علي هذه المواقف المنحرفة؟

إن الشيخ فولادي ربما لم يكن مستعدا لمثل هذا الهجوم المفاجيء. قال في لهجة دفاعية: انظر يا أخي هناك بعض الأمور تتحول إلي اتجاهات خاطئة متأثرة بالحماس الشعبي والعواطف الجيا شة. إن العلماء يبذلون ما في و سعهم لمنع ذلك لكن عامة الناس الجهلاء إ ذا لم يستمعوا لكلامهم فما ذا يمكن أن يفعلوا. لا يمكن إطلاق لقب شيعي علي الجاهل.

لو منعتم لكان الأمر مختلفا لأن المانعين يصبحون شا ذين ومنبو ذين. إن آية الله العظمي الأمين حاول منع ضرب الناس لأنفسهم بالسلا سل الحديدية وأ صدر الفتوي ضد هذا العمل الوحشي فما ذا كانت النتيجة؟ الشيعة جميعهم سواء كانوا من العامة أو الخا صة قاموا ضده حتي أن البعض اتهمه بالنا صبية والبعض حسبه مقصرا والبعض الآ خر افتري عليه بأنه وهابي أو بطري فبدأ الهتاف في جمو ع الشيعة "لعنة الله علي الأمين".

قال: عليك أن تعرف أن اللغة التي ا ستخدمها الشيخ محسن الأمين كانت جارحة للغاية وكان كلامه يوحي للناس بفكرة أن نظام الحدا د بأ سره مبني علي الضلالة. عليك أن تنقد الانحرافات لكن غير مقبول أن تنقد الحدا د نفسه لأن له أ سا س شرعي.

أ سا س شرعي؟ أبدي الشيخ الحذيفي دهشته وا ستكمل قائلا: إن هذه الآيات القرآنية التي قرأتها أمامك وأ سوة الر سول (ص) التي قدمتها إليك أليست كلها كافية لإبطال ذلك الحدا د المزعوم السائد لديكم؟

قال: ليس كل شيء في القرآن الكريم حيث يجب النظر أيضا إلي الأ حا ديث والآثار وعند أئمتنا الأطهار حجة أيضا.

عجبا! فلتخبرنا عن الأ دلة الشرعية.

مع سماع هذا الطلب عادت الابتسامة علي وجه الشيخ فولادي. قام بتعديل جلسته كي يعد نفسه للحديث وكأنه قد أوقع فريسته في قبضته.

قال: أول دليل أن أويس القرني قد حزن حزنا شديدا عندما علم بأن اثنتنين من الأسنان الأمامية لرسول الله (ص) قد وقعتا وقام بكسر جميع أسنانه هما وحزنا والدليل الثاني أن السيدة زينب حينما شاهدت رأس الحسين علي أسنة الرمح وقت مغادرة كربلاء شق عليها هذا المشهد وقامت بضرب جبينها بمسمار الهودج حتي بدأ الدم يسيل من علي جبينها والدليل الثالث القاطع هو ما نجده مكتوبا في "الزيارة الناهية" الذي جاء فيه أن الإمام المهدي سيبكي دما علي هذا الحادث.

إذن فهذه هي أدلتك الشرعية. فلتسمع الرد عليها. واقعة أويس القرني هذه مذكورة في السيرة الحلبية للإمام الحلبي وكذلك موجودة في تذكرة الأولياء لفريد الدين عطار وكلاهما عالمان سنيان متصوفان. إن أهل السنة لا يعتبرونهما من المؤرخين لكن لماذا نذهب بعيدا إلي هذا الحد فيكفيكم مرجع الشيخ الصدوق فقد ذُكر في معاني الأخبار أن الإمام الباقر عندما سُئل عما إذا كانت قد كُسرت أيا من أسنان الرسول (ص) قال: لا والله حفظه الله علي الدوام. وذكر الطبرسي عن أبان بن عثمان أن رسول الله (ص) لم تُكسر أيا من أسنانه في غزوة أحد ولم يلجأ إلي أي غار ليصون نفسه. والآن تعال لنعرف حقيقة سيلان الدم من رأس السيدة زينب الذي تستدلون به علي التطبير. عليك أن تعرف أن هذا الحديث مرسل لدي محدثي الشيعة والشيخ عباس القمني الذي ألف أيضا مفاتيح الجنان كتب في مؤلفه الآخر منتهي الآمال بكل وضوح أن هذه الرواية ليست جديرة بالاهتمام بها. والآن بقي بكاء الإمام المهدي بالدم بدلا من الدمع فاعلم يا أخي العزيز أنها محاورة عربية تستخدم لإظهار قوة البيان. هذه هي حقيقة أدلتك الشرعية يا ليتك كنت قد أدركت أنت وأمثالك

الجريمة الشنيعة التي ارتكبتموها بتحويل الدين المحمدي إلي دين حسيني.

الشيخ فولادي بدا وكأنه قد أصيب باضطراب شديد من هذه الجملة. قال: يا أخي إنك لم تسمع أقوال الأئمة الأطهار. فلتسمع أقوال الأئمة الأطهار. يقول الإمام علي في نهج البلاغة: انظروا إلي أهل بيت رسول الله (ص) وسيروا علي هداهم ولن يضلوكم أبدا فإن جلسوا فاجلسوا أنتم أيضا وإن قاموا فلتقوموا أنتم أيضا. لا تسبقوهم ولا تتخلفوا عنهم لأن التخلف مبعث الخسران.

حسنا! فأنت تدرسنا الآن نهج البلاغة.

ولمَ لا؟ لا احتكار لأهل التشيع علي علي. نحن نريكم طريق أهل البيت الأطهار. اعملوا ما عمل الأئمة الأطهار لأهل البيت. لا تسبقوهم خطوة ولا تتخلفوا عنهم بوصة فمنذ عام ٦٠ من الهجرة وحتي ٢٦٠ أي زمن غياب الإمام الثاني عشر عاش خلال تلك المائتي عام تسعة من أئمة أهل البيت لا يمكن أن يُتهم واحد منهم أنه قام بالحداد أو المأتم بالسلاسل الحديدية أو الحرق أو إخراج المسيرات ورفع الأعلام ومثل هذه المراسم الأخري للحداد.

ووقت ذكر الإمام الثاني عشر رفع الشيخ فولادي يده اليمني علي عمامته كأنه يريد القيام احتراما وإجلالا لقدومه ورفع الهتاف "عجل الله فرجه الشريف سلام الله عليه وروحي له الفداء" وظل ينظر إلي الباب الرئيسي للحظات كأنه منتظر فعلا لقدوم القائم. ثم بدأ يقول: انظروا يا أحباب هناك جانب اجتماعي أيضا لمجالس العزاء فقد ظللنا نحيي أحزان الحسين لقرون طوال كي تنتقل إلي الأجيال القادمة الرسالة التي من أجلها قدم سيد الشهداء روحه وأرواح أهل بيته نذرا لله. في كل عام يقف محبو الحسين في مجالس العزاء ويخرجون في مسيرات ضد الظالم أيا

كان ويتعاهدون علي السير علي هذا النهج وهو القيام ضد الظلم وبسبب هذه المجالس والمسيرات والنواح والحداد تبدو شهادة الحسين حية إلي يومنا هذا فهذا في حد ذاته عمل لا مثيل له ولم يستطع أي قوم في الدنيا أن يقدموا مثالا كهذا.

عجبا! البدعة التي لم تستطع أن تقدم دليلا واحدا عليها من الكتاب والسنة ومن أعمال الأئمة الأطهار كيف منحتها الوسام بهذا الشكل بل وأصبحت لديك عملا مستحبا. فبأي وجه تتهم أهل السنة علي أنهم قد اخترعوا صلاة جديدة باسم التراويح فهم أيضا يقولون أن بها قامت طريقة جديدة ورائعة لختم القرآن وربما ما استطاع قوم أبدا أن يفعلوا ذلك.

وبعدما سمع الشيخ فولادي دليل الشيخ الحذيفي هذا أحس بالندم وبدا له وكأن الحساب قد تمت تسويته وقال: فلنترك هذه الأمور وبارك الله فيك.

كم كان علمه حاضرا في ذهنه. والأكبر من ذلك أنه لم يكن ليسمح للنقاش أن يتعدي حد الاعتدال. كان يعرف جيدا فن التليين حينما تحتد المناقشة أو عندما يشعر بالهزيمة. ثم كيف رفع يده علي عمامته وقت ذكر الإمام القائم وكأنه يريد القيام من شدة الأدب. كل هذه الأمور كانت قد جعلته صاحب شخصية مغناطيسية.

قبل أن أخرج في معية الشيخ فولادي إلي مجلس آخر قطع سلسلة ذكرياتي فجأة صوت السلام عليكم إذ رأيت أمامي شخصا في بدلة وعلي أذنيه كوفية وبيده عصا ذهبية. إنه الشيخ سليمان الذي قد قدم إلينا. بدأ يقول: اليوم بعدما وجدت بعض الوقت خرجت للتنزه والعشاء اليوم في المركز الثقافي ببتوي ومازال أمامنا الكثير من الوقت. فإن كنت تحسب الوقت مناسبا فلنشرب فنجانا من القهوة.

الفصل التاسع عشر

كأس الامبراطور جمشيد

علي الجانب الآخر من الحدائق وموصولا بالشارع الرئيسي لكاسيل حيث يوجد المقهي كان اليوم هادئا جدا. وفي الفناء وسط حديقة الزهور كانت توجد بعض الكراسي. وأشعة شمس المساء كانت تصل إلينا من خلال الأشجار الأمامية بحيث لم نكن نحس بحرارة الأفق. بعد التحيات الرسمية عاد الشيخ سليمان إلي لب الموضوع قائلا: عاصفة البارحة لم تسمح لنا أن نكمل حديثنا وإنني لم أستطع إلي الآن حل هذه المعضلة وهي هل من الأفضل أن يكون موقفنا الرفض التام بشأن وحي ما بعد القرآن أم نحن في حاجة إلي الحديث والتفاهم. في هذه الأيام هناك نشاط كبير للبهائيين في ليوبليانا وهناك ديانة مثل الديانة السيخية نجد في كتبها صدي للتراث الإسلامي وآثار المتصوف المسلم بابا فريد جنج فكيف يمكن جمعهم علي أساس كلمة سواء؟

قلت: كلمة سواء مرحلة متقدمة جدا وذلك لأننا لم نستطع إلي الآن الوصول إلي اتفاق بشأن بناء البيت الإسلامي من جديد لأننا ما لم نصبح منظمين ومتحدين كأمة فأني لنا أن ندعو الآخرين أن يجتمعوا علي كلمة سواء؟

قال: إن هذا العمل شاق جدا وهو الذي جعلني أعيش في المنفي بعيدا عن وطني بآلاف الأميال فمنطقة جبل النصيري حيث قضيت طفولتي

ومجالس رجال الدين حيث بدأ شعوري ينمو ويترعرع ومنطقة اللاذقية حيث مشيت وتجولت ومقاهي بيروت حيث تطور فكري نوعا ما فمازلت أشعر بالحنين وبأنه تربطني علاقات رومانسية مع كل تلك المناطق لكن الذهاب إليها الآن أصبح محفوفا بالمخاطر.

كان حزن الشيخ سليمان باديا علي وجهه وواضحا كل الوضوح من حديثه.

قلت: إنك من أسرة رجال الدين فما هو الدور الذي تستطيع أن تؤديه لتخفيف وتقليل التنافر بين العلويين والسنيين في الوقت الحالي بسوريا.

قال: القضية ليست سهلة لهذا الحد. العلويون يريدون الخروج من قالبهم لكن الصعوبة تكمن في قرارهم فهل يتوجب عليهم أن يذهبوا إلي السنة أم يلجأوا إلي قالب الاثني عشرية. الفريقان يحاولان سحب هؤلاء إليهما. السنة يريدون جعلهم سنيين و شيعة إيران نظرا لموقعهم الجغرافي يريدون أن يقع هؤلاء في شبكتهم فتارة تأتي الفتوي من أهل السنة أن العلويون مسلمون وتارة أخري نري أن أهل الاثني عشرية يصدقون علي إيمانهم.

قلت مبتسما: إن هذا الأمر لطيف جدا فالذي يوثق إيمانه من الشيعة والسنة معا كم يكون إيمانه قويا و ذو جودة عالية.

قال: إن قضية قبائلنا معقدة جدا فاليوم الجميع يقررون أننا مسلمون لكن في عام ١٩٢٠م وقبل مجيء الاستعمار الفرنسي لم يكن مسموحا لنا بأن نسمي أنفسنا بالعلويين ففي العهد العثماني أي قرابة أربعمائة واثنتي عشرة سنة لم يكن لنا الحق أن نطلق علي أنفسنا علويين. كنا نتهم بالنصيرية وفي عام ١٩٣٦م وهو وقت تحرير واستقلال بلاد الشام أصرت القبائل العلوية وكذلك قرر شيوخهم أنهم مسلمون ووثقها مفتي فلسطين

السني الحاج أمين الحسيني بفتواه. وعلي الجانب الآخر بدأ التفكير في أوساط الشيعة بأنه كيف يمكن لنا أن نتحول إلي الشيعة الاثني عشرية. في عام ١٩٨٤م التحق بعض الطلاب العلويين بحوزة النجف وفي عام ١٩٥٦م بدأ السعي من جانب آية الله محمد حسين بروجردي في جعل شبابنا علماء للاثني عشرية وكذلك في نفس العام أي في عام ١٩٥٦م وصل بعض شيوخ الأزهر إلي منطقتنا وتم إلحاق بعض طلابنا بمدارس أهل السنة للحصول علي التعليم والتربية. ووسط هذا الشد والجذب أصبح صعبا علي العلويين أن يقرروا فيما بينهم أي جماعة تصلح لهم وتحافظ علي مصالحهم السياسية والدينية.

والآن إلي أي مرحلة قد وصلت هذه المهمة؟ أردت معرفة ذلك من الشيخ سليمان

قال: إن الأمر الآن بيد بعض المتطرفين والمتشددين والناس ليسوا علي استعداد لإعمال عقولهم فإنهم يخافون من ناحية من السكان السنة ومن ناحية أخري لا يعتقدون أن شيعة إيران ملاذ لهم لتحقيق أمانيهم وآمالهم. ومن المحتمل أن يكون هناك أطروحة ثالثة وهي التي أعمل من أجلها منذ فترة وإن لم تظهر بعد آثار قبولها.

وما هو ذلك الخيار؟ سألته.

قال: هو أنه ينبغي علي العلويين أن يخرجوا من القالب الذي ظلوا يعيشون فيه منذ قرون ويبحثوا لأنفسهم عن دور علي منصة الأمة الإسلامية.

هذا شيء طيب لكن لمَ لم يحدث أي تقدم؟ قال: من أين يأتي التقدم فالخيار الثالث غائب فالبعض يريد جعل العلويين شيعة والبعض الآخر يريدهم أن يتحولوا سنة لكن لا يوجد أحد مستعد لقبولهم كمسلمين وخلافي مع رجال الدين علي هذا الأمر وهو أنهم يحسبون

هذين الخيارين استراتيجيين لأن تاريخنا قد شهد من قبل مثل هذه الظروف لكنهم يحسبون الإصلاح النظري خطرا عليهم فهم يخافون من أن البعد عن كتب القدماء والتفسيرات والتأويلات التقليدية سيكون سببا في فقدان هويتهم. لكن في السنوات الماضية أي ما بين خمسة عشر وعشرين سنة بدأ المثقفون الجدد ينظرون إلي وجهة النظر هذه بتقدير واحترام وهي أن نقدم القرآن الكريم فقط كمحور ومركز نظرياتنا بدلا من أن ننضم إلي طائفة الشيعة أو طائفة السنة لكن أصحاب هذا الفكر يتواجدون في بلاد بعيدة خارج سوريا وهم غير حاصلين علي تأييد رجال الدين.

لكن لماذا اخترت هذا الطريق الصعب؟ فالشعب الذي يكون مؤيدا من السنة والشيعة والكل علي استعداد لتكريمه يجب عليهم في هذه الحالة أن يستفيدوا ويستغلوا هذه الفرصة.

قال: إلي يومنا هذا قيادتنا التقليدية ملتزمة بهذه الاستراتيجية والنتيجة أن العبث بنظرياتنا قد بدأ يزداد بدلا من النقص. فأثناء إقامتي في بيروت ثم وقت الاستفادة من أهل العلم في القاهرة كان الفكر الذي يسيطر علي ذهني وعقلي هو أن الفرقة العلوية جعلت لنفسها الأسبقية مستعينة بالجيش والحكومة فيا ليتها انطلقت أيضا نحو طريق الإصلاح والتطهير في حياتها النظرية والدينية فستخرج أيضا منتصرة من حصار المخاصمة الطائفية النفسية. وإنني حاولت جاهدا البحث عن طريق جيد لهم.

ففي هذه الحالة كان الانتخاب من بين هاتين الطائفتين عملية سهلة وبصفة خاصة أن الشيعة الاثني عشرية كانت متسقة مع قالبك النظري.

نعم، في البداية كان هذا هو رأيي أيضا وخلال إقامتي في بيروت والقاهرة ظللت أقابل العلماء الكبار لهاتين الطائفتين وكذلك درست

كتبهما باستيعاب وكلما تمعنت في الدراسة زاد يقيني وإيماني بأن دمج العلويين في إحدي هاتين الطائفتين يكون ظلما واعتداء عليهم. والآن حالي كمن نزل من السماء وتعلق بنخلة.

ماذا تقصد؟ هل تؤمن حقا أن الحق غير موجود فيهما؟

قال: للأسف الشديد هذه هي الحقيقة.

سألت: إن الرجوع إلي سيدنا علي نقطة اتصال بين الشيعة الاثني عشرية والعلويين فلمَ لم تطرق هذا الباب أثناء بحثك عن حل؟

قال: لم أكتف بالطرق علي الباب بل يمكنك أن تقول أنني عدت من هناك بعد الدخول عليهم فعلي لدي العلويين يحمل درجة الألوهية. في البداية فكرت أن النجاة ستكون في الابتعاد عن الغلو بعد الدخول في الاثني عشرية لكن حينما درست المصادر والمراجع الشيعية بعمق فواجهت بعض القلاقل والعوائق في الطريق.

وما هي؟

إن أخطر ما لديهم أنهم قد غالوا غلوا كبيرا في تحديد مدارج ومراتب الأئمة وجعلوهم ندا للنبي. إن هؤلاء يؤمنون أن الملائكة تتنزل عليهم كما كانت تتنزل علي الأنبياء وهكذا قد خالفوا ختم النبوة من وراء ستار الإمامة. يقول الشيخ مفيد: إن الأئمة يتم إلهامهم وتنزل عليهم الملائكة وهم منصوصون من الله. هم مثل الأنبياء من كل النواحي لكن لا نستطيع أن نسميهم أنبياء.

ولهذا السبب أقوال الأئمة لدي الاثني عشرية حجة مثل الأقوال الثابتة لرسول الله (ص) أو آيات القرآن الكريم. والنتيجة أن حياة أهل التشيع تدور حول أقوال الأئمة مثلما فقهاء أهل السنة دائما ما تجدهم باحثين عن أقوال الشيوخ والسلف.

لدي أهل السنة تستطيع أن ترفض أقوال الشيوخ والكبار. وما دام أئمتهم الأربعة لا يوحي لهم ففي هذه الحالة ليس بواجب اتباعهم.

علي تعليقي هذا ابتسم الشيخ سليمان وقال: لعلك تدافع عن موقف أهل السنة وواقع الأمر ليس كذلك. أولا لا وجود للسنية المحضة فعقائد أهل التشيع وفضائل الخمسة والتصور المصطنع لأهل البيت الفاطمي كل هذا وذاك أصبح جزءا من أهل السنة ولا نستطيع فصله. ففي البخاري مهما يقول الحديث المروي عن رسول الله فهو أصح كتاب بعد كتاب الله لكن العمل يكون حسب قول أبي حنيفة. فكما يتحرك الأئمة الاثني عشر عن طريق الآلة الدينية للشيعة كذلك بدون الأئمة السنة الأربعة لن تتقدم حياة السنة الدينية إلي الأمام ولو لبوصة واحدة.

في رأيي أن هذه المقارنة غير عادلة فهؤلاء هم الأئمة الفقهاء أما أولئك فهم الأئمة المنصوصون من الله.

قال: سم ما شئت أن تسميه فالواقع أن السنة والشيعة كلاهما يضعان حراسة شديدة علي الأئمة فواحدة تحسبهم منصوصين والأخري لأسباب ما لا تستطيع أن تطلق عليهم منصوصين ولكن الأمر الواقع هو أنه سواء كان الإسلام شيعيا أو سنيا فكلاهما نتجا وجاءا إلي حيز الوجود بسبب انحرافهما عن الأصل لأن أساسهما في التاريخ بدلا من أن يكون الأساس هو الوحي الرباني.

كيف تستطيع أن تقول هذا؟

بناء علي الشواهد المتفقة والتي لا يمكن بأي حال من الأحوال رفضها. خذ علي سبيل المثال الإسلام السني الذي ظهر أولا ردا علي الشيعة العباسية وكانت بدايتها الهتاف "الرضا من آل محمد" وتصور الفقهاء الأربعة تم تنقيحه في عصر المتوكل وأقيمت الأرائك للفقهاء الأربعة في عصر الملك الظاهر بيبرس. ووثق المصليات الأربعة الفقهية

أشرف الملوك من الجركسية ومعظم كتب الحديث لأهل السنة تم تدوينها في القرنين الثالث والرابع من الهجرة والتصور التقديسي للصحاح الستة وضعه ابن طاهر القيسراني في أواخر القرن الخامس من الهجرة. هذا هو الحال بشيء من التفاوت للإسلام الشيعي الاثني عشري وكذلك تجد الفرق الأخري المنتسبة إلي الإسلام.

لكن دعوي أهل التشيع أن إسلامهم جاء مباشرة من عترة أهل البيت ولديهم تسلسل منظم للأئمة الاثني عشر؟

قال: إن الشيعة الاثني عشرية هي نتاج تاريخي محض. لماذا تذهب بعيدا فانظر إلي المصادر الشيعية حيث لم يكن هناك أي تصور للأئمة الاثني عشر قبل وفاة الحسن العسكري فالكتاب طرق الشيعة للنبختي وكتاب القمي "كتاب المقالات والفرق" تم تصنيفهما بعد غياب الإمام بنحو خمسة وعشرين عاما ولا نجد فيهما أي نوع من التصور للغيبة الكبري والغيبة الصغري ولا نجد أيضا أي نوع من الإشارة أن عدد الأئمة بعد الاثني عشر لن يزيد أو يتقدم. وتحديد الأئمة باثني عشر قد تم من خلال روايات كليني(ت٣٢٩ه) وابن بابويه(ت٣٨١ه) والشيخ المفيد (ت٤١٣ه) وهذه الروايات قد رواها هؤلاء سماعا ففي البداية كان الاعتقاد أن الإمام الثاني عشر سيظهر من وراء الستار لكن حينما طال هذا الغياب وضعت عقيدة الغيبة الصغري والكبري وهناك أمر آخر لا بد وأن يلاحظ جيدا وهو أنه جاء ذكر مدينة سامراء من بين هذه الروايات علي لسان المهدي وهذه المدينة هي التي ولد فيها هذا الراوي. والنكتة الطريفة أن مدينتي بغداد وسامراء قد أقيمتا في العصر العباسي وقبل جعفر الصادق لم يكن الأئمة علي أدني علم بهذه الأسماء.

قلت: نعم مثل هذه الأمور توجد أيضا في الروايات الخاصة بأهل السنة؟

ما ذا؟ قالها با ستغراب.

قلت له أن في المصا در السنية توجد رواية مشهورة قيل فيها أن الله سيبعث علي رأس كل مائة سنة في هذه الأمة من يجد د لها دينها فعلي أساس هذا الحديث قام العلماء بوضع وترتيب فهارس لمجد ديهم المحببين إليهم لكن المصيبة أن تصور القرن الهجري لم يكن له وجو د في عهد الرسول (ص) وتم وضع التقويم الهجري في عهد عمر ابن الخطاب رضي الله عنه.

فأي نوع من التوجيه يقدمه علماء السنة بشأن هذه الروايات؟ سألني.

نفس ما يقدمه علماء الشيعة.

أي؟

السكوت التام المقدس ففي هذا الأمر يظهر هناك شبه اتفاق تام بين الاثنين. أي شيء لا يوزن بميزان العقل والوحي بالتمام والكمال فبدلا من الرفض علي الملأ يتم اختيار الصمت التام أو تقديم أي تفسير فاتر للعقل بشرط أن يكون منمقا جميلا كي يبقي أساس الفرقة مصونا.

نعم كلامك صحيح. إنني و صلت أيضا لنفس النتيجة بعد تفكير وتعمق طويل أن الطائفتين أسيرتان لآراء الرجال والاثنان قد انقطعت صلتهما بتجليات الوحي.

فما الخيار الذي يتبقي لديك في هذه الحالة؟ سألته.

قال: لا أكثر من أن نكون بعيدين عن هاتين الهويتين المصطنعتين. لكن هذا الأمر ليس سهلا ففي الماضي أصبح الذين حاولوا اتقاء شرهما سببا في خلق هوية ثالثة.

ما ذا تقصد؟ أر دت التوضيح.

قال: انظر، إن حل القضية هو أن يتم تفكيك هذا التقسيم السني الشيعي وتتم محاكمة هذه الفرق بكل جرأة وحسم في ضوء الوحي والعقل. لكن هذا الأمر ليس يسيرا ولذلك فإن ما يحدث هو أن رفع الصوت الداعي للتجديد والإصلاح يتسبب في تشكيل طائفة جديدة. فالحركة اليابية في إيران والحركة القاديانية في الهند من قبيل هذه المحاولات فهذا العمل بدلا من أن يحل القضية يجعلها معقدة أكثر من ذي قبل.

لكن هذه الفرق نحسبها خارجة عن دائرة الإسلام.

فليحسب من يريد أن يحسب فما فائدة فهمنا وفهمك؟ مثل هذه القرارات والفتاوي لا تساعد في حل القضية ثم كيف تستطيع إخراج أحد من حظيرة الإسلام؟

لمَ لا؟ فالقضية القاديانية عليها إجماع العالم الإسلامي. ولقد وافق مجلس الشعب الباكستاني علي هذا القرار بالأغلبية.

ابتسم الشيخ سليمان علي تعليقي هذا وقال: يا أخي من الذي أعطي الحق لمجلس شعب بلد ما بأن يحكم في تكفير أو إسلام أحد ثم أن أعضاء مجلس الشعب الوطني لأي بلد يتكون من الساسة الذين لا يعرفون شيئا عن غايات وأهداف الدين.

لكن في هذه القضية هناك فتاوي أخري صادرة من رابطة العالم الإسلامي والعلماء الآخرين. وفي جنوب إفريقيا هذه القضية أيضا مرفوعة في المحكمة.

قال: يا أخي كل هذه أمور سياسية. أنا نفسي قادم من الفرقة النصيرية العلوية. إنني أعرف جيدا كيف أن السياسة المحلية تضيق الخناق عليك باسم الدين فالنصيريون والدروز وأهل الحق كل هؤلاء تم تكفيرهم منذ مدة بإجماع علماء الشيعة والسنة لكن كلما يتم فرش بساط

جديد للسياسة فعلماء السنة والشيعة كلاهما بلا استثناء يبدآن بإدلاء الشهادة علي إيماننا.

لكنني عاجز عن الفهم بأنه مادام لا يوجد لديك أي نوع من الاهتمام بالهوية الشيعية أو السنية ولا ترغب حتي في الالتفات إليهما فكيف يوجد لديك جانب لين لهذه الفرق المنحرفة مثل البهائيين والقاديانيين؟

لا تسميه لينا بل هو النصح بالمعروف. إن طريقة التكفير هذه جعلت الأمة الإسلامية منذ قرون مصابة بلعنة التقسيم ففريق يعد كافرا لدي الآخر وعدو للإسلام ولذا يجب قتله أيضا غير أن كل هؤلاء جزء من نفس المهمة التي كان قد بدأها رسول الله (ص). قافلة أتباع محمد (ص) هذه قد سارت في جهات أخري في مختلف العصور والأزمنة فالبعض سمي شيعيا والبعض الآخر سنيا والثالث إباضيا والرابع اسماعيليا والخامس نصيريا والسادس درزيا وهلم جرا. واختار واحد هويته بهائيا واختار الآخر أن يكون قاديانيا فإن أردنا جمع هؤلاء جميعا علي كلمة سواء مرة أخري فعلينا أن نترك طريقة تكفير وتضليل جميع الفرق والطوائف لأهل القبلة ونحاسب انحرافاتنا بشكل جدي ولا ننسي أن أصلنا واحد وكتاب الله وشخص رسول الله (ص) رأس مالنا المشترك.

فماذا ينبغي أو يجب أن يكون في هذه الحالة؟ هل لديك أي خطة أو أطروحة؟

أردت الإطلال علي ذهن وعقل الشيخ سليمان لكن وقبل أن يقوم بأي رد رأينا أن علي كودرا قادم إلينا. واليوم كانت بيده حقيبة جلدية جميلة بدلا من الأخري الرثة وبيده الأخري حاسوب نقال وتكسو البشاشة وجهه وكانت تعطينا انطباعا أنه قادم بعد إنجاز مهمة كبيرة.

ما شاء الله! شيخ الطائفة أيضا موجو د هنا. قالها بعد التحية والسلام ناظرا إلي الشيخ سليمان.

هل كل شيء علي ما يرام؟ ومن أين أنت قا دم؟ سألته.

قال: يا أخي بعد مرور عشرة أيام من فقدان أمتعتي وجدتها اليوم. أحضرها ظهر اليوم مسئول الخطوط الجوية.

حسنا. فأمتعتك كانت قد فُقدت؟ أتوقع أنك قد عانيت كثيرا.

قال: ليس كثيرا. والآن عرفت أن الإنسان يستطيع أن يعيش بدون أمتعة. فهذه اللوازم التي يتعلق بها الإنسان غير ضرورية وإن كان الإحساس باحتياج الحاسوب شديدا. قال ذلك كودرا.

نعم، إنك قد عدت بسبب الحا سوب من الغابة لأنك لا تجد هنا الإ شارة.

نعم، ما ذا أقول؟ لا أجد هنا الإ شارة ولا أجد هناك القلب. فلو نظرنا إليه فهو جهاز صغير لكنه ليس بأقل من المعجزة. علي كل حال دعك من هذا الموضوع وا ستمر في الحديث فإن الشيخ سليمان إنسان عميق جدا.

معني ذلك أنكما علي معرفة سابقة ببعضكما البعض؟

ابتسم علي كودرا علي سؤالي هذا وقال: ليس من مدة فحسب ولكن منذ الأزل. ففي أسفارنا العلمية شيء من التشابه فالشيخ سليمان قد خرج من وسط غلاة الشيعة وطفولتي انقضت في بيئة الإسلام النقشبندية السنية وإن كنا قد نلنا شرف التتلمذ علي يد السيد عزت بيغوفيتش.

ما شاء الله! إنه لأمر في غاية الروعة. إذن ربما تكون متفقا مع المشروع الذي وضعه الشيخ سليمان لإحياء الأمة من جديد والذي يعمل منذ مدة في ضوئه.

بسماع هذه الكلمة تغير لون وجه كودرا فجأة وقال: إنك تتحدث عن التفاهم بين الشيعة والسنة أليس كذلك؟

إنه أمر مستحيل بل إنه ضرب من الجنون. فهؤلاء لم يسمحوا لنا بالنهوض مرة أخري فأهل السنة لن يتركوا سنيتهم أهل التشيع لن يخرجوا من داخل غلافهم. ما الذي لم يفعله "ديدو"؟ فهذا هو ما كان يريده بأن تضيء شمعة للإسلام الخالص في شكل وهيئة البوسنة في قلب أوروبا بعينها لكنه لم يستطع الحصول علي التأييد والنصرة من بليونين من السكان المسلمين وأكثر من خمسين دولة إسلامية وجميع من وصلوا إلي هناك بالمال والعتاد إما أنهم كانوا يريدون جعلها معملا للإسلام السني أو تحويلها إلي إمارة للإسلام الشيعي وكانت النتيجة أن حلم البوسنة قد أصابه الكسوف.

يا سليمان! كم كان عظيما ديدو. إن الله كان قد منحه قلبا خاشعا لكن الحكام المسلمين الطائفيين وضيقي الأفق من العلماء لم يعرفوا قدره. مع هذه الكلمة دمعت عينا كودرا.

ورأيت أيضا أن الشيخ سليمان قد دمعت عيناه علي ذكر ديدو وقام بالسيطرة علي نفسه ثم قال: يا كودرا إن الظروف الآن قد تغيرت عن ذي قبل فهذا البحر الزاخر بالمعلومات الذي تتجول به ككأس الامبراطور جمشيد قد أضاء الدنيا الجديدة للإنترنت بإمكانيات جديدة. والآن لم يعد بأيدي الحكام وضع حراسة علي أية مناقشة علمية وليس بإمكان العلماء الطائفيين أن يدوسوا بأقدامهم أي مفاوضات بالقيل والقال وذهبت الأيام التي كانت الفرق تخفي كتبها المتنازع عليها. والآن قد ظهرت جليا دنيا جديدة للنقاش والمحاسبة والمحاكمة الحقة. لو كان السيد ديدو اليوم علي قيد الحياة لكان هذا الجهاز الصغير قد عاونه كثيرا

ولعرفت الدنيا كيف كان يريد إضاءة شمعة الإسلام المتحد في إمارة البوسنة الصغيرة.

خرج من فم كودرا: يا سليمان إن كلامك صحيح. ليتغمد الله السيد ديدو برحمته.

والآن لم يكن في معارضة كودرا الشدة التي كانت تسود من قبل. قال: وهناك جانب آخر وهو الجانب المقلق فالعلماء الطائفيين للجانبين الذين يريدون تدمير الآخر يتبارزون ويتعاركون فيما بينهم علي اليوتيوب وتجارة النفور تزداد باستمرار ودعوات اللعن والطعن ضد الآخر مستمرة وفتاوي التكفير والتضليل والمخاصمة والمنازعة تزداد يوما بعد يوم. كل هذا علي اليوتيوب.

نعم، إنه تحد كبير. لكن الجانب الجيد من القضية أن الجيل الجديد لا يؤمن بهذه البيانات الصادمة الصادرة من جانب واحد بل هو يتحري الحقائق بنفسه. قبل فترة ليست بالكبيرة وبالتحديد قبل خمس سنوات بدأتُ حملة للتفاهم البيني ورأيت عددا كبيرا من الشباب من العرب والعجم وفي أوروبا وأمريكا تواق للخروج من الطائفية الضيقة ومستعد لترك البيئة المنفرة. الحكومات قلقة والأوساط التقليدية للعلماء متوجسة لأن الجيل الجديد سائر علي درب المعلومات بدون إيماء وإشارة منه والثلج قد بدأ في الذوبان ولم يعد بإمكان أحد وقف هذه العملية.

كادت الشمس تغرب والسحب الداكنة كانت قد ارتدت القباء الذهبي في سماء بوريل ووراء الأشجار علي مسافة كبيرة كانت أمواج من الأشعة الذهبية تتموج علي هذا الجانب من نهر دراوا. جمال ولطافة غروب الشمس في بوريل إما أن تشاهده من حديقة الحصن أو من نافذة غرفتي هذه التي تفتح علي هذا الجانب. يمكنك أن تستمتع بهذه الحالة

المنعشة التي لا يمكن و صفها بالكلمات. وهذه الحالة تستمر لمدة لا تزيد عن عشرين أو خمس وعشرين دقيقة.

قمت بتوديع علي كودرا والشيخ سليمان وتوجهت إلي غرفتي وفكرت أن مساء غد هو موعد المغادرة ولا أدري هل سيقدر لي رؤية هذا المنظر الخلاب مرة أخري أم لا.

اليوم ووقت الذهاب إلي سريري للنوم تذكرت عبد الوهاب أفندي مرة أخري فالكتب المتنازع عليها التي نجت من الغرق في نهر دجلة وقت سقوط بغداد ولم يستطع تدخل عطا ملك جويني من ضياع هذه الكتب في قلعة الموت وكذلك الكتب المُضللة لم يستطع هجوم الغزنوي من تدميرها فكيف تشعل هذه المواد المسمومة منذ قرون الحرب الأهلية بين المسلمين. يقول الأفندي أنه لو تم كتابة وضبط البيانات الضالة والمضللة مرة فلن يتاح لها التعاقب لقرون عديدة. مسلمو العهد الأول كانوا علي معرفة بهذا النوع من الكتب ولعل هذا هو السبب أنهم لم يكونوا معترفين بضبط وكتابة الروايات والوضع الآن أن الخطب الرنانة والكلام المعجز للعلماء والوعاظ بدأ أيضا يوضع علي اليوتيوب. والفيديوهات مع البيانات التاريخية ولا ندري ماذا ستأتي بنا الأيام القادمة. إن الشيخ سليمان لديه أمل كبير في أن الجيل الجديد سيجمع من خلال هذا البحر الزاخر بالمعلومات اللآليء والمرجان فإن حدث هذا علي أرض الواقع فعلي الرغم من الدعاوي الكثيرة ضد الشيعة سيعرف شباب أهل السنة أن أهل التشيع أيضا جزء من نفس الرسالة النبوية وإن كان يوجد لدي الشيعة حب زائد لأهل البيت فإن أجهزة الانترنت سيخبرهم بكل يسر أن هناك عددا من الأحاديث والروايات في كتب الأحاديث الخاصة بأهل السنة والتي تقوم بدعم موقف الشيعة. بل يمكنك أن تقول أنه لو لم يتم الاعتماد علي رواة الشيعة فلا يمكن أن

تتقدم إلي الأمام عربة محدثي أهل السنة. وليست السنية بأنواعها بمنأي عن التدخل الشيعي ثم أن هناك احتمال كبير علي أن يدرك شباب أهل التشيع الحقيقة وهي أن الكتب الأربعة ونهج البلاغة وكتب التفسير والتأويل الشيعية توجد فيها أقوال كثيرة منسوبة إلي سيدنا علي والأئمة الآخرين مثل الإمام الباقر والإمام جعفر والتي تشهد بوضوح أن علاقة طيبة كانت موجودة لعلي مع الشيخين وكبار الصحابة رضي الله عنهم وكذلك كانت هناك قرابة جيدة بين الأسر الها شمية والأموية.

الفصل العشرين

ليس بعد الآن

علي مائدة الإفطار في الصباح قابلت السيد فالح. قال لي: اليوم افتتاح المعرض الفني وقد انشغلت بالأمور الفنية بشكل لم أفرغ منه إلا قبل قليل. بعض المصورين والفنانين المشهورين من الشرق الأوسط سيشاركون في هذا المعرض وموضوعه الرئيسي هو الفن الاحتجاجي وهناك ستجد بعض النماذج للوحاتي فلا بد وأن تحضر حضرتك لمشاهدة هذا المعرض.

وصلت إلي المعرض في الوقت المحدد وكنت متشوقا إلي حد كبير لأن أري لوحات ورسم السيد فالح الذي يشكو باستمرار أن لوحاته تفقد الابتسامة في اللحظة الأخيرة. علي باب الاستقبال قابلت السيدة مارلين التي كانت اليوم مشغولة بشكل كبير. كانت تعلق الكاميرا علي رقبتها وفي إحدي يديها مفكرة وبالأخري كانت تحمل قلما وكان حولها ثلاث أو أربع فتيات وقد كانت تشرح لهن بعض الأمور الإدارية. بمجرد أن شاهدتني رفعت صوتها وبعد السلام والتحية بدأت تقول: معذرة لقد انشغلت في تنظيم هذا المعرض بشكل لم يمنحني فرصة حتي لكي أرفع رأسي. تفضل لكي أشرح لك ما في المعرض. من أين أبدأ؟ قلت: حيثما توجد نماذج للفن البوسني فلنذهب هناك أولا.

قالت: نعم نعم فهناك ستجد أيضا بعض لوحاتي.

أنت ترسمين أيضا؟ وتصورين؟ سألتها باستعجاب.

قالت: نعم. بدأت رسوماتي في معسكرات اللاجئين بالبوسنة ثم بدأت تلك الهواية في التطور مع مرور الأيام فكلما وجدت الفرصة عبرت عما يختلج بقلبي من خلال الألوان. ربما لن تجد رسومي و صوري من الناحية الفنية علي مستوي عال ولكنها تقدم الحلول.

في جناح البوسنة من المعرض كان يوجد السيد فالح وكانت هناك حوالي ست لوحات تدور جميعها حول الابتسامة. كانت منها لوحة لوجه طفل بريء بابتسامة ذابلة. وفي لوحة أخري كانت هناك صورة لوجه يحمل بثرا لكن لم يكن هذا البثر بسبب الابتسامة الرومانية بل كانت علامة لرصاص البندقية وكانت غير قابلة لأن تندمل. سألته هل يرسم الابتسامة المنطفئة والوجه الذي ذبل والحلم الذي لا يمكن تحقيقه عمدا أم أن السبب فني يكمن في عدم قدرته علي ضبط أو تعديل الابتسامة.

قال: ربما هناك كرب فشلت في السيطرة عليه. في بداية الأمر يكون كل شيء علي ما يرام لكن لا أدري متي وفي أي لحظة تأخذ قوة غير مرئية الفرشاة من يدي وتجعلها تحت سيطرتها ولا يبقي لي أي نوع من التحكم فيها. وقريبا من جناح البوسنة كان هناك جناح لوحات الفنانين السوريين. ففي لوحة لتمام عزام كانت هناك عمارة سكنية مدمرة ومخدوشة بشكل كامل بسبب الرصاصات والانفجارات و صورة أخري لعمارة شاهقة كانت عاجزة عن ستر أهلها والحفاظ علي خصوصيتهم بسبب انهيار الجدران في كل مكان. وفي لوحة ثالثة للفنانة "سارة شمعة" كانت صورة شاب معلق بالسقف يعذب في ملابس غير ساترة بشكل كامل وفي هذه اللحظات الحرجة للتعذيب كان مصرا علي رفع يديه للدعوة للثورة الجديدة. ولوحة أخري لفنان آخر ربما كان اسمه

الأخير مراد تقدم صورة مشوهة لفتاة لم تكن تملك يدين لترفعهما للدعاء.

كل هذه اللوحات كانت حديثة العهد للاحتجاج علي الحرب الأهلية الدائرة في سوريا. وفي جانب آخر كانت معلقة لوحات رسمها الأطفال السوريين الأبرياء الذين يعيشون أيام العجز والحرمان في معسكرات المهاجرين بلبنان وتركيا. ففي لوحة ما كان فيها العلم الأسود لتنظيم داعش وفي الخلفية ينظر طفل بريء باستغراب إلي الكتابة التي توجد علي الجدار والتي تشير غالبا إلي التنظيم آنف الذكر والكتابة هي: أيها الناس لا تقرؤوا كتابي كمجموعة بلا روح وهي كلمات موجهة فقط إليكم. وفي صورة أخري كانت الكتابة التالية علي سور قديم "أجاك الدور يا دكتور". في بعض الأوقات تكون الكلمات مليئة بالبارود. يحكي الناس أن هذه الجملة "أجاك الدور يا دكتور" هي التي حولت الحالة المستقرة في بلاد الشام إلي حادث غير مجري الحياة تماما.

هل تعلم يا سيدي من مبدع هذه الجملة؟

ولد ذو أربعة عشر ربيعا كان قد كتب هذه الجملة علي سور مدرسته في وسط شهر فبراير لعام ٢٠١١م وفي صباح اليوم التالي تدفق جمهور كبير لمشاهدة هذا السور. قالت السيدة مارلين: إنني قابلت هذا الولد في الشهر الماضي في فيينا.

هل تتحدثين عن نايف أبا زيد؟ سألتها.

نعم نعم إنه ولد بريء. يقول أنه لم يكن يدري ما الذي يكتبه فحسب قوله قال له الزملاء اكتبها فكتبتها ولم أكن أعلم أن هذه العبارة ستكون سببا لهذه الفوضي الكبيرة وستدمر البلاد وسيفقد أربعمائة ألف من السكان حياتهم.

لكن ما السر في هذه الجملة ومن هو هذا الدكتور؟ سألت السيد فالح.

ألا تعلم أن بشار الأسد قبل أن يكون رئيسا للبلاد كان طبيبا للعيون وهو قد دخل في مجال السياسة بمحض الصدفة فلو لم يكن أخوه الكبير تعرض لحادث مروري أودي بحياته لم يكن ليتسني له أن يخلف والده.

نعم، إذن كان الكاتب قد كتب جملة خطيرة جدا. قالها السيد فالح.

نعم يا سيدي خاصة في أيام الربيع العربي إذ حكومة بن علي في تونس كانت قد سقطت وفي مصر كانت هتافات الثورة قد قلبت حكومة مبارك العتيدة رأسا علي عقب. ففي مثل هذه الظروف الخطيرة أن يكتب طالب ذو أربعة عشر ربيعا "حان وقتك يا دكتور" لم يكن بأقل من هتافات الثورة. ولم تكن حكومة الأسد فقط ففي ذلك الوقت جميع حكام العرب كانوا مرعوبين. وما زاد الطين بلة حينما حولت قوات الأمن السورية بأعمالها الحمقاء هذه الشقاوة الطفولية البريئة إلي حركة ثورية؟

كيف ذلك؟

يقولون أنه بعد تفتيش أبا زيد تم إلقاء القبض علي ثلاثة وعشرين من الطلاب ولمدة شهر كامل مارسوا ضدهم التعذيب في مراكز الاعتقال. وعندما ذهب أولياء أمورهم إلي الضابط عاطف نجيب للاستغاثة فكان رد هذا الأحمق "انسوا هؤلاء الأطفال وأنجبوا أولادا آخرين وإن لم تكونوا قادرين علي الإنجاب فابعثوا زوجاتكم إلينا ونحن نجعلهم حبلي". الناس تحكي أن جملة نجيب الخبيثة هذه قد أشعلت النار في هذه المدينة الصغيرة درعا. بدأت المظاهرات وأطلقت الرصاصات وبدأت تسقط الجثث وبدأت الشدة في مسيرات الجنائز

وكان الخوف قد خرج من قلوب الناس ولم يعد في الإمكان منع سلسلة المظاهرات وقتل الأحياء وخروج المسيرات.

وفي لوحة مصورة أخري كان مكتوبا علي اللوح الحجري: النصيرية والعلوية كفار وزنادقة ومرتدون بإجماع علماء الأمة والجهاد والقتال ضد النصيرية والشيعة والروافض فرض عين علي جميع المسلمين. وتحت اللوحة كانت أعلام أمريكا وإسرائيل الوطنية مطبوعة ولعل الهدف من وراء ذلك هو إعطاء انطباع أن هذا التخطيط للحرب الأهلية هو نتاج مؤامرة للأعداء في الأصل.

وفي الجانب الأيسر كانت هناك لوحة مصورة أخري تشير إلي أن مدرسة بيت الثورة مستعدة لهدم مقام السيدة زينب ومآذن الزينبية كانت قد هُدمت من قذائف الثورة وللدفاع عنها كانت هناك كتائب صغيرة تتقدم إلي الحرم الزينبي وعلي جباههم شارات زينبية. وعلي مسافة من المآذن المتهدمة كانت توجد توابيت الشهداء وهي ملفوفة بشارات خضراء مكتوب عليها "لبيك يا زينب".

وفي لوحة أخري من الصور وهي لوحة من القماش كانت هناك صورة المسجد الأموي بدمشق وفي الخلفية مشاهد الدم والنار حيث التهمت النيران معبدا يهوديا وبرج الكنيسة وربما كان هذا يمثل حدادا علي المجتمع السوري كله حيث عاش لفترة طويلة المسيحيون واليهود والمسلمون وغيرهم بكل سعادة ومودة جنبا إلي جنب. يُقال أن مدينة دمشق وكذلك حلب من أقدم مدن العالم والمسجد الأموي قبل البناء كان عبارة عن كاتدرائية. وهنا يوجد إلي الآن رأس القديس يوحنا المعمدان مدفونا وقبل بناء الكاتدرائية المسيحية كان يوجد هنا معبد علي طراز معابد روما وكان يطلق عليه معبد جوبيتر. وقبل هذا كله كان في نفس هذا المكان معبد الحداد.

في القرون الأولي من دخول الإسلام في دمشق كانت هذه المدينة للغالبية المسيحية ثم أصبح الشيعة النزارية والقلاع الصليبية هويتها الرئيسية. وفي عهد صلاح الدين الأيوبي كانت السيطرة لأهل السنة في هذه المدينة وقد استمرت هذه السيطرة لمدة أربعمائة سنة بسبب الأتراك العثمانيين. أما في الوقت الحالي فنسبة سكان أهل السنة في بلاد الشام تصل إلي ٦٥٪ والعلويون نسبتهم ما بين ١٠ و١٢٪ والبقية الباقية موزعة بين الدروز والإسماعيلية والاثني عشرية والتركمان وغيرها من الشعوب. إن الفنان المصور ربما قد أراد كتابة نوع من الحداد من خلال هذا المسجد الأموي عبر تصوير ما كان عليه في الماضي ووضعه الحالي.

وكانت هناك رسومات طفولية وكان القصد منها الدعاية أكثر من التركيز علي الفن فطالب في الصف السابع كان قد رسم عالما وعلي رأسه عمامة وفي يده مكبر الصوت وهو ينادي بأعلي صوته: "حي علي الفتنة اقتلوا الشيعة والعلويين والروافض تسقط إيران المجوسية الصفوية يسقط النظام العلوي النصيري يسقط حزب الله". في لوحات ورسوم الطلاب كانت الرسالة واضحة في مكان ما لكن الفنانين الكبار كانوا قد ألقوا علي هذه الكارثة ستائر فنونهم. ففي لوحة زيتية كان مرسوما فيها اثنين أو ثلاثة أشخاص وكانت رؤوسهم مغلفة بأكياس بلاستيكية ذات وجوه إنسانية سطحية وعارية تماما من الفكر والرأي ومحرومة من أي نوع من التأثر وكان مكتوبا تحت هذا الرسم "فرحانين" متبوعا بعدد من العلامات الاستفهامية. يحكي الناس أنه في معظم الدول العربية المواطنون غير قادرين علي التعبير عما في قلوبهم بسبب قضاء حياتهم تحت أنظمة القهر ولذا لو سألت أي مواطن عربي عن أحواله فهو يرد علي الفور: كل شيء علي ما يرام. البلد يتقدم والناس سعداء وحكامهم عظماء. ولو ذهب هذا المواطن إلي بلد أجنبي فسيستغرق منه سنة أو

سنتين حتي يتأكد أنه الآن خارج بلده ويستطيع التعبير عما في قلبه. ومع قضاء هذه المدة الطويلة ينظر هذا المواطن علي سبيل الاحتياط الحذر هنا وهناك ثم يبدأ الحديث بصوت خافت لأنه لا يمكن له أن يفكر حتي بأن يتحدث بصوت عال.

كل لوحة كانت عبارة عن نواح كئيب وكان قد تم رسم الهيكل الإنساني علي قماش شفاف إذ كان يُري الجزء الأسفل من الوجه وكأنه قد تم تحليله والفكين قد تم مسخهما وتشويههما وبدآ ينزلان علي الأرض في شكل ذرات من الدم واللحم وعند النظر في صورة هذا الشاب الذي تم مسخه وتشويهه للحظات تشعر أنت وكأن الأذي قد بدأ يتسرب إلي داخلك. لم أري في حياتي صورة مصورة عن التعذيب مؤثرة ومخيفة لهذا الحد وإن كان قد سبق لي الذهاب إلي مختلف المتاحف العالمية للهولوكوست ووجدنا مكتوبا هناك علي الباب الرئيسي "ليس بعد الآن". حكايات التعذيب الكئيبة القادمة من بلاد الشام قد حطمت أرقام جميع الحكايات الإنسانية الأخري علي مر التاريخ. فكل يوم يأتي نبأ جديد عن التعذيب لكن هنا لا يُري أبدا اليافطة المكتوب عليها "ليس بعد الآن". يحكي الناس أن طرق التعذيب للمعارضين السائدة علي أرض الإسلام المركزية يبدو أمامها الموت عقابا صغيرا ويبدو الموت شيئا جميلا وقد وضع الله ستارا علي جماله وإلا فالناس الذين وقعوا فريسة لمراكز التعذيب لو عرفوا حقيقة الموت الأصلية لفقدوا الحماسة للحياة. صور الطائرات بدون طيار والقصف والدمار لحلب قد رأيتها من قبل أيضا وكانت تبدو كأنها صورة لمدينة ترجع إلي آلاف السنين قبل المسيح حيث الخراب والمكان الموحش الغير مأهول بالسكان. واليوم وبعدما رأيت نفس المنظر في لوحة تمام عزام سري في جسدي نوع من

القشعريرة حيث لم يكن باديا التوحش فقط بل كان هناك إحساس بأن جميع الآمال للمستقبل قد تهدمت.

وبعد الخروج من الجناح السوري وصلنا إلي البهو المركزي ولم يكن لدينا الآن سوي القليل من الوقت وكانت السيدة مارلين مصرة أن نشاهد أيضا بعضا من لوحاتها. وفي جناح الفن المعاصر كانت هناك لوحة كبيرة من القماش معلقة علي الحائط مكتوب عليها "شجرة الزقوم". وتحت الشجرة الكبيرة كانت بعض الأجساد الإنسانية المعلقة ملقاة علي الأرض وكأنها قد سقطت لتوها من علي الشجرة. وعندما أمعنا النظر علمنا أنه مازالت هناك بعض النفوس الإنسانية معلقة بأغصان الشجرة المختلفة وكانت تبدو من ملابسها وبشرتها ووجوهها أن جميعها شخصيات دينية فعلي رأس أحدهم العمامة وعلي رأس الآخر الغترة. وكانت المشاهد علي جانبي الشجرة لفئات مختلفة من الناس وهم مشغولون فيما بينهم في الاشتباك والجدال. فهمنا بعض الأمور ولم نستطع فهم أمور أخري. كان يبدو أن الهدف من هذه المشاهد هو التعليق علي الصراع الجاري الآن في العالم الإسلام بعد الحرب الدينية الأوروبية التي استمرت زهاء ثلاثين عاما.

لماذا علقت أولياء الله هؤلاء بأغصان الشجرة؟ احتججت علي مارلين.

قالت: في واقع الأمر إنني قد أعطيت للوحة الفنان العالمي الشهير "جاك كالوت" شكلا جديدا. ففي لوحة كالوت قد تم تعليق عامة الناس علي الأشجار نتيجة للنزاعات الدينية وفي لوحتي هذه فإن من يشعلون النزاعات الدينية هم من وصلوا إلي هذا المصير. إنه الحل التقليدي الأمثل والحياة الإنسانية ليست بسيطة وسهلة لهذا الحد.

قالت: ألا يبدو لك أن قارة أوروبا التي كانت منشغلة في القرن السابع عشر بالحرب الدينية والتي حصدت ثلث سكانها فالعالم الإسلامي يمر اليوم بنفس الحالة وهو اليوم في حاجة ماسة إلي مصالحة كـ" صلح ويستفاليا" أي أن نتخلص من الطائفيين وضيقي الأفق والمشايخ الذين يشعلون نيران الفتنة ويتسببون في الحوادث الدامية.

يا مارلين إن ويستفاليا نوع من الأسطورة والمشايخ الذين تريدين أن تعلقيهم علي الشجرة هم أيضا يعانون من نفس أسلوب التفكير الأسطوري فالتعذيب سواء كان من أهل الديانات أو من الآلة الحكومية ففي كل الأحوال يستحق الإدانة علي السواء.

لكن انظر من يزرع بذرة النفور بين المذاهب؟ فكنائس الكاثوليك وفصائل البروتستانت المختلفة حولت أوروبا لزهاء ثلاثين عاما إلي ساحة للتقاتل فيما بينها فكيف يمكن التخفيف من جرائمهم الشنيعة؟

يا أخي القضية ليست إثبات فريق ما مجرما بل الموضوع هو وضع استراتيجية مؤثرة لمنع القتل وسفك الدماء. ففي القرن السابع عشر وإن كان علماء الكاثوليك يحسبون طائفة البروتستانت تستحق القتل فكان سبب ذلك هو أسلوب تفكيرهم الديني واليوم أيضا إن كانت الفصائل المختلفة للمسلمين تبيح سفك دماء الآخرين فسببه أيضا وجهة نظرهم الدينية المنحرفة.

فما هو الحل لديك لهذه القضية؟ إن السيد فالح الذي كان يسمع حديثنا بإمعان قد وجه إلي هذا السؤال.

لا شيء غير أن يتم خلاص الشيعة والسنة من سحر الوقائع التاريخية الموضوعة والمفترضة والتي جعلتهما أسيرتين لها. فمن مآساة قتل عثمان رضي الله عنه بدأت الليلة الحالكة وجعلتها شهادة الحسين أكثر سوادا ثم أكملت البيانات التاريخية المسمومة ما كان متبقيا. ففي

كتب التاريخ والتأويل قد وضعت هذه البيانات بشكل وكأنها ليست كتبا دينية بل أسلحة ناسفة مليئة بالبارود. فما لم تقم هاتان الطائفتان بالتخلصٍ من هذه البيانات المسمومة من كتبهما الدينية ويصبح لأتباع محمد (ص) كتاب الله المنزل مرجعا واحدا ووحيدا فلن تعود الابتسامة الطبيعية في لوحاتك ورسومك يا عزيزي فالح.